اليونان

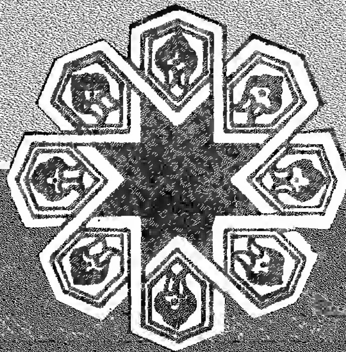
مقدمة في التاريخ الحضاري

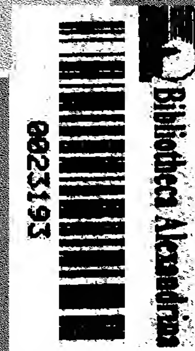
لطفي عبد الوهاب يحيى

دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن

أستاذ تاريخ الحضارة في جامعة الاسكندرية

١٩٩١





دار المعرفة الجامعية

ش سوتير - إسكندرية

ت : ٤٨٣٠١٦٣

اليونان
مقدمة في التاريخ الحضاري

لطفي عبد الوهاب يحيى
دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن
أستاذ تاريخ الحضارة في جامعة الاسكندرية

اليونان

مقدمة في التاريخ الحضاري

١٩٩١

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت ٤٨٣٠١٦٣

إهداء

إلى والديّ

محاولة للوفاء ببعض ما قدّماه

تقديم

لا تدّعي هذه الدراسة أكثر من العنوان الذي ظهرت به كمقدمة في التاريخ الحضاري للمجتمع اليوناني. وهي بهذا الوصف لم تكتب للباحث المتخصص في تاريخ هذا المجتمع وحضارته، ولكني أحبّ أن أعتقد أنها ضرورية للقارئ المثقف العام من حيث أنها تقدم لنا مجتمعاً اشتبكت حضارته. أخذاً وعطاء. بحضارة المنطقة التي نعيش فيها بحيث أصبح التعرّف على أبعاده الرئيسية على أقل تقدير أمراً أساسياً لاستكمال التعرف على هويتنا الحضارية.

وقد رأيت مما يفي بغرض هذه الدراسة أن أقسمها إلى ثلاثة أقسام: جعلت القسم الأول منها مدخلاً عاماً للمجتمع اليوناني يوضح الاطار الحضاري الذي تحرك بداخله. والبيئة التي عاش فيها وتأثر بها. ويقدّم القارئ إلى المصادر الرئيسية التي نستقي منها الحقائق الأولية المتصلة بهذا المجتمع. والقسم الثاني خصصته لتتبع المراحل التي مرّ بها هذا المجتمع حتى تبلورت شخصيته ومارسه استجابة للتحديات التي طرحتها ظروف البيئة أو ظروف العصر أو تراجعا عن هذه الاستجابة. وقد رأيت أن أتوقف عند ظهور الاسكندر الأكبر الذي افتتح عصراً جديداً لم تكن الحضارة اليونانية فيه إلاّ عنصراً واحداً في تكوين حضاري أوسع وأشمل. أما القسم الثالث فقد قصرت الحديث فيه على أهم المنجزات الحضارية التي تصورت أن المجتمع اليوناني قدم من خلالها شيئاً اختلف فيه عن غيره من المجتمعات أو تميز فيه عليها.

وقد كان المنهج الذي سرت عليه في كتابة هذه الدراسة هو منهج التأريخ الحضاري الذي لا يقتصر على الجانب السياسي فحسب؛ وإنما ينظر الباحث من خلاله إلى المجتمع نظرة شمولية تضم الجوانب الإقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية. وتصبح فيها المحصّلة النهائية لتفاعل هذه الجوانب هي التاريخ الحقيقي للمجتمع.

وتبقى في نهاية هذا التقديم كلمة عابرة عن بعض التفصيلات الأدائية المتعلقة بهذه الدراسة. وفي هذا الصدد. وفي حدود الطبيعة التقديمية لهذه الدراسة، فإني لم أرد أن أغرق القارئ في عدد كبير من الحواشي

التي لا يستفيد منها إلاّ الباحث المتخصص . وهكذا قصرت استخدامي للحواشي على حالتين اثنتين : الأولى حين كنت أستشهد بنصّ من المصادر الرئيسية ؛ والثانية حين كنت أجد أن الحاشية لازمة لتصحيح فكرة شائعة أو لتفصيل يخرج عن الخط الأساسي للمتن ولكنه قد يساعد في فهمه .

كذلك فقد التزمت في أداء الأسماء الدالة على الأشخاص والأوصاف بالنطق اليوناني للألفاظ التي تشير اليها متفادياً بذلك التحويرات التي طرأت عليها في الاستعمالات الأوروبية الحديثة. ولم أخرج عن هذا إلاّ في الحالات المعدودة التي استقر فيها العرب على نطق بعينه مثل : سقراط بدلاً من سوكراتيس . وأفلاطون بدلاً من بلاتون وأرسطو بدلاً من أرستوتيليس وهكذا . كما حاولت في كلّ مناسبة أن أردف إلى الاسم المكتوب بالعربية التصوير الافرنجي له في محاولة لتعريف القارئ بالنطق الصحيح له . بعد أن نقلت الحروف اليونانية التي قد لا يعرفها القارئ إلى الحروف اللاتينية التي تستخدم في كتابة اللغات الأوروبية الحديثة . هذا وفي أدائي للنطق اليوناني فإني لم أقدّمه بطريقة المدرسة التي تقدمه كنطق مقطعي كمي وفضلت عليه النطق النبري الكيفي الذي اعتقد أنه أقرب للنطق اليوناني القديم لأسباب يتجاوز الحديث عنها إطار هذا التقديم .

وأخيراً . ومرة أخرى في حدود الطبيعة العامة لهذه الدراسة . فإني لم أقدم في نهايتها قائمة بالمصادر الأساسية لها وإنما اكتفيت بذكر هذه المصادر في الحواشي حيثما وردت الإشارة اليها .وكذلك اكتفيت بإرفاق قائمة قصيرة انتقائية لعدد من المراجع الحديثة التي رأيت أنها قد تنفع القارئ الذي يودّ أن يتوسع بعض الشيء في التعرف على أبعاد الموضوع الذي تقدّمه الدراسة الحالية :

محتويات الدراسة

القسم الثاني
مراحل تاريخ اليونان

القسم الاول

مدخل الى تاريخ اليونان

الباب الأول

الإطار الحضاري لتاريخ اليونان

١ ـ القيمة الحضارية لدراسة تاريخ اليونان

المجتمع اليوناني القديم لم يكن مجتمعا مغلقا تنحصر قيمته الحضارية أساساً في المنطقة التي قام بها على قسم من الشاطىء الشمالي للبحر المتوسط بحيث لا تتعدى هذه المنطقة لتتأثر بغيرها أو تؤثر في غيرها الا بشكل عابر أو جانبي . وإنما كان هذا المجتمع منفتحا على غيره من المجتمعات التي سبقته إلى ازدهار النشاط الحضارى والتي ظهرت في منطقة الشرق الأدنى في مصر وسورية ووادي الرافدين (العراق القديم) وفي منطقة آسيه الصغرى (تركيه الحالية) وقد تأثر بهذه الحضارات الكبيرة السابقة له . وحين وصلت حضارته إلى مرحلة النضوج بدأت تنتشر في المناطق المحيطة بالبحر المتوسط في العصر القديم وتؤثر فيها، ثم أخذ هذا التأثير الحضاري يمتد في العصور التالية إلى مناطق أخرى قريبة أو بعيدة من حوض هذا البحر وقد ظل هذا التأثير مستمرا في صورة أو في أخرى بعد أن تداخل مع الحضارات التالية له بقدر يتفاوت من منطقة إلى أخرى بحيث نستطيع أن نقول ، دون ان نبتعد كثيرا عن الصواب ، إن أثر الحضارة اليونانية لا يزال قائما في عالمنا المعاصر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في اكثر من جانب .

أ ـ بين الحضارة اليونانية والحضارة العالمية

وقد كانت الجوانب التي طرقها النشاط الحضارى اليوناني متعددة بغض النظر عن الحجم الذي اتخذه كل جانب منها . سواء أكان ذلك يمس الناحية السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أو الفكرية أو الفنية أو الأدبية . ودون دخول في تفصيلات هذه الجوانب ، أشير هنا بشكل سريع إلى جانبين أو ثلاثة منها على سبيل المثال لا الحصر. ففي الجانب الفكرى أثرت الأفكار التي قدمها فلاسفة اليونان وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وبخاصة هذان الأخيران على الفكر الفلسفي القديم في المناطق المطلّة على البحر المتوسط بشواطئه الثلاث : الأوروبية والآسيوية والإفريقية وشمل هذا التأثير . فيما شمل ، عددا من قضايا الفكر المسيحي وبخاصة في الفترة الأولى لانتشار هذه العقيدة وصراعها مع الفكر الوثني الذي كان يقف بالمرصاد . والذي كان قد وصل آنذاك إلى قدر كبير من التأصيل والتفصيل والتنظيم . وقد امتد هذا الأثر الفكري اليوناني بعد ذلك في القرون الوسطى سواء في أوروبه أو في العالم العربى خلال العصر الإسلامي . واستمر ليجد صداه في الفكر الحديث والمعاصر . والأدب اليوناني . وبخاصة الأدب المسرحي الذي وصل في المجتمع اليوناني إلى درجة من النضج أصبح معها قالبا أدبيا قائما بذاته له معالمه الواضحة المحددة على يد عدد من الشعراء المسرحيين من امثال إيسخيلوس Aeschylos وسوفوكليس Sophokles ويوريبيديس Euripedes وأرستوفانيس Aristophanes وميناندروس Menandros . وعلى يد المفكر اليوناني أرسطو الذي قنن هذه العالم . لا زالت بصماته واضحة علىَ أدب المسرح حتى وقتنا الحاضر . والشيء ذاته يقال ، بتفاصيل أخرى ، عن منجزات اليونان في مجال العلوم . ويكفي في هذا الصدد أن نقول إن

التطوير الذي قام به علماء هذا المجتمع في علمي الفلك والرياضيات هو الذي مكّن إراتوستنيس Eratosthenes (إراتسطين عند العرب) من قياس محيط الكرة الأرضية بدرجة من الدقة لا تفترق إلا بكسر بسيط عن قياسه الصحيح الذي توصل إليه العلم المعاصر ، وأن التقدم الذي احرزه اليونان في سجال الطب وصل الاعتراف بأثره في دوائر هذه المهنة إلى درجة لانزال نلمس أثرها في تسمية القَسَم الذي يأخذه الأطباء على أنفسهم حتى هذه اللحظة باسم « قَسَم هيبوكراتيس » Hippokrates (قسم أبقراط عند الأطباء العرب) نسبة إلى الطبيب اليوناني الذي كان يحمل هذا الإسم .

ب ـ بين الحضارة اليونانية وهويتنا الحضارية

على أن دراسة المجتمع اليوناني لا تقتصر قيمتها على ما نقدمه لنا في فهم مسار الحضارة العالمية بموقعها في هذا المسار ، تأثرا و تأثيرا ، ولكن هذه الدراسة لهاقيمتها الخاصّة بالنسبة لنا،إذا كان لنا أن نستكمل تفهّمنا لهويتنا أو شخصيتنا الحضارية في العالم العربي ، وذلك بسبب التداخل الكبير بين حضارة المنطقة التي اكتسبت صفتها العربية على أثر الفتوح الإسلامية لتظـــل ملازمة لها حتى الآن ، وبين الحضارة اليونانية ـ وهو تداخل شغـــل عدة عصور امتدت عدة آلاف من السنين كان فيه بالنسبة للمنطقة التي نعيش فيها ، جانب العطاء والتأثير ، وجانب الأخذ والتأثر . وهمـــا الجانبان اللذان تتكون منهما أية شخصية حضارية ، ومن ثم لا يتسنى لنا أن نتفهّم جانبا أساسيّا من مقوّمات شخصيتنا الحضارية، في مسارها التاريخي،إلا بالتعرف عليهما .

وفي هذا الصدد يظهر التأثير الحضاري لمنطقة الشرق الأدنى القديم على المنجزات الحضارية للمجتمع اليوناني في أكثر من جانب،وأسوق

في هذا الصدد عددا من الأمثلة التي لا يتسع هذا العرض السريع لأكثر منها . فقد أخذ اليونان عن المصريين ، على سبيل المثال ، أولى مبادىء الطبّ والتشريح ، وهي مبادىء لم يقتصر مجالها على الخبرة الناتجة عن الممارسة فحسب ، وإنما دونها المصريون في شكل قواعد علمية كما يظهر لنا ذلك بوضوح في عدد من أوراق البردي التي ترجع إلى العصر الفرعوني والتي تم اكتشافها في أرض مصر منذ أواسط القرن الماضى حتّى الآن مثل إيبرز Ebers المحفوظة الآن في جامعة لايبتسيج مثل بردية هيرست Hearst المحفوظة الآن في جامعة كاليفورنية وبردية إدوين سميث Edwin Smith الموجودة حاليا في حيازة الجمعية التاريخية في نيويورك وبردية برلين الموجودة في متحف برلين — وهذه البرديات وغيرها تركت أثرها على المنجزات الطبية في المجتمع اليوناني وهو أثر وصل إلى درجة الاقتباس الكامل في كثير من الأحيان كما يظهر لنا بوضوح في كتابات ديوسكوريديس Dioskorides وجالينوس Galenos وهيبوكراتيس (أبقراط) Hippokrates . كذلك أخذ اليونان عن عهد المصريين المبادىء الأولى لفنّ النحت . فجاءت التماثيل اليونانية في عصرها المبكر نسخة من الاتجاه المصري الوقفة المتصلبة والنظرة المتجهة إلى الأمام والذراعان الملتصقتان إلى الجانبين واليدان المقبوضتان والقدم اليسرى المتقدمة قليلا على القدم اليمنى . وهي صفات نجدها جميعا في عدد من التماثيل اليونانية الموجودة في المتحف الوطني في أثينة . كما أخذ الفنانون اليونانيون ابتداء من عصر الطغاة (حوالي القرن السادس ق . م .) عن معابد مصر عمارة الأبهاء والأعمدة لتصبح بعد ذلك هي النمط السائد عند اليونان كما يتضح من مقارنة معبد الكرنك أو بقايا معبد سقارة في مصر بمعبد البارثينون

في أثينــه أو بقايـــا معبـــد أبوللون في أوليمبيه وهكذا [١] .
وعن وادي الرافدين أخذ اليونان مبادئ الرياضيات التي لم يقتصر فيها أبناء وادي الرافدين على نتائج التجارب العملية وإنما وصلوا فيها إلى درجة التنظير العلمي (وضع النظريات) ويكفي في هذا المجال أن نذكر أنّ الأصل الذي أخذ عنه عالم الرياضيات اليوناني فيثاغورس Pythagoras نظريته ، توصّل إليه علماء وادي الرافدين قبله بعدّة آلاف من السنين ، ولا يزال موجوداً في نقشه الأصلي على لوح من الطين المحروق محفوظ في متحف الآثار ببغداد . كما نجد تأثير وادي الرافدين واضحاً كذلك في مجالين آخرين : أحدهما هو مجال الأدب الملحمي الذي ظهر عند السومريين والبابليين في عدد من الملاحم الشعرية أبرزها ملحمة جلجامش وملحمة إينوما إيليش ، وأثر الملحمة الأولى يظهر في أكثر من جانب في ملحمة الأوديسية المنسوبة إلى الشاعر اليوناني هوميروس Homeros . والمجال الثاني هو مجال الأساطير التي كان الانسان في العصور القديمة يحاول عن طريقها أن يفسّر ظواهر الطبيعة وظواهر الكون المحيط به ،مثل ظواهر الخلق والحياة والموت والخصوبة والإجداب وغيرها ومن ثمّ يحدّد علاقته بها وموقفه منها . وهنا نجد قدراً غير قليل من الأساطير اليونانية تكاد تتطابق فكرة وتفصيلاً مع الأساطير التي سبقتها في وادي الرافدين ، مثل الأساطير المتعلقة بقصة الطوفان وقصة خلق الإنسان من طين وماء وروح إلهية ، وأسطورة إنانا ودوموزي (عشتار وتموز) البابلية ونظيرتها أسطورة أفروديتي

---

(١) Glanville, S.R.K., (ed.) : The Legacy of Egypt (Oxford, 1963), pp. 180-2, 195.

راجع كذلك ملحق اللوحات .

وأدونيس اليونانية التي وصلت إليهم عن طريق الفينيقيين[٢] .

أمّا عن التأثير السوري في المجتمع اليوناني ، فإنّه لم يقتصر على نقل التأثيرات الحضارية من وادي الرافدين ، وإنما تعدّى ذلك للتأثير الإيجابي المباشر . وحسبنا في هذا الصدد أن نذكر أن الحروف الهجائية التي طوّرها الفينيقيون عن الحروف الهجائية المصرية ونقوّها ، خلال هذا التطوير ، من آخر المقاطع التصويرية المصرية التي كانت لا تزال عالقة بها ، بحيث أصبحت أبجدية تمثل القيم الصوتية فحسب ، قد نقلوها ، في أثناء نشاطهم التجاري في البحر المتوسط ، إلى بلاد اليونان لتصبح (بعد أن زاد اليونان عليها حروف الحركة) أداة طيّعة لسرعة انتشار الكتابة ، ومن ثم لانتشار الحركة الثقافية بكلّ عمقها واتساعها .

على أنّ اتصال الحضارة اليونانية بحضارة الشرق الأدنى القديم لم يتوقف عند هذه المرحلة ، فقد طوّر المجتمع اليوناني ما أخذه عن مجتمعات الشرق الأدنى ، وزاد عليه وصاغ كلّ ذلك صياغة جديدة وبخاصة خلال القرنين الخامس والرابع ق.م لتكتمل الدورة الحضارية بعد فتوح الاسكندر الأكبر في الشرق ، وتلتقي الحضارتان من جديد ، مع تأثير يوناني ظاهر هذه المرّة على الشرق الأدنى سواء في جوانب

---

٢) عن تأثير وادي الرافدين على بلاد اليونان في مجال علم الفلك راجع :

Cary, M. and Haarhoff, T, J. : Life and Thought in the Greek and Roman World (London, 1961), p. 197.

عن تأثير اساطير وادي الرافدين على الاساطير اليونانية راجع :

Graves, Robert: Greek Myths (Pelican ed., 1962) I, p. 34; Yehya, Lutfi A-W. : Myths on the Conception of Life between Mesopotamia and Homeric Greece, (The Arab Historian, IX, 1978) pp. 5-14.

العلم أو الفنّ أو الفكر أو الإدارة أو غيرها. وأكتفي في هذا الصدد بذكر مدرسة الاسكندرية ومكتبتها القديمة التي كانت يونانية المولد والصيغة والمحتوى والتي كانت مصدر إشعاع ثقافي بارز في منطقة الشرق الأدنى في كل جوانب العلم والفكر والفنّ والأدب لقرون طويلة . ثم المدارس أو المراكز الثقافية السورية التي لعبت دوراً مرموقاً في نشر الثقافة اليونانية في المنطقة واستمرت ، هي ومدرسة الاسكندرية ، في تأدية هذا الدور حتى العصر الإسلامي حين بلغت حركة الترجمة من اليونانية، إلى العربية ذروتها في عصر الخليفة العباسي المأمون ، وانتقل على أثر ذلك مركز الإشعاع الثقافي إلى بغداد لفترة غير قصيرة شهدت تأثيراً يونانياً واضحاً في جوانب الطب والرياضة والعلوم والفلسفة التي استوعبها العالم العربي (بالمعنى الحضاري لا العنصري أو العرقي لهذه الصفة) وطوّرها علماؤه بعد ذلك من أمثال ابن رشد واسحق بن حنين والغزالي والفارابي وابن سينا وغيرهم لتشكّل . نتيجة لذلك ، قسماً أساسياً من تراثنا العلمي والفكري.

والشيء ذاته يذكر إذا ما تحدّثنا عن التأثير الفني اليوناني الذي شهدته منطقة الشرق الأدنى سواء بشكل مباشر أو عن طريق الفنّ الروماني المتأثر بدوره بالفنّ اليوناني تأثراً كبيراً وفي بعض الأحيان تأثراً كاملاً . وأجترئ هنا بالإشارة إلى ثلاث مناطق يظهر فيها الطراز الفني اليوناني بشكل واضح . وأولى هذه المناطق هي الأردن التي نجد فيها . في مدينة البتراء المدافن المنحوتة في الصخر بواجهاتها وإفريزاتها وأعمدتها التي تتبع الطراز المعماري اليوناني بشكل كامل . وهو أمر نجده يتكرر في منطقة أخرى (كانت في الواقع امتداداً لهذه المنطقة في عهد الحكم النبطي) وهي منطقة شمال غربي شبه الجزيرة العربية عند مدينة العلا ومغائر شعيب ومداين صالح . أما المنطقة الثالثة فهي اليمن التي ظهر الطراز الفني اليوناني واضحاً في عدد من التماثيل التي

كشفت عنها بعثات التنقيب الأثرية في المنطقة ، وفي قطع العملة التي قلّدت العملة اليونانية (وبخاصة العملة الأثينية) تقليداً كاملاً في الرسوم والرموز وحتّى الحروف اليونانية المنقوشة عليها طوال مرحلة غير قصيرة من مراحل التاريخ الفني القديم (٣) . وهكذا أصبح هذا التأثير اليوناني عاملاً دخل في تشكيل هويتنا الفنية سواء في مرحلة التقليد المباشر أو حين تطوّر بعد ذلك ليمتزج بعناصر فنية محلية ويدخل في مرحلة جديدة من مراحل تراثنا الفني .

٢ ـ اتجاهات في تفسير حضارة اليونان

التعرف على المجتمع اليوناني يصبح ، إذن ، أمراً له قيمته التي لا يمكن إغفالها سواء فيما يخصّ المسار الحضاري العالمي أو فيما يخصّ التعرف على الشخصية الحضارية للمنطقة التي يعيش فيها . ولكي نتعرف على المجتمع اليوناني لابد أن نبدأ بالتعرف على المجال الحضاري الذي كان هذا المجتمع يدور في داخله حتّى نستطيع أن نتفهم أوجه نشاطه المختلفة سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية أو ثقافية أو فنية وقد طُرحت في هذا الصدد آراء مختلفة . وأحد هذه الآراء ينظر إلى الأمر نظرة قومية أو إقليمية محضة ترى أن كل إنجازات المجتمع اليوناني وأوجه نشاطه الحضاري انبثقت من داخل بلاد اليونان فحسب : دون أن تنطبع أو تتأثر بمؤثرات حضارية جاءت من مناطق أخرى خارج هذه البلاد . وهناك كذلك رأي آخر ينظر إلى الإنجازات الحضارية للمجتمع اليوناني القديم على أنها مرحلة من المراحل الحضارية

---

(٣) لطفي عبد الوهاب يحيى : العرب في العصور القديمة (دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٨) ، صفحات ١٢٧ ، ١٤١-١٤٣ ، ولوحات ٥ أ-ب-ج ، ٨ أ-ب ، ١٥ أ-ب من المرجع ذاته .

للقارة الأوروبية وحدها وأنها لا تنتسب إلى إطار آخر غير إطار القارة الأوروبية .

والتناقض الأساسي الذي يصطدم به هذان الرأيان أوهذان التفسيران هو أنّ الحركة التاريخية والتيارات الحضارية لا تعرف الحدود الجغرافية ولا تتوقف عندها سواء اكانت هذه الحدود قومية أو قارية واذا كان هذا ينطبق على كل المناطق بوجه عام فانه ينطبق على المنطقة التي يوجد فيها المجتمع اليوناني بوجه خاص ، إذ لا يمكننا إطلاقا أن نفصل بين هذا المجتمع وبين القارتين الآسيوية والإفريقية .

وعلى سبيل المثال فنحن نجد . من الناحية البشرية أن المنطقة التي يشكل هذا المجتمع جزءا من سكانها مسرحا لحركة دائمة دائبة لعديد من الشعوب والاقوام والقبائل التي كانت تدور في نطاق لم يقتصر على بلاد اليونان أو القارة الاوروبية . فالعناصر الأيونية والأيولية والدورية التي تكوّن منها الشعب اليوناني عرفت طريق الهجرة إلى شواطىء اسيه الصغرى واستقرت فيها . وقبائل البالستو التي استقرت في نهاية المطاف في المنطقة السورية (وسميت فلسطين على اسمها) كانت تشكل جزءا من سكان المجتمع الذي سكن جزيرة كريت وأقام حضارتها في العصر المينوى (من العصور الحضارية المبكرة في العالم اليوناني) قبل نزول الكارثة التي أطاحت بهذه الحضارة ، والصقليون الذين اعطوا اسمهم لجزيرة صقلية في العصر التاريخي كانوا بدورهم من بين هذه القبائل أو العناصر الكريتية وهكذا . ومن الناحية الحضارية لا يمكن ان نفصل بين الحضارة المينوية التي ظهرت في كريت والحضارة الميكينية التي ظهرت في بلاد اليونان من جانب ، ولا يمكن الفصل بين هاتين الحضارتين وبين الحضارات المصرية (التي ظهرت على الشاطىء

الافريقي) والسورية (التي ظهرت على الشاطئ الاسيوى) من جانب آخــر .

ولكن اذا كان هذان الاتجاهان : القومي والقاري لا يفسران تاريخ المجتمع اليوناني تفسيرا شافيا ، فاني أرى أن التفسير الحقيقي لهــذا التاريخ هو ما يمكن ان نطلق عليه اسم التفسير الحضارى.وتفصيل ذلك ان تاريخ اى مجتمع هو في حقيقة الامر سجل للنشاط الحضاري لهذا المجتمع في كافة جوانب نشاطه . وهذا النشاط الحضاري محصلة تأثر هذا المجتمع بغيره من المجتمعات وتأثيره فيها وهذا التأثر والتأثــير المتبادل لا يمكن ان يتم الا اذا كان هناك اتصال سهل بــين هــذه المجتمعات يؤدى إلى سهوله التعامل والاحتكاك بينها . ومن هنا تصبح الدائرة الحضارية أو المجال الحضارى الذي ينتمي إليه أي مجتمع هــو المجال الذي يمكن في داخله أن يتصل هذا المجتمع ويحتك احتكاكــا سهلا مع غيره من المجتمعات بصرف النظر عن الحدود القومية لهذا المجتمع أو حدود القارة التي ينتمي إليها ، وفي هذا الصدد فاني أرى ان حوض البحر المتوسط كان يشكل المجال الذي يمكن للمجتمــع اليوناني أن يتعامل أو يحتك مع غيره من المجتمعات أو الحضارات في سهولة ويسر كبيرين .

٣ ـ المجتمع اليوناني وحضارة البحر المتوسط

أ ـ مقومات الوحدة الحضارية للبحر المتوسط

وفي الواقع فإن الذي يتأمل النشاط الحضارى الذي قام في حوض البحر المتوسط يلمس تداخل هذه الحضارات بشكل كبير ، وامتزاجها أو التقاءها في كثير من الاحيان . بحيث يمكن ان نقول بشكل عام إنها مركز لوحدة حضارية إن لم تكن متجانسة تماما في كافة مناطقهــا

فهي على اقل تقدير متكاملة ، وهي في كل الاحوال يظهر فيها اتصال يكاد يكون دائما فيما بين هذه المناطق . وقد كان هذا الوضع نتيجة ظرفين طبيعيين أديا إلى سهولة المواصلات بين الشواطيء المختلفة للبحر المتوسط وبالتالي إلى سهولة الاحتكاك بين سكان هذه الشواطيء

ويتصل الظرف الأول بتضاريس حوض البحر المتوسط وفي هذا المجال نجد أن هذا الحوض يحيط به نطاق متصل من الموانع الطبيعية ، سواء في ذلك السلاسل الجبلية المرتفعة التي لا يصلها بما يقع عبرهـا سوى بعض ممرات ضيقة معدودة ، أو الصحارى الجرداء المقفرة التي لا تقل في مناعتها عن هذه الجبال اذا نظرنا إليها في ضوء ظروف العصر القديم الذي لم يعرف الا طرقا بدائية للمواصلات بالقياس إلى ما نعرفه في العصر الحاضر .

ولنأخذ الطرف الغربي من الشاطيء الأوربي كنقطة ابتداء لتتبع هذا السياج الطبيعي في اتصاله ومناعته.إنه يبدأ بجبال البرانس شمالي شبه جزيرة ايبرية (اسبانية والبرتغال) ، ثم في شكل جبال ألالب في جنوبي غالة (فرنسه الحالية) وفي شمال شبه الجزيرة الايطالية ثم يستمـر في سلسلة جبال الكريات في شمال شبه جزيرة البلقان ، وبعد ذلك في مرتفعات شبه جزيرة القرم ، ثم تسير المرتفعات محاذية لساحل آسيـه الصغرى على شكل جبال بنتوس في الشمال وجبال طوروس في الجنوب لتتصل عند الشاطيء الشرقي للبحر الابيض المتوسط بالصحراء السورية ثم تدور مع هذا الشاطيء غربا في امتداد صحراوى آخر يبدأ بصحراء سيناء ، ثم يستمر في الصحراء الكبرى إلى غربي مجرى النيل وهـذه تتصل بدورها في الجزء الغربي من الساحل الافريقي بجبال أطلس التي تنتهي هي والصحراء الكبرى عند ساحل المحيط الاطلسي . وقد فصل

هذا النطاق الطبيعي المنيع بين شاطىء كل قارة من القارات الثلاثة المطلة على البحر الأبيض وبين المناطق التي تليه عبر هذا النطاق ومن ثم فقد كان التوجيه الجغرافي لسكان هذه الشواطىء ليس إلى داخل القارات التي توجد بها ، وانما إلى خارجها : إلى البحر الذي تحده هذه الشواطىء.

وقد كان البحر نفسه هو الطرف الطبيعي الثاني الذي اتم حلقة الاتصال بين سكان شواطئه في القارات الثلاثة . وقد ساعدت على ذلك عدة مميزات اتصف بها البحر المتوسط فهو من جهة بحر مقفل يكاد أن يكون بحيرة لولا المضيق الذي يفصل بين شبه جزيرة ايبرية والساحل الافريقي في الغرب . وقد كان ذلك سببا في هدوئه إلى حد كبير إذا استثنينا بعض العواصف المحلية البسيطة التي يتعرض لها في بعض مواسم السنة وكان هذا الهدوء بدوره عاملا كبيرا في تشجيع هؤلاء السكان على ركوب البحر في عصر مبكر .

ومما يشجع كذلك على الملاحة في هذا البحر تقارب سواحله في أكثر من موضع وكثرة الجزر التي تنتشر في أرجائه وبخاصة في القسم الشرقي منه فنحن نجد الساحل الأيبيرى يكاد يلاصق الساحل الافريقي في الغرب لولا مضيق جبل طارق ، كما يكاد الطرف الجنوبي لشبه جزيرة ايطالية يلتقي بالشاطىء الافريقي عبر جزيرة صقليه، كما تكاد تلتصق الشواطىء الأوروبية والآسيوية عند مداخل البحر الأسود في الطرف الشمالي الشرقي للبحر المتوسط . أما عن الجزر فنحن نجد ، على سبيل المثال ، قدرا كبيرا منها في القسم الشمالي الشرقي للبحر المتوسط (وهو القسم المسمى بحر ايجه) بين الساحل الشرقي لشبه جزيرة البلقان والساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى. كما أن الجزر الكبرى الممتدة على طول البحر المتوسط من غربيه إلى شرقيه مثل سردينيه وقورصقة وما لطه وصقليه وكريت وقبرص تشكل دون شك نقط

ارتكاز ملاحية بين شواطيء القارات الثلاثة التي تحيط بهذا البحر .

واخيرا فان البحر المتوسط غني بانحناءاته وتعاريجه التي تمثل اماكن لحماية السفن وموانيء طبيعية من الطراز الاول وبخاصة قسمه المسمى بالبحر الادرياتي الذي تحده السواحل المتقاربة في غربيه وشماليه وشرقيه وقسمه المسمى ببحر ايجه الذي تحده اليابسة من ثلاث جهات ثم عشرات التعاريج والرؤوس والالسنة والمضايق التي تنتشر على سواحل البحرين بوجه خاص وبقية أقسام البحر المتوسط بوجه عام .

ب - بعض المظاهر العامة لهذه الوحدة الحضارية

وإذن فقد تهيأت الوسائل لسكان شواطيء البحر المتوسط لأن يتصلوا ببعضهم . ولحضاراتهم بأن تتداخل وتمتزج أو تلتقي ، وقد ظهر ذلك في عدة جوانب سأجتزيء بذكر بعض أمثلة تعطي فكرة سريعة عنها ، ففي الجانب الثقافي (الذي تزاحمت فيه التيارات عابرة البحر في كل اتجاه بين مصر وسورية وكريت وبلاد اليونان وقرطاجه وروما) أن الثقافة اليونانية لم تقتصر على بلاد اليونان في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان وانما اتخذت مواطن لها في اكثر من مكان على الشواطيء الآسيوية والافريقية . فشواطيء آسيه الصغرى شهدت ، حسب بعض الروايات . مولد هوميروس الذي تنسب إليه الالياذة والاوديسيه اول ما ظهر من ادب اليونان ، بينما كانت هذه الشواطيء هي المنطقة التي دار فيها حصار طروادة الذي شكل منطلق هاتين الملحمتين الهوميريتين . وفي مدينة الاسكندرية على الشاطيء الإفريقي وفي ربوع سورية على الشاطيء الآسيوي ازدهرت في العصر المتأغرق (عصر ما بعد الاسكندر) مراكز الثقافة اليونانية على نحو ما ذكرت في مناسبة قريبة .

وفي الجانب السياسي كان حوض البحر المتوسط أو جزء منه هو المجال الأول للامبراطوريات التي قامت على شواطئه وهكذا اتجه المصريون في تكوين إمبراطوريتهم في عهد فراعنة الدولة الحديثة إلى المنطقة السورية والشواطىء الجنوبية لآسيه الصغرى ، ومد تحوتمس الثالث نفوذه إلى ربوع بحر إيجه واقام احد قواده حاكما على احدى جزر هذا البحر ، بينما شكلت آسيه الصغرى وسورية ومصر ولايات في امبراطورية الاسكندر القادم من مقدونية على الشاطىء الأوروبي للبحر المتوسط ، والشيء ذاته يقال عن الامبراطورية التي أقامتها رومه والتي كان حوض البحر المتوسط هو إطارها الرئيسي .

وفي مجال الدين نجد عبادة آمون الإله المصرى تنتشر خارج مصر وبخاصة بين اليونان . فنحن نجد لهذا الإله مكانته في أثينة التي عرفت عبادته قبل الثلث الأول من القرن الرابع ق . م . كما نجد الاسكندر المقدوني يقرنه بالإله زيوس Zeus كبير آلهة اليونان ، ويتخذ منه إلها هاديا يستوحيه في اكثر من مناسبة في أثناء حملاته التي حقق بها تكوين امبراطوريته. والشيء نفسه يتكرر ، بتفاصيل اخرى ، حين نجد سرابيس Sarapis الإله المصرى الذي اتخذ شكلا يونانيا تنتقل عقيدته في عهد البطالمة (خلفاء الاسكندر في مصر) من الاسكندرية التي اتخذوها عاصمة لهم إلى أغلب أرجاء العالم المتأغرق الذي قام في القسم الشرقي لحوض البحر المتوسط على أثر تقسيم امبراطورية الاسكندر .

فاذا انتقلنا إلى جانب التجارة وما قامت به من ربط حضاري بين شواطىء هذا البحر وجدنا الفينقيين على الساحل السورى يقومون بدور فعال في هذا الميدان فنحن نراهم من خلال أشعار الأدويسيه يبيعون المجوهرات لنساء اليونان والخيطون ر الجلباب لرجالهم . ولم تكن هذه إلا نبلا من كثير من السلع التي نقلها الفينقيون إلى الشواطىء

اليونانية وغيرها منذ ان بدأت اساطيلهم التجارية تجوب القسم الشرقي للبحر المتوسط حوالي ١٠٠٠ ق . م على اثر انحسار النشاط البحري المصري في هذه المنطقة .

وليس هذا كل شيء فان الروابط الحضارية بين مناطق حوض البحر المتوسط تعدّت حدود الاتصال العادى سواء أكان ذلك في جانب السياسة أو الدين أو التجارة إلى الفن الذي أسلفت الإشارة إلى تنقله تأثراً وتأثيرا بين هذه المناطق ، كما ظهر في شكل هجرات بشرية ينتقل فيها سكان شاطيء إلى الشواطيء الأخرى بكل ما ينتقل مع هذه الهجرات من أفكار ونظم وعادات وتقاليد وعقائد وثقافة ولغة ونظرة للحياة بوجه عام . وفي هذا المجال الأخير نجد الفينقيين يهاجرون قبل القرن الحادي عشر ق . م . في كل اتجاه تقريبا ويقيمون جاليات صغيرة أو كبيرة لا تلبث أن تصبح مستعمرات فينيقية في الاماكن التي يستقرون بها وهكذا نجد مستعمراتهم في قبرص في شرقي البحر المتوسط وصقلية وسردينية في وسطه ، وعلى شواطيء اسبانية وعلى الساحل الافريقي تونس الحالية حيث اسسوا اوتيكه (المدينة العتيقة) وقرت حدث (القرية أو المدينة الحديثة) التي عرفت في التاريخ الغربي باسم قرطاجه والتي اسسوهسا حوالي ٨١٤ ق . م . وعددا آخر غير هذه المدن . سواء على الشاطيء الافريقي أو الشاطيء الاوروبي

وقد بلغ نشاط الفينقيين في هذا المجال ذروته في غربي البحر المتوسط بين القرنين العاشر والثامن ق . م . وامتد نفوذ المهاجرون — الفينيقيين في موطنهم الجديد (قرطاجه) التي علا شأنها ابتداء من اواخر القرن الثامن واوائل القرن السابع ق . م على اثر الغزو الاشورى

للمدن الفينيقية في سورية ـ اقول امتد نفوذهم من حدود ليبية إلى اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالي) ثم جزر الباليار ومالطة وسردينية والقسم الغربي من جزيرة صقلية وبعض الاماكن على شواطىء غالـة (فرنسه الحالية) والسواحل الشرقية والجنوبية لشبه جزيرة إيبريه.

وأتحدث الآن ، في إطار هذه الوحدة الحضارية لحوض البحـر المتوسط ، عن المجتمع اليوناني وعن مجتمع آخر اتصل به وتداخـل معه حضاريا إلى حد كبير وهو المجتمع الروماني • وفي مجال الحديث عن اليونان فقد كانوا مثل الفينيقيين شعبا من المهاجرين والتجار . فقـد بدأت منذ القرن الحادى عشر ق . م . البدايات الأولى لموجـات الهجرات اليونانية التي استقرت (منذ القرن الثامن ق . م .) بعـدد كبير من جاليات هذا الشعب على شواطىء القارات الثلاثة المحدقـة بالبحر المتوسط . وهكذا ظهر على هذه الشواطىء عدد من المدن التي اقامها هؤلاء المهاجرون على نسق المدن اليونانية الموجودة ببلاد اليونان الأصلية (الأوروبية) ونقلوا إليها نظم تلك المدن وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وطرق المعيشة السائدة فيها . ومن هذه المدن اليونانية سواء في الوطن الاصلي أو في المهاجر جاب اليونان بقوافلهم التجارية أرجاء البحر المتوسط وبخاصة القسم الشرقي منه بعد أن ورثوا فن الملاحـة والتجارة عن الفينيقيين لينقلوا السلع التجارية ومعها حضاراتهم مـن شاطىء إلى شاطىء .

ومن بين المدن اليونانية التي اسهمت بانتشارها على الشواطىء المختلفة للبحر المتوسط في اشاعة نوع من الوحدة الحضارية في حوض هذا البحر أذكر على سبيل المثال ميليتوس Miletos وافسوس Ephesos على الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى ، ونيابوليس Neapolis أو المدينة

الجديدة (نابولي الحالية) في ايطاليه ونيكاية Nikaia (نيس الحالية) وما سيلية Massilia (مرسيلية الحالية) ومونويكوس Monoekos (موناكو الحالية) على ساحل غالة (فرنسه الحالية) وامبريسون Emporeon (امبرياس الحالية) في اسبانيه، ونقراطيس Naukrates (نقراش الحالية) في مصر .

فاذا انتقلنا إلى المجتمع الروماني (في شبه جزيرة ايطاليه) وجدنا تاريخه يقدم بدوره دليلا آخر في مضمار التداخل الحضارى بين شواطىء البحر المتوسط . حقيقة ان الرومان لم يكونوا شعبا خلاقا مثل المصريين أو الفينقيين أو اليونان ، ولكن ذلك لا يغير من الحقيقة التي نحن بصدد الحديث عنها في سنا التقديم ما دام التأثر أو التأثير يتم في داخل حدود حوض البحر المتوسط .

فالرومان تأثروا بالنظم والأفكار التي انتقلت إليهم من شواطىء هذا البحر وفي هذا المجال نجد المدن اليونانية التي أسسها اليونان في ايطالية ، وبخاصة على ساحلها الغربي ، تصبح مصدر سبيل من الأفكار والنظم التي انتقلت مع السلع التجارية اليونانية إلى مدينة رومه Roma وهي بعد في طور نشأتها . وبعد أن شبت رومه عن الطوق وأصبحت القوة المسيطرة في حوض المتوسط نجدها تتلمذ على بلاد اليونان في أكثر من مجال من مجالات الأدب والفكر والثقافة بوجه عام بحيث اصبحت الثقافةاليونانية لازمة من لوازم اي مثقف رومانييعتد بتكوينه الفكرى: يحصل عليها عند المعلمين اليونان في مهجرهم الروماني ، أو يسعى إليها في بلاد اليونان في اثينة أو غيرها من مراكز الثقافة اليونانية .

ولكن اذا كان الرومان لم يسهموا في ميدان الفكر بقسط مقبول يصبح في انتشاره نوع من الربط والتوحيد بين شواطىء البحر المتوسط

فقد اسهمت نظم الحكم الرومانية بشكل وافر في هذا الاتجاه ظهر هذا مرة في النظام المرن الذي قامت عليه حقوق المواطنة في الامبراطورية الرومانية التي كان حوض مسرحها الاساسي ، اذ كان هذا النظام من المرونة بحيث استطاع أن ينسحب على اغلب شعوب الامبراطورية لينتفع به ابناء هذه الشعوب في حدود وعلى درجات متفاوتة وكان هذا دون شك عامل تقريب او ربط بينهم .

كذلك كان هناك نظام البلديات **municipia** الذي فصل في شكل متناسق ما بين الإدارة المركزية الرومانية والإدارات المحلية في الولايات الرومانية من حدود وحقوق. لقد كان هذا النظام يمثل وضعا وسط بين النظام المركزي الذي عرفته المناطق الواقعة على سواحل القسم الشرقي للبحر المتوسط والذي كانت الحكومة تقبض فيه على زمام الأمور عن طريق الاستئثار بكل السلطات ، وبين نظام المدينة الحرة أو نظام دولة المدينة الذي شاع في بلاد اليونان والذي كانت فيه على كل مدينة تشكل كيانا قائما بذاته من كافة الجوانب . حقيقة إن الرومان لم يقدموا على تطبيق هذا النظام على أثر نظرية سياسية تفتقت عنها أذهان مفكريهم . وإنما كان تطبيقهم لها نتيجة اضطرارية لوضع اقتصادي وجدوا فيه في فترة معينة . ولكن مع ذلك فإن النظام قد وجد وانتشر في ظل الحكم الروماني سواء في داخل إيطاليه أو في بقية مناطق البحر المتوسط . وكان في انتشاره هذا نوع من التوحيد بين إدارة هذه المناطق ظل يربط بينها ردحا غير قصير من الزمن .

الباب الثاني

أثر العوامل الجغرافية في تاريخ اليونان وحضارتهم

وأختتم الحديث عن الإطار الحضاري لتاريخ اليونان بعرض سريع لجانب رئيسي من الجوانب التي أثـرت في تـاريخ المجتمع اليوناني وحضارته ، وهو العوامل الجغرافية ، وهي تشكل البيئة المكانيـة أو الظروف المادية التي وجد فيها هذا المجتمع . وليس معنى ذلك ان هذا هو الجانب الوحيد الذي أثر على المجتمع اليوناني ؛ ولكن مع ذلـك فهو جانب ترك بصماته واضحة على مسار التاريخ اليوناني وعلى خصائص الحضارة اليونانية ، بحيث لا نستطيع أن نغفله إذا أردنا أن نستكمل تعرّفنا على هذا المسار وعلى هذه الخصائص .

١ ــ الجبال والأنهار

وأول ما يطالعـنا إذا نظرنا إلى بلاد اليونان هو أن طبيعتها الجغرافية ليست امتدادا سهليا منبسطا كما هو الحال في مصر أو في الجزء الأكبر من وادى الرافدين مثلا . وإنما نجد هذه البلاد (أي بلاد اليونان) ذات طبيعة وعرة في عمومها . فالجبال تشغل الجزء الأكبر من سطحهـا (ما يعادل أربعة أخماس هذا السطح) على هيئة سلاسل جبلية تخرقها

في كلّ الاتجاهات تقريبا بشكل يجعلها تنقسم انقساما طبيعياً إلى مناطق صغيرة تكاد تكون منعزلة عن بعضها . كما أن الأنهار الموجودة بها تفتقر سهولة المجرى وسلامته مما يجعلها عوامل فصل بدلامن أن تكون عوامل وصل بين هذه المناطق الصغيرة التي فرقت بينها التكوينات التضاريسية الجبلية .

وهكذا ، بينما قام في كلّ من مصر ووادي الرافدي مجتمع كبير موحدّ في فترة مبكرة من تاريخهما ، نجد أن تضاريس بلاد اليونان تقسم سكانها إلى مجتمعات صغيرة في العصور القديمة التي لم يكن فيها الشعورالقومي قد استطاع أن يتغلب بعدعلى الفواصل والحواجز التضاريسية الطبيعية . وقد تطوّر كلّ من هذه المجتمعات الصغيرة بحيث أصبح كيانا قائما بذاته لا تتسع مساحته في أغلب الأحوال لأكثر من مدينة واحدة ، يحيط بها امتداد بسيط من الأرض يقوم فيه عدد قليل من القرى التي يمكن أن نعتبرها ضواحي لهذه المدينة وربما قامت فيه ميناء إذا كانت المنطقة مطلّة على البحر . وهكذا قام في بلاد اليونان في العصر القديم نظام دولة المدينة التي عرفت في مجال الحديث عن النظام السياسي اليوناني القديم تحت اسم Polis أو الدويلة التي تقوم عادةفي مدينة واحدة والمنطقة المحيطة بها .

ولكي ندرك أثر الظروف الجغرافية الطبيعية في مجال تقسيم بلاد اليونان إلى هذه الكيانات الصغيرة التي شاعت بينها النزعة الانفصالية . سأشير إلى بعض الأمثلة للسلاسل الجبلية الوعرة التي مزقت بلاد اليونان وأدت إلى هذا التقسيم أو التفتيت . فبين كورنثه Korinthos واتيكه Attika (وهي المنطقة التي تتكون من اثينه Athenae والقرى والأراضي المحيطة بها) تقوم جبال جرانيه Geranea وجبال كراته Kerata التي تعترض المضيق الذي يقع بين هاتين المنطقتين . والطريق

الوحيدة الموّصلة عبر هذه الجبال لا تزيد عن ممر ضيق يمتد على الحافة الشرقية لجبال كرانه لمسافة ستة أميال على ارتفاع يتراوح بين ٦٠٠ و ٧٠٠ قدما وهو ارتفاع يجعل الذين يعبرونه عرضة للرياح التي تهب بين الحين والحين متجهة نحو البحر بقوة شديدة تعرّض حياتهم للخطر . كما يصل هذا الممر في بعض الاحيان إلى درجة من الضيق تجعل المسافر يكاد يتأرجح على حافة الهوة السحيقة التي تحده من الشرق . وقد ظلت هذه الطرق الخطرة على ما هي عليه حتى شق الامبراطور هادريان (في عصر سيطرة الامبراطورية الرومانية على بلاد اليونان) طريقا أخرى أكثر أمنا تقوم على قاعدة أعرض وقد اضطر إلى شقها خصيصا لهذا الغرض[1] .

والشيء ذاته ينطبق على الممر الذي يصل بين كورنثه وبويوتيه والذي يمتد على حافة جبل كيثايرون Kithaeron . ومن أمثلة الخطورة التي يتعرض لها الذين يعبرون هذا الممر ما يحدثنا به المؤرخ كسينوفون Xenophon عما حدث في ٣٧٨ ق . م . حين اضطرت قوة إسبرطة أمام خطر الرياح الشديدة أن تلقي بدروعها جانبا حتى يستطيع الجنود أن يعبروا هذا الممر على أيديهم وأقدامهم[2] . وليست هذه هي السلاسل الجبلية الوحيدة التي يصعب عبورها ، بل هناك امثلة اخرى كثيرة من بينها جبال هليكون Helikon التي تفصل بين بويوتيه Boeotia فوكيس Phokis وجبال بندوس Pindos التي تفصل بين تساليه Thessalia وإبيروس Epiros — وكلها لا تقل وعورة عن الجبال التي ذكرت شيئا عنها ، كما أن الممرات التي تخترقها تتميز بنفس

---

(١) Pausanias : I, 44:6.

(٢) Xenophon : Hellenica, V, 17-8.

الاتجاه نحو الارتفاع الذي يصل في المتوسط إلى ٣٠٠٠ قدما فوق سطح البحر . وقد يزيد كثيرا عن ذلك في الحالات الفردية — وهو ارتفاع يقف عقبة في سبيل الاتصال السهل . كما رأينا . إلى جانب أنه يجعل هذه الممرات مغطاة بالثلوج طيلة فصل الشتاء ويفقدها ، بالتالي، قيمتها كوسيلة للانتقال في هذا الفصل .

وليست الأنهار خيرا من الجبال في تذليلها لمهمة الاتصال بين أنحاء بلاد اليونان فقليل منها مثل نهر اخيلوس Achelous ونهر بينيوس Penios (الذي يجرى في تساليه) هو الذي يصلح للملاحة لمسافات معقولة وإن تكن تميل إلى القصر : في فصل واحد من فصول السنة . والمعتاد في هذه الأنهار هو أنها تجف في فصل الصيف : ومع ذلك فحتى في فترة جفافها فإنها لا تصلح دائما كوسيلة برية للاتصال لأن القاع لا يكون مستويا في اغلب الاحوال وإنما يرتفع وينخفض في تفاوت كبير . والسبب في ذلك هو أن هذه الانهار : وبخاصة في الجهات الطباشيرية التكوين ، تنحدر عند منبعها بقوة جارفة تنحت في الصخر هوة أعمق بكثير من مستوى القاع في الجزء الأساسي من النهر. كذلك كثيرا ما نجد النهر يختفي قرب المصب اختفاء نهائيا فيما يشبه النفق الذي يشقه في التلال اللينة انحدار المياه إليها في قوة تعرضها للتآكل . أو يحتجب إلى حد كبير إذا تصادف جريانه بين صدع طبيعي في بعض هذه الأماكن الصخرية .

وقد كان طبيعيا ان تشيع بين هذه الدويلات المستقلة عن بعضها روح الانفصال ، أو النزعة الانفصالية ، في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه الاتجاهات القومية قد وجدت بعد بالشكل الذي يربط بين هذه الدويلات ليجعل منها دولة كبيرة واحدة وقد ظهرت هذه النزعة الانفصالية بشكل واضح في أغلب مراحل التاريخ القديم لبلاد اليونان

سواء في المواقف التي تعرّضت فيها هذه البلاد لخطر خارجي كما حدث في اثناء تعرّض هذه البلاد لهجوم الفرس في أوائل القرن الخامس (٤٩٠ و ٤٨٠ ق . م) ، وحين تعرّضت لخطر السيطرة المقدونية في النصف الثاني من القرن الرابع ق . م — أو في المواقف الحديدة التي قامت فيها بين هذه المدن أو الدويلات وبعضها نزاعات كانت تصل في كثير من الأحيان إلى حروب سافرة تمتد عدة عشرات من السنين كما حدث بين أثينه وأيجينه Aegina في النصف الاول من القرن الخامس ق . م وكما حدث بين اثينه واسبرطة Sparta في الثلث الاخير من القرن ذاته :

ولكن ظاهرة انقسام بلاد اليونان ، نتيجة للعوامل الجغرافية ، إلى مناطق تكاد كل منها أن تكون منعزلة عن الأخرى لم تكن كلها شراً. فإلى جانب النزعة الانفصالية التي ترتبت على هذا الانقسام كان هناك أثر آخر . فالدويلات اليونانية التي قامت في هذه المناطق كانت كلّ منها ، بالضرورة ، صغيرة في حجمها ، وفي عدد السكان الموجودين بها . وهو عدد كان لا يزيد كثيرا في خير الأحـوال عن ٣٠ ألف مواطن . وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الوضع هي توفر الفرصة للاحتكاك الدائم أو حتى اليومي ، بين هؤلاء المواطنين ، وكان هـذا الاحتكاك بالضرورة مجالا خصبا لمناقشة كل الأمور المتعلقة بالمجتمع في جوانب نشاط المختلفة تتناول فيه الفئات والطبقات المختلفة هـذه الجوانب بالرأي والرأي الآخر . والنتيجة الطبيعية لكلّ هذا هي تبلور الرأي العام في كل من هذه المجتمعات الصغيرة بسرعة لا تتوفـر في مجتمعات الدول الكبيرة (وهذه مجتمعاتها متناثرة بين عديد من المـدن والقرى المتباعدة فوق امتدادات مترامية من الأراضي) كما كان الحال في الممالك والامبراطوريات الشرقية على سبيل المثال . وقد كان تبلور

هذا الرأي العام هو العامل الذي أدى إلى التطوّر السريع في نظم الحكم أو النظم السياسية في بلاد اليونان بحيث عرفت هذه البلاد سلسلة من هذه النظم المتطورة دائما ، انتقلت بها في حدود زمنية بسيطة من النظام الفردي إلى النظام الشعبي أو الديمقراطي .

٢ ـ التربة

هذا عن المناطق الجبلية التي رأيناها تشكل الجزء الاكبر من سطح البلاد.ولكن الجزء السهلي الصغير الباقي من السطح لم يكن خيرا كله: فهو لم يكن يشكل امتدادا متصلا بين الارض السهلة الخصبة وإنما كان من جهة يشكل مناطق متفرقة من السهول الصغيرة التي كان بعضها تصل مساحته إلى عدد قليل من الكيلومترات المربعة ، ومن جهة اخرى فقد كانت تربة هذه السهول من النوع الرقيق الفقير الذي ليس له من العمق أو من الخصوبة ما نعرفه ، على سبيل المثال ، في مصر أو في سهول وادى الرافدين . ومن ثم فإن سهول اليونان البسيطة لم تكن تصلح لإنتاج كل أنواع المحاصيل التي عرفتها المناطق السهلية الخصبة الممتدة في مصر ووادي الرافدين ، وإنما شاعت في بلاد اليونان (في المناطق السهلية) محاصيل الزيتون ، والكروم وهي محاصيل لا تحتاج إلى خصوبة كبيرة في المناطق التي تزرع بها .

وقد كانت نتيجة ذلك كله فقرا ظاهرا في المحاصيل الزراعية وبخاصة محصول الحبوب،وقد ظهرت آثار هذا الفقر في انتاج الحبوب (وهي تشكل العنصر الغذائي الأول عند اليونان) واضحة في تصرف عديد من الدويلات اليونانية . ففي بعض هذه الدويلات نجد أن المجتمع حاول أن يحل مشكلته الاقتصادية عن طريق العمل كجنود مرتزقة عند الغير كما حدث في كورنثه وغيرها . أي ان افراد هذه المجتمعات .

تاجروا في الخدمة العسكرية التي تعتبر واجبا وشرفا قوميا عند المجتمعات الأخرى فباعوها لقاء اجر معلوم ، وهكذا اندرج افـــراد هــــــذه المجتمعات في الخدمة العسكرية تحت رايات غير رايات بلادهم، سواء أكانت هذه الرايات الغربية لدويلات يونانية أخرى او حتى لـــدول وامبراطوريات غير يونانية بالمرة مثل الامبراطورية المصرية (في عهد الدولة الحديثة ايام حكم الفرعون المصرى بسماتيك الثاني) ومثـــل الامبراطورية الفارسية .

كذلك نجد هذا الفقر الذي اتصفت به تربة بلاد اليونان وأدى إلى ضعف محصولها من الحبوب خاصة إلى ان اصبحت قلة هذه الحبوب تؤثر على سياسة الدويلات اليونانيه تأثيرا واضحا سواء فيما بينها او في موقف الدول الاخرى ازاءها . وسأشير في هذا المجال بشكل سريع إلى عدد من النقاط من بينها ما حدث في الحروب البلوبونيسية الـتي نشبت بين اثينه واسبرطة في الشطر الاخير من القرن الخامس ق . م حيث لجأت اسبرطة إلى تخريب المحاصيل الاثينية كسلاح اقتصـــادي فتاك ، إلى جانب القتال العسكرى التقليدي ومنها أن نتيجة هذه الحرب حسمت لصالح اسبرطة بعد ان تمكنت من تدمير القوة البحرية الأثينية عند مداخل البحر الاسود حيث الممر الحيوى للقوافل البحرية التجارية الأثينية التي كانت تحصل على ما تريده من القمح من المناطق المطلـــة على شواطىء البحر الأسود.ومنها أن فيليب المقدوني لجأ فيما لجأ إليه إلى تعريض الخطوط البحرية لهذه القوافل التجارية الأثينية للخطر لـــكي يجيع المجتمع الأثيني تمهيداً لكسر القوات الأثينية في معركة عسكرية. ومنها كذلك أن أثينه كانت تجاهد دائما لاحتواء المناطق التي تحيـــط بمداخل البحر الأسود أو تسيطر على الخطوط البحرية بين هذه المداخل وبين أثينه إما باستعمار هذه المناطق أو بعقد اتفاقات ودية معهاوهكذا.

٣ ـ البحر

ولكن اذا كانت ارض اليونانيين ، سواء بسبب كثرة جبالهـا وقلة سهولها ، أي بسبب فقر تربة هذه السهول قد قترت على أبنائها بما يغطي احتياجاتهم اليومية فإن عاملا آخر عوض المجتمعات اليونانية عما ضنت به الأرض عليهم ـ وكان هذا العامل هو البحر .

وفي هذا المجال نجد أن الصفات المواتية التي وجدناها في البحـر المتوسط بوجه عام تتخذ شكلا خاصا فيما يخص بلاد اليونان، فتصبح أكثر مواتاة وتشجيعا للملاح اليوناني في تلك العصور القديمة التي لـم يكن الإنسان فيها قد استطاع ، بعد ، أن يتغلب على صعوبات البحر بالعلم والممارسة ، وهكذا اذا كانت شواطىء البحر المتوسط بشكل عام شواطىء متعرجة فان هذا التعرج يصل إلى ذروته على شواطـىء بلاد اليونان. والناظر إلى خريطة هذه البلاد يستطيع أن يصف القسـم غير الجزري من بلاد اليونان بأنه مجموعة من الألسنة (أو الرؤوس) والخلجان والمضايق ـ وهذه التعاريج الكثيرة هي بالضرورة مـوانىء طبيعية تحتمي فيها المدن من عاديات البحر مما يسهل مهمة الملاح القديم.

كذلك نجد أن الهدوء الذي يمتاز به البحر المتوسط عموما يتصف به بحر إيجه بوجه خاص (وبحر إيجه هو الجزء الشمالي من القسم الشرقي للبحر المتوسط الذي يقع بين شبه جزيرة البلقان في الغرب وآسيـة الصغرى في الشرق) وهو بحر نستطيع أن نصفه في العصر القديم بأنه كان بحرا يونانيا صرفا ، اذ كانت المناطق التي يسكنها اليونان تطل عليه من جميع شواطئه في الغرب حيث بلاد اليونان الأصلية ، وفي الشمال حيث كانت تستمر المناطق المأهولة بالسكان اليونان وفي الشرق حيث الشاطىء الغربي لشبه جزيرة آسية الصغرى حيث هاجر اليونان

واستقروا واقاموا عددا كبيرا من المدن أوالدويلات اليونانية في العصور القديمة ، وفي الوسط حيث كانت ولا تزال توجد اعداد كبيرة من الجزر اليونانية . هذا البحر اليوناني الصرف الذي كان يشكل عنصرا أساسيا في حياة اليونان في تجارتهم وملاحتهم وهجرتهم وسياستهم وحتى في أدبهم واغانيهم ، كان بحرا هادئا أشد الهدوء ، بل إنه في حقيقة الامر لا يعدو أن يكون خليجا ولكنه متسع بعض الشيء ،فاليابسة تحده من الغرب والشمال والشرق مثل أي خليج آخر ومن هنا الهدوء الذي يسود مياهه في أغلب مواسم السنة ، وهو هدوء ساعد على تشجيع اليونان على ركوب البحر في فترة مبكرة من تاريخهم ساعين لتعويض ما كانوا يجدون في بلادهم الأصلية من ضيق في موارد الحياة .

واذا كان في البحر المتوسط من الجزر ما يشجع الملاح في العصر القديم على الملاحة ، فيتخذ هذه الجزر محطات يرسو على شواطئها ويأمن إليها ويتمون منها ، فان بحر إيجه الذي كانت تحده أرض العالم اليوناني من شواطئه الثلاث كان اغزر مناطق البحر المتوسط بالجزر عددا . ان هذه الجزر التي تزيد على عدة مئات بالفعل تنتشر انتشاراً مستمرا في ارجاء هذا البحر بحيث لا يكاد المبحر فيه أن يفقد منظر الأرض في هيئة جزيرة أو حتى جزيرتين أو أكثر في الوقت ذاته في بعض الأحيان .

وهكذا تهيأ لسكان المناطق اليونانية منذ فترة مبكرة من تاريخهم أن يلجأوا إلى البحر يستعينون به على التغلب على عسر الحياة في المناطق الفقيرة التي يعيشون فيها . وقد استخدموا البحر بأكثر من صورة : استخدموه كمهاجرين بشكل فردى أو على هيئة جماعات أو موجات بشرية ، فها جروا إلى أغلب شواطىء البحر المتوسط ، فعرفوا طريقهم إلى جنوبي شبه الجزيرة الإيطالية حيث استقروا هناك

في عدد من الخاليات مالبث أن تزايد عددها واستقرت أنظمتها في هيئة دويلات على نمط الدويلات اليونانية التي هاجروا منها . كما عرفوا طريقهم إلى شواطىء شبه جزيرة إيبريه (اسبانيه والبرتغال الحاليتان) وإلى الشواطىء الإفريقية والجزر المتناثرة في البحر المتوسط مثل صقلية وقبرص وغيرهما ، وان كانت هجراتهم اتجهت في أكثف موجاتها إلى الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى كما مربنا في إشارة سابقة. وقد كان حصار طروادة وإسقاطها الذي أصبح محوراً للمحمة الإلياذة المنسوبة إلى هوميروس واحدة من الغارات التي مهدت السبيل لهـذه الهجرات التي استقرت على اثرها أفواج من المهاجرين اليونان علـى هذا الساحل وعلى والجزر التي تحفه من شماليه إلى جنوبيه .

كذلك عرف اليونان البحر تجارا منذ فترة مبكرة من تاريخهم ونحن نرى ذلك واضحا ابتداء من الفترة التي تتحدث عنها الاليـاذة والاوديسيه — أي الفترة ما بين اوائل القرن الثاني عشر واواسط القرن التاسع ق. م. وقد تزايد هذا النشاط التجاري باطراد حتى أصبح يشكل المورد الاقتصادي الأول في المجتمع اليوناني حتى قبل بدايات القـرن السادس ق . م . وكان هذا النشاط التجاري يقود التجار اليونان إلى أغلب شواطىء البحر المتوسط وإن كان أغلبه تركز في القسم الشرقي للبحر المتوسط على شواطىء تراقيه وآسيه الصغرى وقبرص وسورية ومصر .

أما الصفة الثالثة التي عرف اليونان البحر بها إلى جانب الهجـرة والتجارة فهي القرصنة (لصوصية البحر) . لقد عرف بحر إيجـه القراصنة اليونان منذ فترة مبكرة من تاريخ هذا المجتمع . ونحن نجـد اشارة واضحة لها في الاوديسية حيث يرسم لنا الشاعر منظرا يـدل على ان القرصنة كانت شيئا شائعا ووارادا مثله مثل التجارة بالضبط .

وهو يرسم لنا منظرا نستنسج منه هذه الحقيقة والمنظر يصور لنا اوديسيوس ملك إثاكه وبطل ملحمة الأوديسيه حين يرسو بسفينته مع بحارته على شاطىء جزيرة من الجزر فيكون أول سؤال يوجهه إليه رئيس القبيلة التي تسكن الجزيرة عما إذا كانوا «تجارا أم قراصنه يجوبون الآفاق»(٣).

وقد انتشرت القرصنة واستشرت بشكل كبير في القسم الشرقي للبحر المتوسط وبخاصة في بحر إيجه بمرور الوقت في العصر القديـم، بحيث نجد دولة قوية مثل رومه ، بعد ان أصبحت سيدة البحر المتوسط دون منازع في القرن الأخير ق . م. تعيّن واحدا من أقدر قوادها، وهو بومبيوس Pompeius للقضاء على خطر القراصنة في هذه المنطقـة، وتعطيه مدة ثلاث سنوات ليقضي على هذا الخطر. وحقيقة إن بومبيوس استطاع أن يقضي على خطر القراصنة في هذه المنطقة في عدة شهـور فحسب . ولكن براعة هذا القائد الذي استطاع أن ينجز هذه المهمة في أقل من الوقت المخصص لها بكثير لا تنفي الحقيقة الأساسية وهي أن اعتى قوة في البحر المتوسط آنذاك ، وهي الدولة الرومانية ، كانت قد رأت أن خطر القراصنة وانتشاره في القسم الشرقي للبحر المتوسط يتطلب منها أن تخصص للقضاء عليه واحدا من اعتى قوادها ولمـدة ثلاث سنوات .

---

(٣) Homeros : Od., IX, 252-5.

الباب الثالث

مصـــادر تاريخ اليونـــان

تمهيـــد

أصبح من الأمور المسلّم بها أن تاريخ اليونان (وفي الواقع تاريخ أيّ منطقة) ليس مجرد تاريخ افراد ، سواء أكانوا حكاما أو زعماء أو قوادا عسكريين أو غيرهم . وإنما هو تاريخ مجتمع بأكمله ، بأفراده وطبقاته ، يتناول العلاقة بين هؤلاء الأفراد وهذه الطبقات وبين هذه الطبقات وبعضها ، بكل ما يدور بين هذه الاطراف المتعددة مـــن حوار وعلاقات ومعاملات واحتكاكات . وكذلك فإن تاريخ المجتمع اليوناني (أو أيّ مجتمع آخر) لا يمكن ان يقتصر على النشاط السياسي وإنما هو يتناول إلى جانب ذلك نواحي اخرى من النشاط ، بعضهـــا اجتماعي وبعضها اقتصادي . وبعضها ثقافي أو فني أو ديني أو فكرى بل أكثر من ذلك فإننا لكي نتعرف على أي مجتمع لا بدّ أن نكـــون على علم بعاداته وتقاليده والأدوات التي كان يعتمد عليها في حياتـــه اليومية والأسلحة التي كان يستخدمها للدفاع عن نفسه أو الاغارة على غيره و الملابس التي يرتديها افراده ؛ فكل هذه تعيننا على تفهم اتجاهات هذا المجتمع وعلى نوع الحضارة التي كان يعيشها . فالحضارة هـــي في الواقع سجل نشاط المجتمع في كل جوانب حياته ومحصلة التفاعل

بين هذه الجوانب جميعا ، وكل تفصيله نعثر عليها أو نتعرف إليها من تفاصيل هذا المجتمع أو مظهره مهما بدت لأول وهلة بسيطة في حد ذاتها ، وربما تافهة ، قد تقودنا في النهاية إلى معرفتنا اتجاهات أو تيارات في حياة هذا المجتمع ، على قدر من الأهمية لم نكن نتوقعه قبل عثورنا عليها أو تعرفنا إليها .

ونحن في محاولتنا أن نعرف تفاصيل النشاط الذي كان يدور في المجتمع اليوناني في جوانب حياته المختلفة نلجأ إلى نوعين من المصادر أحدهما هو الآثار ، أو المخلفات الأثرية التي نجدها قائمة أو نعثر عليها بعد عمليات حفر وتنقيب ، والنوع الآخر هو المصادر المكتوبة ، سواء أكانت تاريخا أو فكرا أو أدبا أو علوما ، مما دونه لنا المعاصرون للفترة التي نريد التأريخ لها أو من جاءوا في عصر لاحق وكانت لديهم المعلومات التي نستطيع أن نثق بها فيما يخص الفترة المذكورة . بحيث نستطيع أن نعتمد عليهم بالدرجة الثانية بعد الكتاب المعاصرين .

١ ــ المخلفات الأثرية

ا ــ أمثلة منها

والمخلفات الأثرية قد تكون مباني مثل القصور أو الحصون أو المعابد أو المنازل أو المقابر . وقد تكون تماثيل أو صوراً أو عملة أو أدوات عمل أو أدوات زينة أو أسلحة أو مصنوعات فخارية مثل الاواني والمزهريات ، أو نقوشا فوق قطع من الحجر أو غير ذلك من الآثار المتصلة بالمجالات المختلفة التي يعمل فيها الإنسان إما إنجازا لحياته أو استعداداً لما يعتقد فيه أو يؤمن به من حياة أخرى بعد هذه الحياة .

وكل نوع من هذه المخلفات الأثرية يسهم إسهامه الخاص في

بجانب أو أكثر من جوانب الصورة التي نحاول أن نسجلها للمجتمع الذي نكتب عنه . فقيما يخص الآثار أو المخلفات المعمارية نستطيع أن نستنتج أشياء كثيرة من قصر مثل القصر الملكي الذي لا تزال آثاره موجودة في مدينة كنوسوس Knossos على مقربة من وسط الساحل الشمالي لجزيرة كريت ، وهو قصر تمكن الأثريون بشكل ترجيحي من أن يردوا تاريخ بنائه إلى حوالي ١٦٠٠ ق . م . [١] وهي الفترة التي تواكب بداية العصر المينوي المتأخر . وأعرض بشكل سريع إلى بعض ملامح هذا القصر لنرى ما نستطيع أن نستنتجه منها . إن المساحة التي يقوم عليها تصل إلى ٢٠ ألف متر مربع. كذلك فإن الساحة الكبرى التي تتوسط القصر يحيط بها من الشرق والغرب مجموعات كبيرة من الغرف والقاعات يصل بينها عدد كبير من الممرات ، كما أن بقايا مجموعات الدرج التي لا تزال باقية في البناء تشير إلى أن القصر كان يرتفع في بعض أقسامه إلى ثلاثة أو أربعة طوابق . إن الضخامة غير العادية لهذا القصر ، سواء في مساحة أو في عدد الغرف الموجودة به ونوعيتها تشير إلى أنه لم يكن مجرد مقر للسكن الملكي ، وإنما كان ، إلى جانب ذلك ، مركزا للادارة الحكومية بأكملها .

ونحن نستطيع أن نستنتج من تجاور السكن الملكي والإدارة الحكومية إ مدى تركز السلطة في يد البيت المالك في كنوسوس . كذلك نستنتج من العدد الهائل من الغرف والقاعات أن هذه الأدارة كانت إدارة ضخمة لا تقتصر على مدينة كنوسوس أو جزء من جزيرة كريت وإنما تشمل كل الجزيرة ومناطق أخرى تابعة تشكل امبراطورية مركزها هذه المدينة . كذلك يشير عدم وجود سور حول هذا القصر يشير إلى

---

(١) بني هذا القصر على انقاض قصر سابق بني حوالي ٢٠٠٠ ق.م. وقد جرى توسيع هذا القصر الجديد في القرن التالي (حوالي ١٥٠٠ ق.م.)

مدى سيطرة ملوك كنوسوس على جزيرة كريت بحيث لم يكونوا في حاجة إلى الحماية التي يمثلها السور الخارجي ، كما نستنتج منه أن الحماية ضد أي هجوم من الخارج كانت موكلة بالضرورة إلى قوات بحرية لا بدّ أنها كانت على قدر كبير من القوة والكفاية (٢) .

كذلك يدلنا بعض ما وجد في هذا القصر على قدر من الاستقرار والرخاء الذي تمتعت به جزيرة كريت والمملكة التي قامت بها في الفترة التي يرجع إليها بناء القصر وهي ، ترجيحاً ، أوائل القرن السادس عشر ق . م . كما أسلفت . فالحمامات التي وجدت آثارها في القصر كانت تستخدم للتصريف شبكة من الأنابيب تفوق ما عرف في هذا الصدد في عصور لاحقة وحتى فترة قريبة قبل الوقت الحاضر. كذلك فإنّ الرسوم التي وجدت على الجدران ، وهي رسوم تصوّر الحياة الكريتية في عدد من جوانبها الجادة أو المرحة ، نجد أقلها يمثل مناظر الحرب ، وأكثرها يمثل الحياة اليومية التي تظهر فيها استعراضات ومجموعات من الرجال والنساء ومناظر للرياضة التي كان يمارسها الكريتيون وهكذا .

وما نستطيع أن نستنتجه من مخلفات قصر ، نستطيع أن نستنتج مثله ، بتفاصيل مختلفة، من الآثار المعمارية الأخرى كالمعابد والمسارح.

---

(٢) قارن هذه الظاهرة ، على سبيل المثال ، بقصور العصر الميكيني في مدن : ميكيني Mykenae وتيرنس Tiryns (في القسم الشمالي من شبه جزيرة البلوبونيسوس) وكلاهما يعود الى القرن الرابع عشر ق.م. وقد كان عرض السور الذي يحيط بأول هذين القصرين يبلغ سمكه في بعض اقسامه ستة امتار . راجع :
Bury, J.B. : A History of Greece (3rd. ed., London, 1951), pp. 25, 31.

ردون توقف طويل عند هذين النوعين نستطيع أن نتعرف ، على سبيل المثال من معبد البارثينون Parthenon الموجود في الأكروبوليس Akropolis في أثينه على قدر غير قليل من المعتقدات الأسطورية اليونانية ، فنحن نجد عددا من المناظر التي تمثل هذه المعتقدات منفذا عن طريق النحت البارز على امتداد المساحات المربعة metopes التي تلي واجهة المعبد إلى أسفل . كذلك نستطيع أن نتعرف من خلال الفخامة التي تتمثل في بقايا هذا المعبد الذي اكتمل عام ٤٣٨ ق . م . على مدى الازدهار الفني الذي عرفته الفترة التي شهدت اكتماله. وهو بدوره يعكس رخاء كبيرا عرفته هذه الفترة التي مرت بها أثينه تحت زعامة بركليس Perikles . والطريقة ذاتها نستطيع أن نطبقها على المسرح الذي لا تزال أغلب أقسامه قائمة في مدينة ابيداوروس Epidauros (في شبه جزيرة البلوبونيسوس) . إن مدرجات المشاهدين في هذا المسرح ، وكلها موجودة حتى الآن ، تتسع لأربع وعشرين ألف مشاهد . وهو أمر يدلنا على المركز الذي كان يحتله النشاط المسرحي بين اهتمامات المجتمع اليوناني . كذلك يذكرنا المذبح الذي لا يزال قائما في الساحة التي كان يطلق عليها اسم الأوركسترا (الساحةالتي كان أفراد الجوقة يؤدون فيها رقصاتهم وأناشيدهم) بالصفة الدينية التي انبثق منها هذا النشاط (وهي صفة كانت تتعلق بأعياد الإله ديونيسوس Dionysos) [٣] . كما نستطيع أن ندرك قيمة الفن المعماري المسرحي بالذات إذا أدركنا أن أقل صوت كان يصدر في هذه الساحة كان (ولا يزال) يسمع بوضوح في كل أرجاء المسرح على امتداد المدرجات الصاعدة تدريجيا من الساحة المذكورة حتى آخر صف في هذه المدرجات — وهو أمر يدعونا إلى النظر إلى الموقع

---

(٣) راجع الباب الخاص بالمسرح في القسم الاخير من هذه الدراسة .

الذي كان يتم اختياره لبناء المسرح وإلى الاتجاه الذي كان يتخـذه هذا البناء حتى يتم تردد الصدى بالصورة التي تؤدى إلى هذه النتيجة السمعية ، وهكذا .

ودون أن نعرض بشكل استقصائي لكل أنواع الآثار . نستطيع أن نقول ما نستنتجه من قطع العملة أو آنية الفخار التي يعثر عليها الأثريون في تنقيباتهم لا يقل بحال من الأحوال عما نستنتجه من المخلفات المعمارية . إن قطعة من العملة تستطيع أن تقول لنا الشيء الكثير . فنحن قد نعرف منها شعارا لإحدى المدن اليونانية أو إلها لهذه المدينة أو إلهة لها . كما نعرف من وزنها ومن المعدن الذي صنعت منه (سواء أكان ذهبا أو فضة أو برونزا) ، وبالمقارنة مع معلومات من مصادر أخرى ، القيمة الشرائية لهذه العملة ومستوى تكاليف المعيشة في المنطقة الذي تنتمي إليها . وهذه التفاصيل المبدئية في حد ذاتها تصبح مداخل لمعلومات أخرى أكثر تطورا . فوجود مجموعة من قطع العملة اليونانية في منطقة خارج بلاد اليونان يشير ، على الأرجح ، إلى علاقات تجارية بين بلاد اليونان وهذه المنطقة . كما قد يكون معناه أن العملة اليونانية (المنتمية إلى إحدى الدويلات اليونانية) كانت لها قيمة ثابتة في السوق التجارية الدولية بحيث أصبحت عملة تستخدم دوليا دون خوف من تدهور قيمتها ، وهذا بدوره يعني أن تجارة هذه الدويلة اليونانية كانت تمر في الفترة المعنية بمرحلة ازدهار وكل هذا استنتاجات نستطيع أن نطبقها في الواقع على العملة الأثينية التي وصلت إلى هذا الوقع في القرن الخامس على سبيل المثال .

والشيء ذاته ينطبق على الأواني الفخارية . ان هذه الأواني أو المصنوعات كانت تشكل في العصور القديمة سلعة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها في الحياة اليومية . فمنها كانت تصنع أواني الطعام

وأوعية الاستخدام اليومي والمباخر والمزهريات وفيها كان يعبأ الزيت والنبيذ للتخزين أو للتصدير . ومن المناظر التي كانت ترسم على المزهريات اليونانية . على سبيل المثال ، عرفنا الشيء الكثير عن الحياة اليومية اليونانية في أغلب جوانبها : الملاحة ، الصيد الرياضة، والتمثيل وغيرها . كذلك فإنّ اللقى الفخارية اليونانية إذا وجدت بكثرة في منطقة غير يونانية تشير إلى صلة تجارية تبادلية مع هذه المنطقة، والعكس صحيح . وفي هذا الصدد فإن الأواني الفخارية اليونانية التي يرجع طرازها إلى القرن الخامس ق . م . والتي وجدت بكثرة على سواحل البحر الأسود وفي مصر وصقلية وإيطاليه تشير إلى ازدهار التعامل التجاري بين بلاد اليونان وهذه المناطق في ذلك القرن ، بينما يشير اختفاء الفخار الأثيني في جنوبي غاله (فرنسه الحالية) في أواسط القرن الرابع (بعد أن كان موجوداً بكثرة قبل ذلك) وحلول الفخار الإيطالي محله ، معناه أنّ التبادل التجاري الإيطالي مع هذه المنطقة بدأ يطغى على التبادل التجاري اليوناني (٤) .

كل هذه الآثار أو المخلفات الاثرية، إذن، تعطينا صورة طبيعية صادقة عن المجتمع اليوناني ، وبخاصة اذا تجمعّ لدينا عدد وافر منها لقطاع كامل من المجتمع بكل طبقاته . ومن هذه الصورة نستطيع أن أن نستنتج احوال هذا المجتمع ومدى ما وصل إليه من تقدّم أو ما كان يعانيه من تأخر أو انحدار ، نستطيع أن نرى مدى انعزاله عن المجتمعات الأخرى أو اتصاله بها سواء أكان هذا الاتصال تأثيرا أو تأثرا ، سيادة أو تبعية أو مجرد تعادل على قدم المساواة ، نستطيع أن نلمس ملامح الطبقات داخل هذا المجتمع والعلاقة بينها بكل ماتستتبعه

---

(٤) راجع الفصل الخاص بانحدار دولة المدينة في القسم الثاني من هذه الدراسة .

هذه العلاقة من تقارب أو تنافر من عدل أو استغلال إلى آخر ما يمكن أن يثور بين طبقات أيّ مجتمع من اعتبارات .

ب – طريقة تفسيرها

هذه المخلفات التي يتخذها الاثريون مادة لا ستنتاجهم قد يجدونها في قليل من الأحوال فوق الارض مباشرة ، ولكنهم في اغلب الاحوال يحصلون عليها نتيجة للتنقيب في حفائر يقومون بها . هذه الحفائر إذا كانت تعطيهم إلى جانب أكوام التراب أو الرمل أو الطين التي تقابلهم بالضرورة . اشياء وأدوات قليلة أو كثيرة من الأنواع التي سبق ذكرها فإنّ هذه يرتبها الاثريون حسب الطبقة الأرضية التي يجدونها فيها . وكل المخلّفات التي توجد في طبقة واحدة يعتبرونها معاصرة . وكل طبقة تعتبر تالية من الناحية الزمنية للطبقة التي تحتها ، ومن هنا يستطيع الأثرى أن يؤرخ للمنطقة التي يقيم فيها حفائره في شكل مسلسل من الناحية الزمنية ، وبالمقارنة بين كل طبقة والتي تليها يستطيع أن يتتبع تطوّر المخلّفات التي من نوع واحد ليعرف منها تطوّر جانب أو أكثر من جوانب الحياة في هذه المنطقة تقدما أو انحدارا .

ولكن هذا ليس كل شيء . ففي بعض الاحيان يعثر الأثريون في مناطق مختلفة . متقاربة أو متباعدة : على مجموعات متجانسه من هذه المخلّفات في طبقات لها نفس الترتيب . وفي هذه الحال نقول إن هذه المناطق كلها تتبع حضارة واحدة . ولنذكر هنا على سبيل المثال أن الحفائر التي قام بها الأثريون في مدينة فيلاكوبي Phylakopi في جزيرة ميلوس (واحدة من مجموعة جزر الكيكلاديس Kyklades في بحر إيجه) اعطتنا سلسلة مرتبة من الطبقات تمثل تسلسلاً حضاريا معينا. ونفس هذه السلسلة التطورية وجدت في أماكن أخرى في جزر أخرى

من هذه المجموعة نفسها . وهكذا استطعنا أن نقول بوجود حضارة في هذا الإقليم سميت باسم الحضارة الكيكلادية تنتمي إليها كل الأماكن التي عثر فيها على طبقات من المخلفات المتجانسة في ترتيبها ومحتوياتها في إقاليم اخرى تضم مناطق متشابهة الآثار في العالم اليوناني أو على حدوده مثل الحضارة المينوية في كريت والحضارة الهلادية في بلاد اليونان الاصلية (في جنوبي شبه جزيرة البلقان) وهكذا .

وإلى جانب هذا فإن كل وحدة من هذه الواحدت الحضارية التي تتكون من سلسلة من المناطق يمكن تقسيمها في ذاتها في شكل رأسي (حسبما تشير إليه الطبقات) إلى مراحل ، ينتمي إلى كل منها عدد من هذه الطبقات المتتالية . وهكذا نستطيع مثلا أن تقسم الحضارة المينوية إلى مرحلتين أو أكثر فنقول الحضارة المينوية المبكرة الاولى أو الثانية والحضارة المينوية المتأخرة (من الناحية الزمنية) والشيء ذاته نقوله عن الحضارة الهلادية المبكرة أو المتأخرة الأولى أو الثانية أو الثالثة وهكذا .

كذلك إذا عثر على بعض المخلفات التي تمثل قديما حضاريـا معينا في إقليم حضارى آخر ، فاننا نستطيع الحكم بأنه كان هناك نوع من الاتصال بين هاتين الوحدتين الحضاريتين وبناء على ذلك يمكن القول بوجود تعاصر زمني بينهما . وهكذا مثلا استطاع الأثريون ان يقيموا معاصرة زمنية بين كل من الحضارة المينوية المتأخر الثالثة والحضارة الهلادية الثالثة . على أننا يجب ان نكون على جانب من الحذر في أحكامنا بشكل يجعل منها أحكاما تقريبية وليست احكاما تحديدية . وهذا الحذر اللازم له اكثر من سبب ، من بينها أن كثيرا من الحفائر لم ينجح القائمون بها في استخراج كل المخلفات التي تشير إلى حضارة أو أخرى من الحضارات التي ينقبون عنها ، ومن بينها أن

وجود أداة أو إناء أو سلاح أو أية مخلفات أخرى في منطقة معينة لا يعني أكثر من أنها تركت في هذا المكان أو ذاك أو هذه هذه المنطقة أو تلك في وقت واحد دون أن يكون معناه أنها أنتجت أو صنعت بالضرورة في وقت واحد — والإنتاج أو الصناعة هو الدليل على الشوط الحضاري الذي وصل إليه مجتمع من المجتمعات .

فاذا تخطينا حدود الحضارات الإقليمية (التي تتكون كلٌ منها من عدة مناطق حضارية كما ذكرنا) وجدنا هنالك مراحل حضارية أوسع : هذه هي المراحل الحضارية التقليدية : حضارة العصر الحجرى الحديث والعصر البرونزى وعصر الحديد على التوالي نسبة إلى المادة التي كانت تصنع منها الآلات في كلٍ منها . ولكن هنا أيضا نجد اكثر من نقطة ضعف . فالحدود الزمنية لهذه العصور ليست واحدة في جميع الاقاليم ، بمعنى ان اقليما معينا يكون قد دخل في العصر البرونزي مثلا بينما يكون إقليم آخر لا يزال يتخبط بعد عبر العصر الحجري . بل إن الإقليم الحضاري الواحد قد يتسع لشيء من التفاوت بين مناطقه المختلفة حين يمر من عصر إلى آخر من هذه العصور الحضارية ، كما هو الحال في حضارة العصر الهلادي المبكر حين كانت تمر بالعصر البرونزى في أغلب مناطق بلاد اليونان الاصلية . بينما كان قسم من هذا الإقليم . وهو القسم الذي يشمل مقدونيه وتساليه لايزال يمر بالمرحلة الأخيرة من مراحل العصر الحجرى الحديث . ولكن مع وجود هذه العقبات فإن هذه العصور الحضارية لا تزال تمثل لدارسي الآثار والتاريخ نقط تجمع على جانب كبير من النفع في تتبع الحضارات الإقليمية وحصر نقط الالتقاء او الاتصال بينها .

ولكي نستطيع أن نضع المخلفات الأثرية ، ومن ثم الحضارات التي تمثلها ، داخل الحدود التاريخية المعروفة لنا ، أو بالفاظ اخرى لكي

نضعها داخل فترات زمنية محددة ، فاننا نلجأ دائما إلى الربط بطريقة أو بأخرى بينها وبين الحضارات الشرقية التي قامت في مصر أو وادي الرافدين أو آسيه الصغرى . وهي حضارات تشمل فيما تشمل سجلات لحكم الملوك الذين ظهروا فيها ، نجح الأثريون والمؤرخون في تحديد سنواتها . وهكذا يصبح وجود المخلفات التي تنتمي إلى الحضارات الشرقية المذكورة في مناطق أو أقاليم العالم اليوناني . أو وجود مخلفات الحضارات التي ظهرت في العالم اليوناني بين المخلفات الحضارية الشرقية التي نعرف تاريخها وتاريخ حكامها بالتحديد — اقول يصبح هذا الوجود المتبادل أو هذا التشابك ، نقطة ارتكاز نضع فيها العصور والاقاليم في إطار زمني محدد (*) . اما في الأماكن التي لا نجد فيها هذا السناد المادي الذي يساعد على التحديد فيلجأ الأثريون عادة إلى طريقة اخرى ، هي مقارنة الطراز الذي اتبع في صناعة الشيء الموجود سواء كان إناء أو مزهرية أو سلاحا أو غيره . والأساس الذي تقوم عليه هذه الطريقة من طرق التحديد الزمني هو افتراض أن الطرازات المتماثلة تمثل خطوات متشابهة في السلم الحضاري من ثم يمكن أن ندرجها داخل مرحلة زمنية واحدة — وان كان من الواضح أن مثل هذا الافتراض يتسع لقدر كبير من الخطأ لا يمكن أن يصححه بشكل يقترب من الدقة إلا مزيد من الحفائر ومزيد من اكتشاف المخلفات التي تضمها هذه الحفائر

(*) مثال على ذلك : عثر في مقابر ميكيني على ثلاث قطع خزفية تحمل اسم الملك المصري امنحتب الثالث (١٤١٢—١٣٧٦ ق.م.) وعلى جعل عليه اسم الملكة تايا ، زوجته . وبمقارنة سنوات حكم هذا الملك مع مخلفات وملابسات اخرى امكن تحديد الفترة التي تدور حول ١٤٠٠ ق.م. كفترة انتقال بين نهاية العصر الهلادي الثاني وبداية العصر الهلادي الثالث .

بقيت نقطة اخيرة تتصل بوجود بعض مخلّفات إقليم حضاري وسط مخلّفات إقليم حضاري آخر ، ومدى الاتصال الحضاري الذي تشير إليه هذه الظاهرة بين الإقليمين، وإذا ما كان ذلك يرجع إلى مجرد اتصال تجاري أو إلى تحركات بشرية في صورة هجرات استيطانية مثلا. وهنا لا بد أن نعترف بصعوبة التفريق بين الاحتمالين اعتماداً على المخلّفات الاثرية وحدها ، وبخاصة اذا كانت التحركات البشرية محدودة الحجم أو اذا تمّت بطريقة الانتشار السلمي لمجموعة بشرية اخرى ، ويزيد من الصعوبة في هذه الحال أن تكون المجموعة البشرية المنتقلة على درجة من الحضارة أقل تقدما من المجموعة التي انتقلت إلى منطقتها ، إذ ان الأولى تذوب في الثانية دون أن تترك أثرا كبيرا يميز مخلّفاتها عن مخلّفات المجموعة الاخرى التي انتقلت إلى منطقتها.

ومع ذلك فهناك بعض اعتبارات اثرية وغير اثرية يمكن الاعتماد عليها في هذا المجال اذا اردنا ان نعرف اذا ما كان تشابك المخلّفات الاثرية يشير إلى تحركات وليس إلى مجرد اتصال تجاري . ففيما يخص الاعتبارات الأثرية نجد أن وجود تخطيط معماري من نوع جديد مخالف للنوع المألوف في منطقة من المناطق ، أو ظهور عادات أو تقاليد جنائزية جديدة تخالف تلك التي درج عليها سكان هذه المنطقة، أو وجود طبقة (من الطبقات التي توجد فيها المخلفات) مليئة بالرماد الذي يدل على حريق عام كبير تليها تصاعديا طبقة اخرى تضم أدوات وأسلحة من نوع جديد لم تعرفه المنطقة من قبل ، أو ظهور بقايا بشرية (جماجم أو غيرها) لها مقاييس أو أوصاف تختلف عن تلك التي كانت موجودة من قبل — كل هذا يساعد المنقب الاثري على أن يستنتج أن التشابك الحضاري الموجود في منطقة من المناطق التي يجري فيها حفائره، يشير بوضوح إلى تحركات بشرية وليس إلى اتصال تجاري. وفي ضوء هذه الاعتبارات يستطيع المنقب الأثري أو الباحث التاريخي

أن يقول مثلا إن جزيرة كريت لم تتعرض لتحركات أو هجرات بشرية على نطاق واسع من خارجها في الفترة ما بين ٢٢٠٠ و ١٣٣٠ ق . م . والشيء ذاته يقال على القسم الشرقي في بلاد اليونان الاصلية ما بين ١٧٠٠ و ١١٥٠ ق . م .

أما عن الاعتبارات غير الأثرية . فسأشير من بينها إلى العوامل المناخية على سبيل المثال لا الحصر . وفي هذا المجال نجد أن المجموعات البشرية الكبيرة لا تنتقل عادة إلى مناطق يختلف مناخها اختلافا كبيرا عن المناطق التي رحلت منها ، بل تنتقل في أغلب الأحوال إلى مناطق تشابهها في المناخ . وحتى إذا هي اعترمت الانتقال إلى مناطق ذات مناخ مختلف عن تلك التي انتقلت منها ، فغالبا ما تستقر ، وهي في الطريق ، في مناطق يتشابه مناخها أو يتقارب من مناخ المنطقة التي انتقلوا منها . ولعل مما يصور هذا الاعتبار تصويرا عمليا هو هجرة اليونان من بلاد اليونان الأصلية (الأوروبية) إلى الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى . فقد انتقلت العناصر الأيولية (من العناصر اليونانية) إلى القسم الشمالي من هذا الساحل ، بينما هاجرت العناصر الأيونية إلى القسم الأوسط والعناصر الدورية إلى القسم الجنوبي ، والشيء ذاته يقال عن هجرتهم في فترات مختلفة إلى شواطىء شبه الجزيرة الإيطالية وشبه جزيرة أيبريه (اسبانيه والبرتغال) والشاطىء الإفريقي للبحر المتوسط (فيما عدا استثناءات نادرة) ثم إلى الجزر الواقعة على امتداد هذا البحر .

٢ – المصادر الكتابية

والآن . وقد عرفنا موجزا سريعا عن المصادر الأثرية ومدى قيمتها في تحديد المعالم الحضارية للمجتمع اليوناني . أنتقل إلى نوع آخر من

المصادر . وهو ما يمكن أن نسمّيه المصادر المكتوبة أو الكتابية . ولا أعني بطبيعة الحال الكتابات التي قد يجدها المنقب منقوشة على جدران معبد مثلا أو على قطعة من الحجر أو على وجه قطعة من العملة ، فقد سبق أن أشرت إلى هذه ضمن المخلفات الأثرية . وإنمّا أعني ما وصل إلينا من كتابات دوّنها الأقدمون ليسجّلوا بها أحوال المجتمع اليوناني في عصرهم أو في عصور سابقة لهم .

أ ــ المصادر الكتابية المباشرة

وأول نوع يصادفنا من هذه المصادر الكتابية هو ما يمكن ان نسميه المصادر الكتابية المباشرة . ، وأعني بها الكتابات التي يحاول أصحابها عن طريقها أن يصفوا لنا بشكل مباشر شخصا أو حدثا أو مكانا أو موقفا أو فكرة أو تجربة علمية ــ وما أكثر ما عالج الكتّاب اليونان هذه النواحي كلها في كتاباتهم . وأودّ أن أشير إلى أننا نهتم بكل هذه النواحي لأننا ، كما أسلفت : لا ندرس تاريخ أفراد فحسب، ولكننا ندرس تاريخ المجتمع اليوناني بأكمله ، بأفراده وطبقاته وما كان لديها من مواقف وأفكار ، وما توصلت إليه من معلومات ، وما كان يدور بينها من علاقات ومعاملات . وما أدّى إليه كل ذلك من تطور وتقدم أو من تخلف وانحدار . ومن هنا فإن معرفة كل ما وصل إلينا عن هذه الجوانب أمر ضروري لا ستكمال التعرف على المجتمع اليوناني في مراحله التي نعنى بدراستها وهي المراحل القديمة .

وفي هذا المجال نجد لدينا كتابات عدد من المؤرخين . وأول هؤلاء هو هيرودوتوس Herodotos (أواسط القرن الخامس ق . م .) الذي كتب تاريخا حاول أن يجعله شاملا عن اخبار العالم كما كانت

معروفة في عصره ، من بينه قسم عن تاريخ بلاد اليونان. وهيرودوتوس يتحدث في اثناء كتابته عن كل شيء : عن وصف الأماكن والأشخاص والأحداث والأفكار والعادات والعقائد والأساطير ولكنه وصف تقريري ليس فيه تحليل كثير ، كذلك فهو لا يكتفي بوصف مارآه أو سمعه بشكل مباشر ولكنه يعتمد على الرواية ، أى على ما تواتر من أخبار من جيل لجيل . وربما كانت هذه هي الطريقة الوحيدة المتاحة له في ذلك الوقت ، وهي طريقة لا بد أنها ساعدته في الحصول على كثير من الحقائق ، ولكنها مع ذلك طريقة لا بد أنها اعطته قدرا كبيرا من الاخبار غير الصادقة التي حرفتها الاجيال المتعاقبة قبل أن تصل إليه . وعلى هذا فنحن يجب أن نعتمد على كتاباته في شيء من الحذر ونحاول أن نحققها بالمقارنة مع الاثار الموجودة ومع المعلومات التي نستطيع أن نحصل عليها من مصادر أخرى أو على أضعف تقدير نضعها موضع التحليل المنطقي بحيث نرى إذا كان مرجحة أو محتملة أو غير ممكنة على الاطلاق .

ومن بين المؤرخين اليونان كذلك ثوكيديديس Thukydides (النصف الثاني من القرن الخامس واوائل القرن الرابع ق . م) وقد تميز عن سلفه هيرودوتوس في ناحيتين أساسيتين : الناحية الأولى هي أنه لم يفعل مثل هيرودوتوس الذي كتب عن تاريخ مناطق شتى مثل بلاد اليونان ومصر وفارس ، كما كتب عن كل شيء استطاع أن يعرف أو يسمع عنه شيئا ، وإنما ركز ثوكيديديس كتابته حول موضوع واحد هو موضوع الحروب البيلوبونيسية (التي قامت بين إثينه واسبرطة بصفة أساسية في الثلث الاخير من القرن الخامس ق . م .) وبذلك جاءت كتابته محيطة بكل تفاصيل الموضوع . كذلك فهو يختلف عن سلفه في أنه كان معاصرا معاصرة كاملة لما كان يكتب عنه ، بل

انه اشترك في بعض مراحل هذه الحرب كقائد من القواد الاثينيين اشتراكا مباشرا ، كما كان على صلة بالساسة الكبار الذين كانوا على رأس الفئات السياسية المتعارضه في أثينه ، وعلى هذا جاءت معلوماته مباشرة إلى أبعد حدّ ممكن . وأخيرا فقد امتاز ثوكيديدس بأنه حلل الحوادث والمواقف والشخصيات تحليلا اجتماعيا ونفسيا عميقا، فكان بذلك أول مؤرخ يتبع المنهج العلمي التحليلي في كتابة التاريخ .

كذلك هناك المؤرخ كسينوفون Xenophon . وقد ظهر في أواخر القرن الخامس والشطر الاول من القرن الرابع ، وكتب عدة كتب عن تاريخ بلاد اليونان ونظمها وعن تنشئة الملك قورش الامبراطور الفارسي (كما تصوّرها) وعن موضوعات أخرى مختلفة ، بعضها عسكرى وبعضها اقتصادى وبعضها اجتماعي . وكتاباته تمتاز بأنها متعددة الموضوعات ولكنه أقل في تدقيقه وتحقيقه من ثوكيديديس رغم أنه كان معاصرا لما كان يكتبه ، بل إنه ، مثل ثوكيديديس ، اشترك في بعض الاحداث التي كتب عنها اشتراكا مباشرا . ويمكن ان نصفه بلغة العصر بانه مراسل صحفي ممتاز يعطي معلومات طريفة ومتعددة الجوانب ولكنه لا يرقى إلى مستوى الكتابة التاريخية العلمية . .

فاذا تركنا كتابات المؤرخين وجدنا كتابات من نوع آخر هي الخطب التي كان يلقيها خطباء اليونانيين ، وقد كانوا كثيرين ، يتحدثون فيها أمام المجالس الشعبية وأمام الهيئات السياسية والقضائية وغيرها في القضايا السياسية والاجتماعية والقومية التي كانت واردة في المجتمع اليوناني آنذاك . ومنها نعرف الشيء الكثير عن العلاقات بين افراد المجتمع وطبقاته وعن المسائل التي كان يدور حولها الدفع والجذب بين هؤلاء الأفراد وهذه الطبقات ، وعن انعكاس ذلك كله على المجتمع

اليوناني. ومن بين أشهر ما وصل الينا من هذه الخطب تلك المنسوبة إلى بركليس Perikles الزعيم الاثيني الذي استكمل النظام الديمقراطي في المجتمع الأثيني في النصف الثاني من القرن الخامس ق . م . كذلك ديموستنيس Demosthenes الخطيب والسياسي الأثيني الذي ظهر في أواسط القرن الرابع ق . م . ومن خلال خطبة أمام المحاكم نعرف الكثير من الأحوال الداخلية في أثينه في تلك الفترة ، كما نعرف من خطبة أمام مجلس الشعب كثيرا عن السياسة الداخلية والخارجية التي انتهجها المجتمع الأثيني آنذاك .

على أننا في اعتمادنا على هذه الخطب السياسية وغيرها ، ونحن بسبيل التأريخ للمجتمع اليوناني، يجب أن نكون حريصين كل الحرص. فالخطيب السياسي لا يتحرى الدقة الكاملة فيما يقول دائما ، لأنه غالبا ما يكون مدافعا عن قضية أو مهاجما لقضية مضادة، ومن هنا فهو يبحث عن كل ما يدعم قضيته ولا يذكر الجوانب السيئة والقائمة المحيطة بها، بينما نجده يذكر كل التفاصيل التي تسيء إلى قضية خصمه وتضعف موقفه . وهكذا نحسن صنعا إذا أقبلنا على قراءة هذه الخطب وفي ذهننا أننا نرى فيها جانبا واحدا من الحقيقة أو على الأقل نوعا من المبالغة التي قد تتخذ شكل التهويل أو شكل التهوين في عرض الحقائق .

هذا وليس المؤرخون أو الخطباء هم كل من نعتمد على كتاباتهم. فهناك إلى جانبهم الفلاسفة من أمثال افلاطون وأرسطو ، وهناك المفكرون الآخرون الذين كانوا يمارسون ألوانا من الثقافة العامة ، والذين يطلق عليهم اسم « السوفسطائيين » وهناك العلماء الذين كانوا يعالجون موضوعات الفلك أو الرياضة أو الطب أو غيره من الميادين. ونحن نفيد كثيرا من كتابات كل هؤلاء من حيث انها تبصرنا بالإنجاز العلمي

الذي حققه المجتمع اليوناني ومدى تأثره بغيره من المجتمعات أو تأثيره فيها في كل من هذه المجالات : وهكذا .

ب ـ المصادر الكتابية غير المباشرة (الأدب)

ويبقى في مجال المصادر المكتوبة الحديث عن المصادر الأدبية . وهذا النوع من المصادر يضم كل ما وصلنا من انتاج الأدباء بكل ما في ذلك من أغاني وأشعار ومسرحيات ، وبكل ما تتضمنه هذه من أفكار وحقائق وخيالات وأوهام وخرافات وأساطير ،وبما تصوره من مشاعر وعواطف وانفعالات وأحاسيس . وبما يظهر فيها من لوحات حية للقوة والبطولة والتضحية والنبل والسيطرة والعنف والخنوع والأثرة والجبن والنذالة ،ومن صور السعادة والبؤس والأمل واليأس والرجاء ، وبما ينم عنه كل ذلك من رغبات صريحة أو مكبوتة . ومن قيم أو معايير اجتماعية تعتز بها طبقة أو اكثر من طبقات المجتمع ،ومن المثل العليا التي تكافح في سبيل تحقيقها والاتجاهات التي تسيطر على هذا الكفاح . وكلها تمثل جوانب أساسية صادقة التصوير والتعبير من حياة المجتمع .

وهنا يحسن بنا أن نتوقف لحظة لنعرف كيف نعتمد على ما يكتبه الأديب لكي نتعرف على احوال المجتمع .إن الشاعر المسرحي الذي يكتب لنا عددا من المسرحيات ، مثل ايسخيلوس Aeschylos أو سوفوكليس Sophokles أو يوريبيديس Euripides أو أرستوفانيس Aristophanes . يأخذ شخصياته من الأساطير اليونانية أوربما يخترعها . وهو يحركها ويرسم الأحداث التي تقوم بها أو تقع لها والمواقف التي توجد أو تجد نفسها فيها . كل ذلك يرسمه كما يريد حتى يثبت الفكرة أو القيمة التي تدور بخلده والتي يريد ان يفرضها مدافعا عنها متصديا لها .

وعلى هذا فنحن لا نستطيع أن نعتمد على الاشخاص أو الحوادث التي تجيء في هذه المسرحيات على أنها أشخاص أو حوادث حقيقية ، ولكن مع ذلك فهناك شيء ما صادق في المسرحية: وهو تصوير كاتب المسرحية للفكرة التي يعرضها والتي لا بد انها تمثل فكرة واردة في تصور المجتمع الذي يعيش فيه، سواء أكانت واردة على نطاق واسع ، أي بين صفوف اكبر قسم من المجتمع . أو على نطاق ضيق في قسم محدود من هذا المجتمع . كذلك فان التفاصيل الصغيرة للتصرفات التي تقوم بها الشخصيات والتي تخص أعمالهم وحركاتهم وتصوراتهم وعاداتهم المباشرة اليومية الصغيرة . هي تفاصيل صادقة لأن الكاتب لا يمكن أن يخترع لأبطال مسرحيته عادات غير عادات البيئة التي درج ونشأ فيها . فالكاتب هو ابن بيئته دائما مهما كانت الافكار التي يريد أن يعرضها .

ولنعرض هنا لنوع آخر من الادب اشتهر به اليونان وهو ادب الملاحم، والملحمة بشكل مبسط ودون دخول في التفاصيل المتعلقة بالصفة الأدبية . هي رواية أسطورية أو شبه أسطورية مكتوبة بالشعر. وأولى وأهم الملاحم اليونانية . وهما ملحمتا الإلياذه والأوديسيه منسوبتان إلى شاعر اعتقد اليونان أن اسمه هوميروس Homeros . ومن بين كتاب الملاحم كذلك شاعر يوناني آخر اسمه هزيودوس Hesiodos كتب ملحمتين الأولى هي « الاعمال والايام Egra Kai Hemera » والثانية « نسب الالهة Theogonia » . وعلى ايّ الاحوال فقد كان عصر الأدب الملحمي أو أدب الملاحم سابقا بكثير لعصر الأدب المسرحي عند اليونان .

وإذا أخذنا ملحمتي الإلياذة والأوديسيه المنسوبتين إلى هوميروس لنرى كيف يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليهما ، نرى في أول الأمر أن

الشاعر يحيط به وباسمه وبنسبه شيء كثير من الغموض، كما ان العصر الذي ينتمي إليه يحيط به هو الآخر غير قليل من هذا الغموض، وأخيرا فإن نسبة الملحمتين أو أجزاء منهما قد لا تكون نسبة صحيحة إلى هذا الشاعر . وربما كان اقرب الأشياء إلى الصحة أن المسالة كلها عبارة عن مجموعة من الاشعار والاناشيد الفولكلورية قيلت وانشدت وتغنى بها الناس في فترة تمتد أكثر من ثلاثة قرون (بين أوائل القرن الثاني عشر وأواسط القرن التاسع ق . م .) وجمعها وصاغها في هيئة هاتين الملحمتين اللتين تدور أولاهما . وهي الالياذة : حول مهاجمة القوات اليونانية المحاربة لمنطقة طروادة (على الساحل الشمالي الغربي لآسيه الصغرى) وتدور الثانية (الأوديسيه) حول المغامرات والأهوال التي واجهها أحد الابطال اليونانيين في هذه الحرب . هو الملك أوديسيوس Odysseus ، في طريق عودته من طرواده، بعد أن أسقطها واحرقها اليونان . إلى بلده ومقر ملكه إثاكه Ithaka على الساحل الغربي لبلاد اليونان .

ولكن وسط كل هذا الغموض الذي يحيط بناظم الملحمتين وبالعصر الذي عاش فيه نجد أمامنا حقيقتين ثابتتين . وأولى هاتين الحقيقتين هي أن الشعر قيل فعلا وتغنى به اليونان فعلا في الفترة المبكرة من تاريخهم ووضعوه في المنزلة التي تليق به . فاعترف شعراء اليونان المتأخرون بفضله على تكوينهم الأدبي وعلى كتاباتهم . وفاخر به رجل الشارع في بلاد اليونان كما يفاخر بأعز ما خلفه له آباؤه . وإذن فهو ليس شعرا مدسوسا من شاعر متأخر يتكلم عما ليس له به علم كما يحدث عادة في اشعار كثير من الامم بما في ذلك الامة اليونانية . وهكذا تمثل لنا هذه الاشعار، ولنسمها للسهولة اشعار هوميروس ، تراثا شعبيا يونانيا اصيلا .

أما الحقيقة الثانية ، وهي امتداد إلى حد ما للحقيقة الأولى ، فهي ان تغني اليونان بهذا الشعر في طول بلادهم وعرضها بل حيثما حلّوا في هجراتهم التي دفعت بهم إلى كافة شواطىء البحر المتوسط — أقول إن تغني اليونان بهذا الشعر وتخليدهم اياه انما يدل على أن هذا الشعر كان شعبيا وكان محبوبا.بل لقد بلغ من حب اليونان لهذه الاشعار أن مجدوا هوميروس رغم كل الغموض الذي أحاط بشخصيته ، وتوارثوا هذا التمجيد جيلا بعد جيل كما يظهر ذلك من مظاهر عديدة ، من بينها ادعاء عدد كبير من المدن اليونانية ، سواء تلك الموجودة في بلاد اليونان الأصلية (الأوروبية) أو التي أنشأوها في مهاجرهم على شواطىء البحر المتوسط ، نسبة هوميروس إليها ، ومنها أن أشعار الملحمتين كانتا تشكلان الدروس الأولى التي يجب أن يتعلمها ويتدرب عليها النشء اليوناني ، وقد كان هذا الأمر ساريا في كلّ العصور التي نعرف خلالها شيئاً عن المجتمع اليوناني [٦] .

واذن فقد كان شعر هوميروس شعبيا كما ذكرت يجد قبولا ورواجا عند رجل الشارع الذي يمثل الأكثرية الغالبة من الذين كانوا يستمعون إليه ، كما كان يستمع اهل الريف عندنا من فترة غير بعيدة إلى شاعر الربابة وما كان يتغنى به من الامجاد العربية ، بل لقد كان يجد قبولا ورواجا كذلك عند طبقة الموسرين الذين تسابقوا إلى دعوة الشعراء المنشدين لأشعار هوميروس (وكانوا يسمون الهوميريين Homeridae) للإقامة في قصورهم والتغني بأسلافهم . وهو لن

---

(٦) عن عدد من هذه المظاهر راجع :
Plutarchos : Solon, 9-10; Platon: Politeia, 606 E; Arrianos : Alexandros, I, 11; Finley: The World of Odysseus (Pelican ed.), pp. 24-5.

يجد هذا الرواج عند اليونان إلا إذا كان يتجاوب مع الافكار التي تدور بخلدهم والمشاعر التي تفعم صدورهم والاحاسيس التي تعتمل في نفوسهم ولابدّ ان تكون هذه افكار ومشاعر واحاسيس متداولة وعادية ومن الممكن تصوّرها والانفعال بها في البيئة التي وجد فيها اليونان وإلا مـــا قبلوها أو تغنوا بها أو خلدوها . وإذن فهي صادقة .

ولأتوقف هنا قليلا لألقي شيئا من الضوء على صفة « الصدق » هذه التي وصفت بها أشعار هوميروس.هل هذه الاشعار تمثل حقائـــق تاريخية نعتمد عليها في التأريخ للشعب اليوناني ؟ لكي نستطيع الحكم على هذا ، لننظر إلى رواية أو روايتين من تلك التي اوردهـــا شاعر الالياذة والاوديسية إنه يذكر لنا أن حرب طرواده قامت لأن الأمير باريس Paris (ابن برياموس Priamos ملك طـــرواده) اغرى هيليني Helene زوجة مينلاوس Menelaus ملك اسبرطة بالهرب معه . فهبت جموع الاخيين (اليونانيين) يحشدون الجيوش ويجهزون السفن ويجمعون السلاح ويتحدون المخاطر ويشتركون فـــي حرب وحصار لمدة عشر سنوات مليئة بالمحن والخطوب لكي يستعيدوا الزوجة المسلوبة ويثأروا للشرف المثلوم .

كذلك يظهر لنا الشاعر آلهة اليونان وقد اشتركت فعلا في إشعال الحرب وفي توجيهها . فالإلهة أفروديتي Aphrodyte ربة الحـــب والجمال . هي التي تغرى باريس بأن يبحر إلى اسبرطة حيث تنتظره هيليني . حبيبته الموعودة وهي التي تغمره بنشوة الحب حتى يستسلم لاغراء هيليني ويفرّ هو وحبيبته إلى طرواده ، وهكذا تبدأ الحرب الانتقامية بين الآخيين والطروادين .وزيوس Zeus كبير الالهةيغضب على أجامنون Agamemnon ملك الآخيين لأن هذا سبى ابنة خروسيس كاهن الإله أبوللون Apollon بن زيوس . ولم يشأ أن يردهـــا

لوالدها رغم توسلات الوالد ورغم الفدية الكبيرة التي أراد تقديمها[٧] وهو (أي كبير الآلهة) لهذا يوهم أجامنون بالنصر اذا بدأ القتال من فوره ضد الطرواديين[٨] . وهكذا تنشب المعركة بين الطرفين بعد حصار طال أمده . والآلهة تنقسم فريقين أحدهما مع الطرواديين والآخر مع اليونان ، وهم لا يألون جهدا في مناصرة الجانب الذي يتحزبون له وفي الايقاع بالجانب الآخر ، مشتركين بذلك في سير الحرب اشتراكا فعالا ؛ فالإلهان أبوللون وآريس Ares يسددان إلى الآخيين سهامهم النافذة وزيوس يمطرهم بالصواعق بينما تحزن الالهتان هيرة واثينة لما فيه الاخيون من شدة ويحثان الإلهة بوسيدون لينقذهم من الهلاك وهكذا[٩] .

هذا هو بعض ما ذكره هوميروس عن حرب طروادة وقد اخترت هذه الامثلة بالذات لأبين كيف كان الشاعر يغرق في الخيال لدرجة لا يمكن أن تتلاءم مع الحقائق المعقولة . ومن ثم فمن الواضح ان صفة « الصدق » التي تحدثت عنها لا يمكن في هذا الوضع أن أعني بها صدق الحوادث التي أوردها الشاعر في حد ذاتها واعتبارها حقائق تاريخية لاتقبل الجدال ، وانما ينطبق الصدق الذي اعنيه على الاتجاه السائد دون التفاصيل الفردية التي تخص مناسبات بعينها أووقائع محددة أوأفرادا بالذات ولعلي ازيد فكرتي وضوحا اذا اقترحت فيما يختص بهذه النقطة ان نقسم ما ذكره هوميروس الى اقسام ثلاث نستطيع على هديها أن نؤرخ للمجتمع اليوناني .

---

(٧) Homeros : IL., I, 8-32, 94-100.

(٨) IL., II, 8-34.

(٩) IL., V, 711-734; VII, 350-79.

اما القسم الأول فهو وصف حياتهم اليومية سواء في البيت أو السوق أو الحقل أو المرعى أو ميدان القتال ، بما يأتي عرضا في اثناء هذا من وصف لأدوات وأسلحة وولائم واحتفالات واستعداد للحرب وعادات وطرق للتصرف تحت الظروف المختلفة — وهذا الوصف يكاد يكون وصفا تقريريا نستطيع أن نعتمد عليه اعتماداً يكاد يكون تامّا . ثم يأتي القسم الثاني وهو يخص نظرة اليونان إلى القيم الاجتماعية مثل مركز المرأة في المجتمع ونظرة اليونان إلى الدين والآلهة ومدى اعتقادهم في وجود هؤلاء وقدرتهم . ومثل موقف اليونان من القانون وما كان يسودهم من تنظيم سياسي واقتصادي ومن تعايش طبقي واجتماعي . وهذا القسم يظهر لنا في صورة قصص أو مناظر أو لوحات نستطيع أن نتخذها كأمثلة رمزية نستنتج منها الاوضاع أو المواقف التي نريد دراستها . وأخيرا يأتي القسم الثلث وهو يتعلق بآمال اليونان وأمانيهم وبافكارهم عن المجتمع المثالي الذي لا تظهر فيه عيوب مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، وهذه يوردها الشاعر على لسان شخصياته فيجعل هذه الشخصيات تقارن بين ما كان سائدا فعلا وما كانوا يتمنونه أو يرون أنه ينبغي أن يكون ، وقيمة هذه الافكار هي انها تعكس لنا فكرة اليونان عن مجتمعهم ومدى قبولهم للتيارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسوده - ومن ثم فهي بداية جذرية للفكر السياسي الذي وصل إلى قمته بعد ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد [١٠] .

(١٠) راجع الباب الخاص بالفكر السياسي في القسم الاخير من هذه الدراسة .

القسم الثاني

مراحل تاريخ اليونان

الباب الرابع

العصر المبكر

تمهيد

الحديث عن المراحل أو العصور التي انقسم إليها أو تطوّر من خلالها تاريخ اليونان في العصر القديم،سأنتهي به إلى حيث يظهر الاسكندر المقدوني (أو الاسكندر الاكبر كما يسمى في بعض الاحيان).وليس معنى هذا أن تاريخ بلاد اليونان في العصر القديم ينتهي عند الاسكندر المقدوني ، فقد كان ظهور هذا الفاتح بداية عصر بأكمله من عصور تاريخ اليونان هو مانسميه باسم العصر المتأغرق وما يسميه الأوروبيون عادة باسم العصر الهللنستي Hellenistic . ولكن هذا العصر الأخير رغم انه يشكل تطوّرا واستمرارا لتاريخ المجتمع اليوناني . إلا أنه يخرج عن نطاق هذه الدراسة لظروف موضوعية . ففي هذا العصر كان المجتمع اليوناني قد تعرّض لتغيّرين كبيرين فرضتهما الحركة التاريخية التي فجرتها فتوح الاسكندر في الشرق.فمن جهة لم يعد هذا المجتمع يشكّل تكوينا حضاريا قائما بذاته يمكن أن تنطبق عليه صفة «الحضارة اليونانية » بمفهومها التقليدي، وإنما أصبح مجرّد جزء من تكوين حضاري أوسع ينطبق على المجتمع اليوناني وعلى مجتمعات أخرى

هي مجتمعات الشرق الأدني القديم . وهذا التكوين الحضاري الجديد كانت له منطلقات وأبعاد خاصة به التقت فيها عناصر الحضارة اليونانية بعناصر الحضارة الشرقية على نطاق واسع يتخطى مجرّد التسربات الحضارية البطيئة أو المتقطعة التي تبادلتها هاتان الحضارتان بدرجات متفاوتة قبل ذلك . ومن جهة أخرى فإنّ التوجيه أو الإيقاع الحضاري في العصر المتأغرق (الهللنستي) لم يعد مصدره بلاد اليونان كما كان الحال قبل ذلك ، وإنمّا أنتقل مصدر هذا التوجيه أو الإيقاع إلى مراكز أخرى تقع في منطقة الشرق الأدني . ورغم أنها احتفظت باللغة اليونانية كلغة للثقافة وبعدد من التجمعات اليونانية أو المختلطة كنقاط اشعاع إلاّ أنها كانت تعيش مناخا حضاريا يختلف عن المناخ الحضاري اليوناني التقليدي اختلافا جوهريا .

النقطة الثانية التي أود أن أوضحها هي أن التقسيمات التي ينقسم إليها تاريخ اليونان تختلف من انصار مذهب معين في التأريخ الى أنصار مذهب آخر حسبما تختلف وجهات النظر بين انصار المذاهب المتباينة. ولكن مع ذلك فإني سأتبع تقسيما يتخطى الخلافات بين هذه المذاهب ويتخذ نقطة انطلاقه من نموّ المجتمع ليوناني ذاته . وقد رأيت ان تكون هذا التقسيم هو :

– العصر المبكّر وينتهي حوالي ١١٠٠ ق . م .

– عصر ظهور « دولة المدينة » الذي امتد من حوالي ١١٠٠ إلى ٥٠٠ ق . م . ويمكن أن نقسمه داخليا إلى مرحلتين أو فترتين : الأولى بين ١١٠٠ ق . م . وهي التي شهدت ما يمكن أن نعتبره البدايات الأولى للتكوين الحضاري الذي عرف بنظام أو حضارة دولة المدينة والثانية وهي التي عاصرت تطوّر هذا النظام حتّى وصل إلى تكوينه الكامل ، وتمتدّ بين ٨٠٠ و ٥٠٠ ق . م .

ـ العصر الذي شهد مسار التكوين الحضاري لدولة المدينة في صعوده ثم في انحداره ويمتد بين بداية القرن الخامس وأواخر القرن الرابع ، ويسمى العصر الكلاسيكي .

١ ـ الحضارة الإيجية (أو الكريتية أو المينوية)

وقد امتد العصر المبكر حتى حوالي ١١٠٠ ق . م . وعرف قدرا ظاهرا من النشاط الحضاري في المنطقة التي عرفت بعد ذلك باسم العالم اليوناني بعد أن انتشرت فيها الحضارة اليونانية سواء في بلاد اليونان الاصلية في جنوبي شبه جزيرة البلقان أو في الجزر المنتشرة في ارجاء بحر إيجه أو على سواحله في الشمال والشرق . والحضارتان الرئيسيتان في هذا المجال لم تكن أولاهما يونانية وأن كان تأثيرها قد امتد إلى بلاد اليونان وهذه هي الحضارة الايجية والثانية كانت يونانية وبدأت في قلب بلاد اليونان وانتشرت خارجها وهذه هي الحضارة الموكينية . ولنبدأ بالحديث عن أولى هاتين الحضارتين وهي الحضارة الإيجية (نسبة إلى بحر إيجه) . والتي تسمى كذلك باسم الحضارة الكريتية (نسبة إلى جزيرة كريت ، وهي أقوى مراكزها) أو الحضارة المينوية (نسبة إلى بيت مينوس) وهو البيت الحاكم الذي سيطر على جزيرة كريت لفترة طويلة .

أ ـ اماكن انتشارها

بدأت بشائر هذه الحضارة تظهر في اماكن متفرقة من المنطقة التي تطل على هذا البحر أو التي تقع على مقربة منه ابتداء من العصر الحجرى الحديث ، وكان المع مراكزها في جزيرة كريت التي وصلت فيها هذه الحضارة الى درجة كبيرة من الازدهار نحو نهاية الالف الثالثة

قبل الميلاد. بعد أن كان سكانها قد بدأوا يتركون هذا العصر وراءهم ويعرفون استعمال المعادن في خلال هذه الالف . ومن هذه الجزيرة بدأت هذه الحضارة تؤثر على بلاد اليونان حول ١٦٠٠ ق . م .

وقد انتشرت مظاهر هذه الحضارة في جميع أرجاء الجزيرة ولكنها كانت على ألمعها في منطقتين : أمّا الأولى فهي مدينة كنوسوس Knossos التي تقع في وسط الساحل الشمالي للجزيرة على التل الذي سميّت المدينة باسمه على بعد كيلو مترات بسيطة من شاطىء البحر وقرب شواطىء نهر كايراتوس Kairatos . وأما المنطقة الاخرى فهي مدينة فايستوس Faestos التي تقع على مسافة بسيطة من وسط الساحل الجنوبي للجزيرة .

وسأشير بشكل سريع إلى بعض مظاهر هذه الحضارة في مرحلتها المبكرة . وفي هذا المجال نجد أن الفن المعمارى وصل في كل من كنوسوس وفايستوس إلى درجة لا بأس بها في تلك المرحلة. فحوالي ٢٠٠٠ ق . م . نجد قصرا في كلّ من المدينتين بلغ من قوة بنائه أن استمرّ قائما عدة قرون وعبر هذه القرون كانت صناعة الخزف في المنطقتين قد بلغت مرحلة على جانب كبير من التقدم . فالأواني التي ابتدأت بطلاء أسود تطلى عليهرسوم زخرفية غير مفصلة باللون الابيض أو الاحمر أو البرتقالي لم تلبث أن تطوّرت بعد ذلك لتضم رسوماً وصوراً مفصلة للحياة النباتية والحيوانية والبحرية إلى جانب مناظر أخرى مقتبسة مما كان يرسم على جدران القصور والمنازل. كذلك عرف أهل كريت الكتابة في هذه المرحلة المبكرة من حضارتهم . وقد ظهرت هذه الكتابة في بادىء أمرها في شكل صور على نمط الكتابة الهيروغليفية تمثلّ كل صورة منها كلمة ، ولكنها تدرجت بعد ذلك لتخدم معيارا أوسع من الحياة الثقافية لم يعد يحتمل بطء كتابة الصور ، فحلّت

محلها كتابة في شكل خطوط ربما كان كل خط منها يمثل مقطعاً . وقد وجدت في كهف في أحد جبال الجزيرة منضدة لقرابين الشراب عليها نقوش بهذا الخط .

وقد دمرت كنوسوس حوالي ١٧٠٠ ق . م . ولكن يبدو أن هذا التدمير جاء على أثر حدوث زلزال وليس نتيجة لاعتداء خارجي مما قد يسبب تدهورا في جانب أو أكثر من جوانب الحضارة التي نحن بصدد الحديث عنها . وعلى اية حال فقد اعقب هذا التدمير فترة شهدت درجة اكبر من الازدهار والتقدم الذي ظهر بشكل واضح في عظمة القصور التي قامت خلالها وفي ازدياد عدد السكان في كافة أرجاء جزيرة كريت .

وفي هذه الفترة ، وبين ١٦٠٠ و ١٤٠٠ ق . م على وجه التخصيص ، نجد أن الجانب السياسي من الحضارة الكريتية قد وصل إلى درجة من النضج لم تعد معه الجزيرة مجرد دويلات أو مراكز حضارية متناثرة . وإنما ظهر هناك نوع من الترابط بين هذه الدويلات أو المراكز اتخذ شكل سيادة احداها ، وهي كنوسوس على كافة انحاء الجزيرة — وهي سيادة بلغت ذروتها في القرن الخامس عشر ق . م حين أصبح ملوك هذه المدينة سادة بحر إيجه وسيطروا بأساطيلهم على الجزر الموجودة بهذا البحر .

ولم تكن الجوانب الاخرى من الحضارة المذكورة بأقل نضوجا من الجانب السياسي . ففي الجانب المعمارى مثلا بدأت القصور تقام على طراز أعظم ، وبدأت جدرانها تزين برسوم تبين أوجه الحياة المختلفة في كريت مثل الاستعراضات والحفلات وما يمارسه أو ينغمس فيه سكان المدينة من جوانب الحياة ، بل ان بعض هذه الرسوم كان

يتناول مواضيع ومناظر من خارج كريت من بينها مثلا بعض المناظر الطبيعية في مصر[1] .

وفي غير الجانب المعمارى من هذه المرحلة الحضارية نجدأن سكان كنوسوس كانوا قد بدأوا يعرفون ألوانا اخرى من التقدم سواء في الجوانب الترفيهية من حياتهم أو في تلك التي تتعلق بضرورات معاشهم. فقد عرفوا المسرح وعرفوا بعض أنواع الترف مثل مشاهدة مصارعة الثيران . كذلك عرفوا نوعا متقدما من الكتابة كفيلا بأن يغطي أوجه نشاط أسرع وأكثر تعددا من ذي قبل ، بحيث لم يعد يلائمها البطء الذي تفرضه الطريقة القديمة في الكتابة ، كما ظهرت في كتابتهم الجديدة الأرقام والكسور بما يوحي به هذا من نشاط وتشعب في المعاملات التجارية المحلية وغير المحلية — وهو جانب استدعى ، إلى جانب هذه المعرفة . معرفة اخرى ملازمة لها بالعملة المعدنية التي من شأنها أن تسهم في تسهيل وتنشيط هذه المعاملات .

هذا ولم تكن الحضارة الايجية قاصرة على كريت وحدها. وانما وجدت بشكل مستقل في أماكن اخرى في جزر بحر إيجه أو على شواطئه وإن كانت لم تصل في هذه المناطق إلى مثل ما وصلت إليه في كريت من ازدهار . ومن بين هذه المناطق مدينة فيلا كوبي في جزيرة ميلوس إحدى جزر مجموعة الكيكلاديس في بحر إيجه . ومدن أخرى في جزر أخرى من هذه المجموعة . وقد بلغت هذه الحضارة الجزرية شوطا لا

---

(١) مثال على ذلك : جرة عثر عليها في كنوسوس عليها نحت بارز يمثل منظرا يظهر فيه نبات البردي (وهو نبات مصري) انظر :

Bury : op. cit., p. 16, Fig. 6 B

بأس به من التقدم . إذ أن معول الأثرى قد كشف عن نقط اتصال بينها وبين مصر . كما أن لدينا ما يشير إلى أن الساحل الشرقي لبلاد اليونان قد تأثر بهذه الحضارة الجزرية الكيكلادية .

وإذا كانت جزر بحر إيجه قد شهدت في تلك الفترة المبكرة انبثاقا حضاريا موضعيا فقد كان هناك انبثاق آخر على الشواطيء الشمالية الشرقية لهذا البحر في المنطقة التي قامت عليها فيما بعد مدينة طروادة التي جاء ذكرها في ملحمتي الإلياذة والأوديسية المنسوبتين إلى هوميروس. إن طبقات الحفائر التي عثر عليها الاثريون في هذه المناطق تدلنا على وجود عدد من المدن بعضها قام على أنقاض البعض الآخر في ترتيب تصاعدي ، وكلها يقوم على تل غير بعيد من نهر الساكاماندر يرتفع ١٦٠ قدما فوق سطح البحر ويتحكم في مضيق الهلسبونتوس Hellespontos . المدخل الطبيعي للبحر الاسود .

إن المدينة الأولى في أسفل هذه الحفريات يحف بها حائط من الحجر غير المصقول ووجود هذا الحائط يدلنا على أن المدينة بموقعها هذا كانت تتعرض من حين لآخر لاعتداءات واحتكاكات من كل من يريد السيطرة على مدخل البحر الاسود لسبب أو لآخر، ومن هنا كان من الطبيعي أن تتخذ لنفسها اجراءات دفاعية يمثل هذا الحائط واحدا منها على الاقل. كذلك وجد بين مخلفات هذه المدينة الأولى ما يدل على أنها كانت على علاقة تجارية مع مناطق تبتعد كثيراً عنها ، أو على الأقل كانت ممرا للقوافل التجارية التي تأتي من هذه المناطق . فقد عثر الأثريون فيها على رأس بلطة من نوع من الحجر موطنه في أواسط آسيه .

والمدينة الثانية التي قامت على أنقاض هذه المدينة الأولى تدلنا على

ازدياد اهمية موقعها لدرجة اكثر مما كان عليه من قبل ، فقد وجدت بها آثار حصن قوى يحيط به جدار من اللبن يقوم على أساس متين من الحجر ، ومظاهر قوة التحصين في هذا الجدار (الذي كانت لهابواب ثلاث) هي أن كل ركن من أركانه الأربع كان يقوم به برج. وقد عاصر سكان هذه المدينة الثانية أواخر العصر الحجرى وبداية عصر المعادن الذي شهد أبناؤه صناعة الادوات النحاسية ، ولم يكونوا بعد قد عرفوا صناعة البرونز ، كما وجدت بين مخلّفاتها بعض الأواني الفخارية ، وان كانت هذه من صناعة يدوية . ولكن وجد إلى جانبها عدد من أدوات الزينة الذهبية التي تشير إلى قدر من المهارة في الصناعة – ووجود هذه الأدوات يدل على أن المدينة كانت على جانب من الثراء ، ربما كان مبعثه هو موقعها الممتاز الذي يتحكم في القوافل التجارية برا وبحرا كما لمسنا في مناسبة سابقة من هذا الحديث . وقد انتهى امر هذه المدينة الثانية بان دمرّت حوالي ٢٣٠٠ ق . م . ليقوم على أنقاضها عدد من المدن كان من بينها (بعد سبعة أو ثمانية قرون) مدينة إليون Ilion في منطقة طروادة . التي خلدّتها ملحمة الألياذة وهي المدينة السابقة في الترتيب التصاعدي .

ب – امتدادها الزمني

وقد اتفق الباحثون على تقسيم الحضارة الإيجية أو الكريتية (حيث ان كريت كانت مركزها البارز) إلى ثلاثة عصور ينقسم كلّ منها بدوره إلى ثلاث مراحل نسبت جميعها إلى الملك مينوس الذي كان سيد كريت وبحر إيجه في الفترة التي شهدت قوة هذه الجزيرة وعظمتها الحضارية . وهذا التقسيم . حسبما وضعه آرثر إيفانز (وهو مع ذلك بعيد عن ان يكون موضع اتفاق الجميع) يقع في الخطوط العريضة الاتية :

ـ العصر المينوى المبكر من ٢٦٠٠ إلى ١٨٠٠ ق.م
ـ العصر المينوى المتوسط من ١٨٠٠ إلى ١٦٠٠ ق.م
ـ العصر المينوى المتأخر من ١٦٠٠ إلى ١٢٠٠ ق.م

هذا ، وقبل أن انهي الحديث عن هذا العرض السريع للخطوط العامة لهذه الحضارة الإيجية أو المينوية سأشير بشكل عابر إلى بعض اتصالاتها الخارجية التي ترينا مدى التقائها مع الحضارات الأخرى التي قامت في الشرق ، وهي الاتصالات التي ساعدت الاثريين والمؤرخين على تحديد الامتداد الزمني لمراحل الحضارة المينوية .

وفي هذا المجال نجد أن مصر تبدو كأنها كانت المنطقة الرئيسية لهذه الاتصالات الحضارية المذكورة . فمثلا وجد الأثريون إناء كريتيا ذا ألوان متعددة في أبيدوس (في مصر) وهذا يجعل في إمكاننا أن نحدد أن المرحلة الثانية من العصر المينوى الثاني كانت قد بدأت تقارب نهايتها حوالي ١٨٠٠ ق . م . كذلك وجد تمثال صغير مصنوع من الحجر لشخص مصرى منقوش عليه اسمه بحروف مصرية بين مخلفات أحد القصور الملكية في كنوسوس . ويدلنا طراز هذا التمثال انه صنع في عهد الاسرة الثانية عشر أو الثالثة عشر ، ربما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ق. م. كذلك عثر في طيبة المصرية في عهد تحتمس الثالث (حوالي ١٥٠٠ ــ ١٤٥٠ ق . م) على صورة تمثل امرأة من الكفتيو (الإسم الذي اطلقه المصريون على أهل كريت) وهي تحمل في يدها كأسا . واخيرا ، فنحن نجد ان العلاقات التجارية بين كريت ومصر ، وهي علاقات وجدت من عصر مبكر بشكل عابر أو متقطع تصل إلى درجة كبيرة من الانتظام في القرن الخامس عشر ق . م اثناء الفترة التي شهدت عظمة القوة والحضارة الكريتية ، فقد عرف الزيت

الكريتي والأواني الفخارية الكريتيه طريقها الى مصر . كما تذكر لنا النصوص المصرية أن ملوك بلاد الكفتيو وجزر البحر العظيم كانـوا يحضرون الهدايا والقرابين للملوك العظماء من الأسرة الثامنة عشر — وربما كان هذا النص يشير إلى اتساع ونفوذ المصريين وامتـداده إلى منطقة بحر إيجه في تلك الفترة وبخاصة في عهد تحتمس الثالث .

٢ — الحضارة الميكينية

الحضارة الميكينية هي الحضارة الكبيرة الثانية التي وجدت في العصر المبكر في العالم الذي انتشرت فيه الحضارة اليونانية في العصر التاريخي . وهي تختلف عن سابقتها ، الحضارة الايجية أو الكريتية ، أو المينوية ، في انها كانت حضارة يونانية الاصل من جانب ، وفي انها أتت متأخرة عنها من جانب آخر ، فقد ابتدأت بين ١٦٠٠ ق.م. اي في بداية العصر الثالث من الحضارة المينوية وانتهت حوالي ١١٠٠ ق . م اي بعـــد تدهور الحضارة المينوية بنحو مائة عام

أ — بداياتها المتأثرة بالحضارة الكريتية

وقد ظهرت بوادر هذه الحضارة في مدينة ميكيني Mykenae في القسم الشمالي الشرقي من جزيرة البلوبونيسوس . ولعلنا نلمس سر ابتداء هذه الحضارة اليونانية الأصل في هذه المدينة بالذات إذا عرفنا شيئا عن طبيعة موقع ميكيني . فالمدينة تقع فوق تل يرتفع عن سطح البحر بنحو ٩٠٠ قدما . وهي بموقعها هذا تعتبر محصنة تحصينا طبيعيا . كما ان هذا الارتفاع يجعلها تطل وتسيطر بالطبيعة على سهل أرجوس الذي تقع في شماله الشرقي ، كما يجعلها تتحكم في الطرق المؤدية إلى المضيق أو العنق الأرضي الذي يصل

شبه جزيرة البلوبونيسوس بالقسم الشمالي من بلاد اليونان ، كما أن المنطقة التي حولها تمكنها من ان يكون لديها بصفة دائمة المياه اللازمة لها في الزراعة ، ومن هنا تتهيأ لها من البداية دعامة اقتصادية قويـــة تصلح كنقطة ابتداء للانبثاق الحضارى .

وليس لدينا أية آثار تدل على أن المنطقة كانت مأهولة في العـــصر الحجرى ، ولكن نواحي النشاط الحضارى تبدأ في الظهور بها في فترة مبكرة من العصر البرونزى . في هذه الفترة نجد آثار القصر الملكي تقوم على قمة التل مع احتمال وجود سور يحيط به بينما كانت المقابر (ومن بينها المقابر الملكية) تمتد على جوانب التل . وقد بقي عدد من هـــذه المقابر الملكية كما هو حتى وصل إليه معول الأثري في العصر الحاضر.

والطراز الذي اتبع في بناء هذه المقابر والمحتويات التي عثر عليها بداخلها ، سواء أكانت هذه كؤوسا ذهبية وفضية أو آنية فخاريـــة، تشير بشكل واضح إلى التأثر الكبير بالحضارة الكريتية ، بل إن هذه الكؤوس والآنية يبدو انها صنعت بأيد كريتية فعلا . كما نجد أن هذا الأثر الحضارى الكريتي في القرون التالية ليشمل قسما كبيرا من بـــلاد اليونان .

وقد أرجع بعض الباحثين هذه الظاهرة إلى سيطرة كريت عـــلى بلاد اليونان لفترة من الزمن.والافتراض يبدو لأول وهلة تفسيرا معقولا، ولكن تقف امامه بعض اعتبارات تزعزع بعض الشيء من قوته. فرغم أن المقابر ومحتوياتهـــا تشير إلى الأثر الكريتي ، إلا أن الطريقة الـــتي استخدمت بها هذه المحتويات تشير إلى نوع من البذخ البدائي عن طريقة الحياة الكريتية التي كانت في تلك الفترة قد وصلت إلى قدر كبير من النضج . كذلك نجد أن الاقنعة التي وجدت على أوجه الموتى تختلـــف

ملامحها ، على الاقل في بعض الحالات عن الملامح الكريتية ، بشكل يكاد يكون قاطعا . وإلى جانب ذلك فإن النقوش التي وجدت على شواهد هذه القبور ليس لها ما يناظرها على شواهد القبور في المخلّفات الاخرى الكريتية . واذا كان الدرع الكبير الذي كان يحمي الجسم كله والذي نعرف اوصافه من الاشعار المنسوبة الى هوميروس قد اشترك فيه كلّ من الميكينيين والكريتيين ، فان الخوذة التي كان المحارب الميكيني يغطي بها رأسه ليس لطرازها ما يناظره في كريت . وهكذا يبدو أن تفسير ظاهرة الأثر الكريتي على ميكيني وغيرها من بلاد اليونان ، بإرجاعه إلى سيطرة كريتية على المنطقة . تعترضه بعض الصعوبات ومن هنا يبرز الاحتمال بأن هذا الاثرى الحضارى الكريتي يرجع إلى انتقال بعض الفنيين من اصحاب الحرف من كريت إلى بلاد اليونان ، ربما على أثر الزلزال الذي سبق أن اشرت إلى أنه دمر كنوسوس في فترة من فترات تاريخها .

وقد ظل الأثر الحضارى الكريتي يسيطر على ميكني وغيرها من المدن اليونانية في صناعتها الفخارية والمعدنية نحو قرنين من الزمان. ونحن نلمس هذا الأثر في المخلّفات التي وجدت في اغلب الاماكن التي ورد ذكرها في الالياذة والأوديسية كمراكز للقوة والثروة في بلاد اليونان، ولكنا مع ذلك نلمس نموّا تدريجيا للشخصية الحضارية الميكينية (وقد سميّت حضارة بلاد اليونان كلها في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها بهذا الاسم نسبة إلى ميكيني التي كانت أقوى مدنها وألمع مراكزها الحضارية) .

ب ـ انبثاق شخصيتها وانتشارها

وقد استمرت هذه الفترة المتميعة التي شهدت الانبثاق البطيء للشخصية الحضارية الميكينية وسط الأثــر الحضارى الكريتي حتى

العصر المتأخر (من الناحية الزمنية) من هذه الحضارة وهو المسمى العصر الهيلادي الثالث . وفي هـذا العصر حوالي ١٤٠٠ ق . م. نلمس شواهد واضحة لتدمير واسع النطاق في كريت . يعقبه تدهور بطيء ولكنه مستمر لحضارتها كما نلمس من جانب آخر شواهد تشير إلى ازدياد قوة ميكيني وتبلور معالم الحضارة التي تمثلها ـالأمر الذي قد يشير ، دون ترجيح، إلى غزو يوناني لجزيرة كريت.

وليس هدفي في هذا العرض السريع ان اخوض في تفاصيل الحضارة الميكينية في فترة ازدهارها ، ولكني سأشير بشكل عابر إلى خطوطها العريضة في جانبين أو ثلاثة من جوانبها . فالمقابر لـم تعد تتبع الطراز الكريتي ، وإنما ظهر لها طابع مستقل جديد . والآنية الفخارية بعد ان كانت تحت الاثر الكريتي تعتمد في مناظرها على الحياة النباتية والحيوانية التي يجمعها نموذج واحد للاناء الواحد ، بدأت تترك هذا وراءها لنجد صور الاشخاص تظهر عليها ، ولنجد سطح الإناء الواحد يتسع لعدد من النماذج . والدرع الكريتي الكبير الذي كان يشبه قوسين متلاصقين والذي كان يكفي لحماية الجسم بأكمله ، بدأ ينقرض ليحل محله درع أصغر وأخف في الحمل ذو شكل يشبه القطاع الطولي للاسطوانة ، ثم اندثر هذا بدوره ليحل محله درع اكثر صغرا وأخف حملا . والسيوف التي نقل الميكينيون طرازها في البداية عن كريت . بدأت تظهر مكانها سيوف أخرى من طراز مستقل تصلح للقطع والطعن معا ، وبظهورها حلت الخوذة المعدنية محل الخوذة الجلدية لتقابل التحدى الجديد . ثم لم تلبث هذه السيوف بدورها أن بدأت في الاختفاء لتحل محلهـا الحراب التي اصبحت في القرن الثالث عشر ق . م هي السلاح الأساسي للمحارب .

هذه هي بعض النماذج ، أوردتها على سبيل المثال لا الحصر، لنرى

كيف بدأت الحضارة الميكنية تتخلص من الأثر الكريتي لتفرد بشخصية متبلورة مستقلة . وقاد صاحب هذا التحوّل الاستقلالي الحضاري ارتياد في قوة ميكيني كما ذكرت في مناسبة قريبة وظهرت هذه القوة بشكل واضح سواء في علاقة ميكيني ببلاد اليونان أو في اتصالاتها بالبلاد الخارجية . فمن الناحية الداخلية نجد مناظر في الملحمتين المنسوبتين إلى هوميروس تشير إلى نوع من الولاء يربط الملوك والامراء في البلاد اليونانية المختلفة بالبيت المالك في ميكيني . وأودّ أن اشير في هذا الصدد إلى حقيقتين : وهما أن العلاقة أو الرابطة بين حكام المدن اليونانية وبين ملك ميكيني ، مهما كانت طبيعتها قوة أو ضعفا ، كانت كافية في العصر الهوميري (الذي عاصر شوطا من الحضارة الميكينية) لأن يستجيب هؤلاء الملوك لنداء ملك ميكيني ويندرجوا تحت لوائه في مشروع عسكري واحد (هو حصار طرواده) تحت قيادة موحدة تقع ضمن حقوقه الأدبية ، حتى اذا افترضنا أنها لم تكن لها قوة لإلزام . والنقطة الثانية هي الشوط الذي شهده العصر الهوميري من هذه الحضارة كانت تقارب فيه لحظة افولها ومن ثم لا يمكن أن يرسم في الحقيقة إلا صورة للقوة وللسيطرة الميكينية وهي في فترة تخلخلها .

وعلى أيّ الاحوال فهناك شاهد يشير إلى مدى هذه السيطرة وهي في فترة الذروة . هذا الشاهد هو العدد الكبير من الطرق المهدة التي شقت لتصل بين ميكيني وأماكن تبتعد كثيرا عن هذه المنطقة ، والتي كانت تعبر الأنهار التي تعترضها بمساعدة جسور ، كما تتغلب على التلال التي تقف في طريقها بمساعدة ممرات أقيمت أو بنيت خصيصا لهذا الغرض . ففي الشمال مثلا كانت تمتد طرق ثلاثة تصل ميكيني بالحصون الموجودة في مضيق كورنثه اثنتان منهما تلتقيان عند كليوني Cleonae والثالث يصل إلى تنيه Tenea . وعبر هذا المضيق من الشمال

كانت الطرق تمتد حتى حصون بويوتيه Boetia كما وجـدت في الجنوب آثار طريق تمتد إلى المنطقة التي اقيم عليها فيما بعد معبد الالهة هيرا Hera . ونستطيع أن نرجح ، قياساً ، أن طرقا أخرى كانت تربط ميكيني ببقية المناطق التي تحف بسهل أرجوس .

وإلى جانب هذا الدليل الذي يرجح امتداد سيطرة ميكيني إلى عدد من مناطق بلاد اليونان ، فهناك شواهد كثيرة تشير إلى انتشار حضارة هذه المدينة إلى عديد من المدن اليونانية . ففي أثينة وجدت أثار قصر وحصن ومقبرة وكلهاذات طابع ميكيني ، وفي أورخومينوس Orchomenos وجدت مقبرة على النمط الميكيني ، وفي مسينيه وكورنثه والمـدن الواقعة في غربي بلاد اليونان وجدت آثار مشابهة تدل على مدى تأثر هذه المناطق بالحضارة وطرق الحياة التي كانت ميكيني مبعث اشعـاع لهـا .

هذا عن سيطرة ميكيني والحضارة الميكينية على بلاد اليونان الاصلية (الأوروبية) . ولنختم الحديث عنها بإلقاء نظرة سريعة على اتصالاتها خارج هذه المنطقة ، سواء أكان هذا في المناطق التي تحف ببحر إيجه أو التي تبعد عن دائرته . وفي هذا المجال نجد أن انتشار الانية الخزفية الميكينية يرسم أمامنا طريق انتشار قوة ميكيني والحضارة التي كانت تمثلها . وقد وصلت حدود هذا الانتشار غربا إلى صقلية وجنوبـي ايطاليه ، كما نجد أن البضائع اليونانية في العصر الميكيني قد بدأت بعد سقوط كنوسوس تجد طريقها شرقا في كميات متزايدة : فالمزهريات اليونانية التي كانت قد بدأت تصل إلى مصر في القرن الرابع عشر ق.م. وجدت كميات منها في منطقة تل العمارنة ترجع إلى الربع الثاني من هذا القرن ، وبوفرة تشير إلى احتمال استيطان اليونان الوافدين مـن بلاد اليونان الأصلية لجزيرتي رودس Rhodos وكوس Kos في

شرقي بحر إيجه وعلى استيطانهم أو على الاقل انتشارهم على نطاق واسع في جزيرة قبرص . كما يوجد احتمال بانتشار هؤلاء اليونان في آسيه الصغرى في منطقتي كاريه Karia وبامفيليه Pamphylia ؛ هذا إلى جانب هجرتهم إلى منطقة أوجاريت Ugarrit (رأس الشمسرة حاليا) في سورية وإقامتهم هناك في هيئة جالية اجنبية وهي جالية ربما أسسها الكريتيون في فترة مبكرة من القرن الخامس عشر ق . م ولكنها لم تلبث أن بدأت تشهد تدفق اليونان عليها بشكل متزايد .

هذا ولم يكن الانتشار بالطريقة المذكورة هو اللون الوحيد الذي اتخذته الاتصالات اليونانية الخارجية في العصر الميكيني فقد كانت هناك كذلك علاقات سياسية بين اليونان وبين الحيثيين . كما تدلنا على ذلك مجموعة من الوثائق الامبراطورية الحيثية . هذه الوثائق تشير بشكل متكرر إلى ملك أهياوه Ahiyyawa وعلاقته بالملك الحيثي . والنصوص التي وردت فيها الاشارات تدل على أن مملكة أهياوه هذه تقع عبر البحار أو على أحد السواحل ويكاد يجمع كل الباحثين على ان كلمة اهياوه هي التحريف الحيثي لكلمة آخيين وهو الاسم الذي سمى به اليونان في الاشعار المنسوبة إلى هوميروس .

واهم ما في هذه الوثائق هو الاسلوب الذي كتبت به والاتجاه الذي يشير اليه هذا الاسلوب . فملك الحيثيين الذي كان حاكم امبراطورية قوية تعدّ من القوات العالمية بمفهوم ذلك العصر يخاطب ملك الأهياوه بلقب «الاخ» وفي شيء من الاحترام . وفي بعض هذه الوثائق نجد الملك الحيثي يعترف بأن ملك الاهياوه ملك عظيم يقف على قدم المساواة مع ملوك مصر وميتاني وآشور . كذلك تشير هذه الوثائق إلى أن اخاً لملك الأهياوه كان يحكم منطقة في القسم الجنوبي الغربي من آسيه الصغرى وإن كان عليه أن يسير حكمه لهذه المنطقة

منحة من ملك الحيثيين . وفي وثائق أخرى نرى مفاوضات دائرة في تعثر احيانا وفي توافق احيانا أخرى بين الملكين . وآخر ما نسمعه عن هذه العلاقات هو احتجاج من جانب الملك الحيثي على ملك أهياوه على أثر غارة قام بها الآخيون على قبرص في أواخر القرن الثالث عشر ق . م [٢] .

وهكذا تظهر لنا هذه المجموعة من الوثائق أن ملك الاخيين قد امتد نفوذه إلى مناطق واسعة في شرقي البحر المتوسط . كما تشير بشكل ما إلى ان هذا الملك كان يعد مسؤولا عن الاعمال الاستفزازية التي كان يقوم بها غيره من الحكام الآخيين (اليونان) وهو امر تستطيع أن تفسره بان ملك ميكيني كان اقوى ملوك اليونان في الفترة التي شهدت علاقة الحيثيين باليونان ، والتي امتدت من القرن الرابع عشر ق . م. حتى نهاية القرن الثالث عشر ق . م . وأن هذا الملك كان له نوع من السلطة السياسية على بقية بلاد اليونان ، وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد كنه هذه السلطة أو حدودها .

ج ـ انحدارها وغروبها

على أن القوه الميكينية ، ومعها قوة اليونان ، لا تلبث أن تبدأفي الغروب ابتداء من اواسط القرن الثالث عشر ق. م . ونجد مظاهر ذلك في انكماش الاتصالات التجارية اليونانية مع الشرق ، كما نجد الجاليات اليونانية المستوطنة في عدد من المناطق تتضاءل ثم ينعدم اثرها بالمرة : ففي ميليتوس Miletos وكولوفون Kolophon نجد فجوة زمنية واسعة بين استيطان اليونان لها في العصر الميكيني واستيطانهم لها

(٢) Gurney, O.R. : The Hittites (Pelican ed.), pp. 47-50

مرة أخرى في عصر متأخر . وتبدو هذه الفجوة الزمنية أكثر وضوحاً في رودس حيث يبدو أن مستوطنيها من يونان العصر الميكيني قد هاجروا منها بالجملة ربما إلى قبرص . وقد استمرّت هذه الفترة من التدهور اليوناني في القسم الشرقي من البحر الابيض حتى القرن الثامن ق . م .

أما مدينة أو دولة ميكيني نفسها فقد بدأت ، هي الأخرى، في الاضمحلال والتدهور منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الثاني عشر ق . م . ولعلّ مما يشير إلى ذلك اننا نجدها في القرن الثالث عشر تزيد تحصيناتها الدفاعية وتبدأ في الاهتمام بحماية مواردها المائية. كما أن هناك احتمال بأنها أقامت صومعة كبيرة لتخزين الغلال كإجراء وقائي اذا حدث أي هجوم على المدينة . ولعلّ ما حدث في حالة ميكيني حدث مثله في أماكن أخرى من بلاد اليونان . إذ نشاهد في هذه الفترة استعدادات تحصينية مشابهة في حصن الأكروبوليس في أثينه .

وفي هذه الفترة من الغروب أو التدهور نستطيع أن نضع من الناحية التاريخية حصار اليونان لطروادة الذي خلّده شاعر الإلياذة في ملحمته كومضة اخيرة من ومضات الصراع اليوناني في سبيل القوة الخارجية، وفي وقت كانت فيه قوتهم قد شارفت نهايتها من الناحية الفعلية .

وفي الواقع فإن حصار طروادة الذي خلّدته هذه الملحمة المنسوبة إلى هوميروس ، بما كان يرمز إليه من استخدام القوة في سبيل التوسع الخارجي هو آخر منجزات الحضارة الميكينية . ولكن يبدو أن هذا النوع من النشاط الخارجي قد جاء في وقت لم يكن فيه لدى أصحاب الحضارة الميكينية كل مقوّماته ، ومن ثمّ فقد أرهقهم وفتّت قواهم اكثر مما زاد

في سيطرتهم وصلابتهم . ولعل خير دليل على ذلك هو أن ملحمتي الإلياذة والأوديسة اللتين تغنى بهما اليونان واتخذوا منهما علامة فخر في تاريخهم لا يذكران لنا ان القوات اليونانية (أو الآخية كما يسميها شاعر الملحمتين) حققوا بقاء يونانيا في طروادة ، وانما عاد اليونان أدراجهم بعد سقوط طروادة كلّ إلى منطقته أو مدينته التي أتى منها ، وكلّ بطريقته الخاصة كما يذكر لنا الشاعر في ملحمة الأوديسة التي خصصها لمغامرات أوديسيوس وهو احد هؤلاء القادة الآخيين في طريق عودته إلى مقرّ ملكه ولا نحسّ بعد عودة هؤلاء الملوك أو القادة بأن وحدة ما تجمعهم كما جمعتهم وحدة التصميم على غزو طروادة وإسقاطها قبل ذلك ، وانما كلّ منهم يحاول ان يرتّب أموره في دولته دون ان يدرى عن الاخرين شيئا ودون ان يعنيه من أمر الاخرين شيء(٣) .

في ذلك الوقت الذي انتهى حوالي ١١٠٠ ق . م بدأتْ تتدفق على بلاد اليونان (الواقعة في الجزء الجنوبي من شبهجزيرة البلقان) موجات عارمة من الغزاة والمهاجرين المسلحين من الشمال . هؤلاء هم قبائل الدوريين الذين انقضّوا على أماكن الحضارة الميكينية وعلى ما تبقى من مراكز الحضارة المينويه : فدمروا كل شيء وحطموا كل شيء ودفعوا أمامهم كل شيء ، وادّت هجراتهم هذه المندفعة من الشمال إلى هجرات اخرى فرعية قام بها الذين فروا أمامهم من اهل البلاد الأصليين في بلاد اليونان ، فهاجروا عبر بحر إيجه شرقا حتى وصلوا إلى الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى واستقروا هناك .

وقد كان من جراء هذا الغزو الدورى الذي استمر حتى ١٠٠٠

(٣) Homeros: Od., I, 284-8; III, 184-200

ق . م وما ترتب عليه من القضاء على مراكز الحضارة الموجودة آنذاك أن دخلت المنطقة في عصر من الظلام نسيت فيه منجزاتها الفنية والثقافية وحتى حروف الكتابة التي كانت تستخدمها ، وخرجت السيطرة البحرية في بحر إيجه من يد اليونان إلى يد الفينيقيين . وتخلخلت سلطة البيوت الحاكمة القديمة وأصبح النظام السائد في المجتمع اليوناني يقوم على أساس من التجمعات السكانية القبلية أو أو القروية . وقد امتدت هذه الفترة من عهود الظلام من ١٠٠٠ إلى ٨٠٠ ق . م .

الباب الخامس

عصر دولة المدينة : مرحلة الظهور

تمهيد

اندثرت الحضارة الميكينية ، إذن ، حوالي ١٠٠٠ ق .م . نتيجة لغزو القبائل الدورية الذي بدأ قبل ذلك بقرن تقريبا . وكانت نتيجة هذا الاندثار ، كما رأينا ، فترة من التخلخل والتخلّف سادت أرجاء المجتمع اليوناني لمدة قرنين من الزمان حتى ٨٠٠ ق . م . ولكن رغم كلّ مساوئ هذه الحقبة المظلمة . فإنها أتاحت للمجتمع اليوناني الفترة الزمنية اللازمة لاستيعاب العناصر الجديدة التي جاءت من الشمال وما كان لابدّ أن يتلو ذلك من امتزاج بين العناصر السكانية القديمة وهذه العناصر الجديدة ، بما يعنيه ذلك من صراع وتداخل وتفاعل أدت في النهاية إلى قيام مجتمع جديد .

وقد اتخذ هذا المجتمع الجديد التكوين الذي عرف بنظام « دولة المدينة » الذي لا تصبح فيه كل بلاد اليونان كيانا سياسيا واحدا ، وإنما تصبح فيه كلّ منطقة منه كيانا مستقلا قائما بذاته له كلّ أبعاد الدولة ، ويكون محوره ، عادة ، مدينة واحدة يحيط بها امتداد من

الأراضي تختلف مساحته من حالة لأخرى وتتناثر فيه مجموعة من الضواحي أو القرى وقد توجد فيه ميناء صغيرة أو اكثر اذا كانت المنطقة تطلّ على البحر . وقد رأينا في حديث سابق أن الظروف الجغرافية التي جزأت بلاد اليونان إلى مناطق منعزلة أو شبه منعزلة هي التي أدت إلى ظهور هذا التكوين . كما رأينا كذلك أن هذه الظروف نفسها هي التي وضعت أمام نظام دولة المدينة إمكانية التطوّر من نظام الحكم الفردي إلى نظام الحكم الشعبي الذي عرفته بلاد اليونان في عدد كبير من أقسامها ، وهو نظام وصل إلى مرحلة من النضج يصبح معه المجتمع بأكمله هو صاحب السلطة الفعلية في تصريف أموره [١] . بل أكثر من ذلك فإن النظام الشعبي لم يكن مجرّد نظام نيابي يحكم فيه الشعب بشكل غير مباشر من خلال أشخاص يمثلونه وينوبون عنه. وإنما كان نظاما شعبيا مباشرا يشترك فيه كلّ من يريد من المواطنين ممارسة كافة السلطات بشكل مباشر .

وهنا يقفز إلى السطح تساؤل يطرح نفسه بشكل محدّد : لماذا توصّل نظام دولة المدينة في بلاد اليونان إلى مرحلة الحكم الشعبي دون أن يتوصّل إلى ذلك غيرهم ممن عاصروهم أو سبقوهم . لقد عرفت بعض حضارات الشرق الأدنى القديم نظام دولة المدينة . عرفته . على سبيل المثال المدن السومرية في المنطقة الجنوبية من وادى الرافدين ؛ كما عرفته المدن الفينقية على الساحل السوري، ولكن كلا من المدن السومرية والمدن الفينقية لم تصل في تطوّرها على طريق الحكم الجماعي إلى أكثر من حكم طبقي تسيطر عليه الأقلية الثرية . سواء أكان مصدر هذه الثروة هو الموارد الزراعية أو النشاط التجاري . والإجابة على هذا

(١) راجع الباب الثاني من هذه الدراسة .

التساؤل تكمن في ، تصوري ، في الظرف التاريخي الذي أحاط بالمجتمع اليوناني خلال المرحلة التكوينية أو مرحلة النمو التي مر بها هذا المجتمع حتى تبلورت ملامحه ككيان سياسي متكامل ، وهو العصر الذي ينتهي بنهاية القرن السادس ق . م .

١ ـ الظرف التاريخي وظهور نظام دولة المدينة

وقد كان الظرف التاريخي الذي أحاط بالمجتمع اليوناني خلال الفترة التي شهدت ظهور نظام دولة المدينة وتطور هذا النظام حتى وصل إلى نهايته المنطقية في صورة الحكم الجماعي الشعبي ـ كان هذا الظرف مواتيا فعلا ، على عكس ما حدث في حالة المدن السومرية والمدن الفينيقية . ففي حالة المدن السومرية لم يلبث التوسع الذي قامت به مدينة بابل (الواقعة على حدود منطقة سومر) أن أطاحت بنظام دولة المدينة في هذه المنطقة لتدخلها ضمن تكوين سياسي كبير (على عهد الملك البابلي سرجون الأول ٢٣٧١ ـ ٢٣١٦ ق . م .) يقوم على أساس الحكم المركزي إلى حد كبير . الأمر الذي يقف بالضرورة عائقا في طريق التطور نحو الحكم الشعبي . والشيء ذاته نجده بتفاصيل أخرى في حالة المدن الفينيقية التي لم تتح لها فرصة التطور الكامل نحو الصيغة الشعبية للحكم بسبب التعرض لظروف الغزو أو الاجتياح الخارجي من جانب القوات الكبيرة التي أحاطت بالمنطقة السورية ، سواء في ذلك المصريون أو الآشوريون أو الفرس .

أما في حالة المجتمع اليوناني فقد كان الظرف التاريخي مختلفا . حقيقة أن العصر الذي واكب ظهور نظام دولة المدينة في بلاد اليونان (وهو العصر الذي انتهى مع نهاية القرن السادس ق . م .) شهد قيام عدد من الإمبراطوريات ، التي سيطرت عليه إلى شواطىء القسم الشرقي للبحر المتوسط وطوقت هذا القسم بشكل كامل أو جزئي : وهي

الامبراطوريات الحيثية والمصرية والآشورية . ولكن هذه الامبراطوريات جميعا لم تحاول أن تمد حدود سيطرتها عبر شواطىء هذا القسم من البحر المتوسط وانما كانت جميعها ، بصفة أساسية ، إمبراطوريات برية اقتصر نشاطها التوسعي الحقيقي على الامتدادات الآسيوية والإفريقية الموجودة في هذه المنطقة وشدتها ظروفها التاريخية إلى التحرك داخلها بحكم مركز الثقل الحضارى الذي كان لا يزال فيها في تلك الآونة . وقد كانت النتيجة التي ترتبت على ذلك هي أن المجتمع اليوناني الذي كان لا يزال إذ ذاك في فترة التكوين أو النمو ، أصبح بحكم هذا الظرف التاريخي في مأمن أى خطر توسعي قد يطمس حركة نموه السياسي أو يعرقلها . وهكذا توفرت لهذا المجتمع في مجال تطوّر نظمه السياسية كل امكانيات الحركة اللازمة لهذا التطور .

ولكي تدرك هذا الوضع المواتي للمجتمع اليوناني يكفي أن تلقي نظرة سريعة على الخطوط العامة التي سارت فيها القوات المذكورة في مجال نشاطها التوسعي ، ولنبدأ بالحديث عن الامبراطورية الحيثية ، اقرب هذه القوات إلى بلاد اليونان من الناحية المكانية . لقد قامت دولة الحيثيين في آسيه الصغرى ولكنها حين اتجهت نحو التوسع لم تتجه غربا نحو بلاد اليونان وإنما كان خط توسعها نحو الشرق والجنوب . ففي عهد الامبراطورية الحيثية الأولى استولى الحيثيون على بابل في وادى الرافدين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق . م . وبعد أن سقطت هذه الإمبراطورية وأسس الملك شوبيلوليوما الإمبراطورية الحيثية الثانية اتجه في توسعه نحو سورية (بعد أن كانت سيطرة مصر على هذه المنطقةقد ضعفت تحت حكم أخناتون) ثم أعقب ذلك بالاتجاه شرقا حيث تغلب على قوة ميتانى وآشور التي كانت تابعة لها في أواسط القرن الرابع عشر ق . م .

وقد كانت ظروف الحيثيين تدفعهم دفعا نحو الشرق والجنوب بعيدا عن البحر وعن بلاد اليونان . فقد جرّهم اتجاههم التوسعي إلى الالتحام مع المصريين بعد ١٣٠٠ ق . م بوجه خاص في عهد الملكين المصريين سيتي الأول ورمسيس الثاني . كذلك نجد هذه الظروف تتضاعف وتتأكد بعد أن عاد الآشوريين إلى الظهور في ذلك الوقت، هذه المرة كقوة يخشى بأسها وهنا نجد الملك الحيثي حاتوسيل يوجّه نشاطه بشكل ظاهر إلى تأمين موقفه مرة في الشرق كما تدل على ذلك رسالته التي ارسلها إلى ملك بابل يحثه فيها على مهاجمة الآشوريين من الخلف ، ومرة في الجنوب حيث نجده يعقد معاهدة سلام مع الملك المصرى رمسيس الثاني في ١٢٦٩ ق . م عبر الطرفان عن ترحيبهما بها بأكثر من طريقة . (٢)

الامبراطورية الحيثية ، اذن ، كان اتجاهها نحو الشرق والجنوب بحكم مركز الثقل الحضاري الذي كان يتركز في مصر جنوبا ووادى الرافدين شرقا ، والذي كان يشد حكام هذه الامبراطورية بالضرورة نحو تجاذب مجال النفوذ داخل المثلث الحضارى الذي تدور اضلاعه حول النيل والفرات وهضبة آسية الصغرى وحتّى النصوص الحيثية

---

(٢) لعل خير ما يصور نشاط الظروف التي نمدت اهتمام الحيثيين بشكل اساسي الى هذين الاتجاهين ان يعتبر البيت المالك الحيثي هذه المعاهدة فرصة ابتهاج واسع وصل الى حد اشهاد الف من آلهة الحيثيين والف من آلهة المصريين على نص المعاهدة ، وتبادل الملكتين الحيثية والمصرية التهانيء بعقد المعاهدة ، ثم زيارة الملك الحيثي لمصر بعد ذلك بعدة سنوات، ومعه هدية كبيرة ، لتقديم ابنته زوجة للملك المصري كتدعيم للعلاقات السلمية بين البلدين – راجع :

Breasted, J.H. : A History of Egypt (Bantam Classic Edition, 1964), pp. 368-9; Id., : Ancient Times (2nd ed., Boston, 1944), pp. 250-1.

التي تشير إلى ما اسماه الحيثيون بمملكة الأهياوة Ahiyyawa (وهو اسم يعتقد بعض الباحثين انه يشير إلى الاخيين ، أو اليونان حسب التسمية التي اطلقت عليهم في الاشعار المنسوبة إلى هوميروس) لاتشير إلى ايّ صدام ذى قيمة بين الحيثيين واليونان ، بل على عكس ذلك تميل إلى أن تعكس اتجاها لا يشجع التشاحن بقدر ما يستهدف إقرار السلام بينهما . وعلى أيّ الأحوال فإن مملكة الأهياوة ، حتى على افتراض أنها تشير فعلا إلى الاخيين أو اليونان حسب تسميتهم الهوميرية تقع حسب أقرب الفروض إلى الصحة ضمن المهجر اليوناني على الشواطىء الغربية لآسية الصغرى أو على إحدى جزر إيجه وليست ضمن بلاد اليونان الأصلية[٣] .

هذا ومن الجهة الأخرى ، فان الفترة التي كانت الملامح السياسية للمجتمع اليوناني قد وصلت فيها إلى مرحلة التبلور كانت قد بدأت تشهد في الوقت ذاته اضمحلال الامبراطورية الحيثية وبداية تصدعها. امّا عن القوتين الاخريين اللتين اعقبتا سقوط الامبراطورية الحيثية وكان مجال سيطرتهما القسم الغربي من شبه جزيرة آسيه الصغرى وهما فريجيه Phrygia وليديه Lydia فلم يسجل التاريخ ايّ صدام بينهما وبين العالم اليوناني . بل اكثر من ذلك فان ليديه التي كانت تمد نفوذها على أغلب المدن اليونانية الآسوية كانت سياستها تتسم بشيء كثير من الودّ نحو هذه المدن ومن التقدير لحضارتها .

وكما انحصر النشاط التوسعي والدفاعي للحيثيين في المثلث الحضاري الشرقي كذلك كان الحال فيما يخص المصريين . ففي عهد تحتمس الثالث (النصف الأول من القرن الخامس عشر ق . م .) نجد هذا

---

(٣) راجع الباب الرابع من هذه الدراسة .

الملك يركز نشاطه العسكرى الخارجي على سوريه بوجه خاص علـى أساس أنها الخط الدفاعي الأول عن مصر . واذا كانت النصوص تشير إلى نشاط لهذا الملك في جزر بحر إيجه فان هذا النشاط ربما لم يـزد كثيرا عن تذكير حكام هذه الجزر بالقوة المصرية أو الحصول علـى ضرائب منهم في الوقت ذاته) وهي جزر تشكل منطقة يمكن أن يعتبرها الملك المصرى امتداداً بحريا لتأمين حدود مصر في الشمال(٤) .

وحين عاد المصريون إلى النشاط التوسعي الخارجي بعد ان كـان قد خبا في عهد اخناتون نجد رمسيس الثاني (القرن الثالث عشر) يوجه حملاته شمالا وشرقا نحو حدود آسيه الصغرى حيث القوة الحيثيـة وشرقا نحو الفرات . وقد مرّ بنا موقف التعادل بينه وبين الملك الحيثي الذي عقد معـه معاهدة سلام لقيت من الترحيب من الجانب المصري مثلما القيته من الجانب الحيثي – وهو موقف يشير إلى حدود المنطقة التي كانت تشدّ اهتمام السياسة الخارجية والعسكرية المصرية .

وحين حدث وتعرضت مصر لهجوم من ناحية بحر إيجه من جانب بعض المجموعات التي اطلق عليها المصريون اسم شعوب البحر (وكان

---

(٤) يرد ذكر تحوتي ، أحد القواد العسكريين في عهد تحوتمس الثالث ، مقترنا بالحصول على قدر كبير من الضرائب من هذه الجزر ، وقد فسر برستد هذا النص بأن هذا القائد كان حاكما لهذه الجزر ، اما دريوتون وفانديه فيرون ان هذا القائد ربما كان رئيسا لاحد الوفود المصرية التي كانت تذهب الى هذه الجزر بهدف اظهار القوة المصرية .
راجع عن الرأيين على التوالي :

Breasted: Ancient Times, p. 108; Drioton, E. et Vandier, J. : L'Egypte (Presses Universitaires de France, Paris, 4ème éd., 1962), p. 406.

من بين هؤلاء مجموعات يرجح أنها من اليونانيين) فإن المصريين لم يحاولوا تتبعهم بهجوم مضاد يخرج باتجاه نشاطهم السياسي والعسكرى عن حدود المثلث الحضارى السالف الذكر وانما اكتفت السياسة المصرية في المرتين اللتين تعرضت فيهما لهذا الهجوم (أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الثاني عشر ق . م) بموقف ينتهي بصد الغارات التي قامت بها هذه الشعوب .

وقد انهارت الامبراطورية الحيثية الثانية نحو نهاية القرن الثالث عشر ق . م . وجاء انهيار الامبراطورية المصرية بعد ذلك بنصف قرن تقريبا (اواسط القرن الثاني عشر) . وورث الآشوريون مركز القوة في المثلث الحضارى بعد هما . ولكن هنا ايضا نجد الآشوريين لايتجهون بنشاطهم التوسعي خارج المنطقة ففي فترة المد الامبراطورى الاشورى (اواسط القرن الثامن إلى اواخر القرن السابع ق . م) . نجد ملوكهم يبدأون باخضاع بابل في وادى الرافدين ثم يثنون بالمنطقة السورية ثم يستولون على قسم من آسية الصغرى ويوجهون غاراتهم على بقية شبه الجزيرة . ولكنهم حتى حين تصل غاراتهم إلى المدن اليونانية على الساحل الغربي لآسيه الصغرى لا يدفعون بهذه الغارات عبر البحر . وإنما يكتفون بذلك ويعاودون نشاطهم العسكرى سواء في الاتجاه الشرقي لإعادة إخضاع بابل أو في الاتجاه الجنوبي بهدف مهاجمة الأراضي المصرية .

٢ ـ نظام دولة المدينة في مرحلة التكوين

إذا كان نظام دول المدينة كصيغة سياسية . بكل ما يتصل به من أوضاع اقتصادية واجتماعية لم يظهر في المجتمع اليوناني بشكل محدد إلا منذ أوائل القرن الثامن ق . م . . فإن القرنين السابقين لهذا التاريخ

وهما القرنان العاشر والتاسع ق . م . شهدا الفترة الممهدة والمؤدية إلى ظهور هذا النظام . لقد بدأ القرن العاشر ، كما أسلفت في حديث سابق ، وبلاد اليونان تمرّ بحقبة من التخلخل والتخلف الذي جاء نتيجة طبيعية لغزو القبائل الدورية الذي أصاب المجتمع اليوناني بشيء كثير من التدمير والتخلخل . ولكن هذا الوضع مالبث أن بدأ في الانحسار بعد أن أخذت الأمور تستقر بصورة أو بأخرى في هذا المجتمع . ففي بعض المناطق (مثل تساليه وأرجوليس ولاكونيه وكريت) جعل الغزاة الدوريون (الآتون من الشمال) من انفسهم طبقة حاكمة بعد أن حوّلوا السكان الأصليين في هذه المناطق إلى طبقة من الأرقاء أوعبيد الأرض بشكل أو بآخر . ولكن في أغلب المناطق استقر الغزاة إلى جانب السكان الأصليين من أهل البلاد وبالتدريج أخذوا يندمجون معهم ليتوصل المجتمع الجديد إلى صيغة من التعايش والتنظيم يستطيع من خلالها أن يتابع مسيرته .

وقد كانت الصيغة الأولى التي استقرت عليها مناطق المجتمع الجديد هي تجمعات سكانية synoikismoi قبلية في تكوينها ، وكان كل تجمع من هذه التجمعات القبلية يتكون من مجموعة من الملاّك الكبار للأراضي الزراعية والرعوية الذين يحيط بهم أتباعهم ، وكان صاحب أكبر مساحة من الأراضي يرأس التجمع القبلي الذي يوجد فيه ، ويتخذ لقب الملك basileus . كما كان يوجد ، إلى جانبه ، مجلسان أحدهما يضم الأعيان أو الأرستقراطيين من رؤساء القبائل والعشائر ومجلس آخر للعامة من سكان التجمع . وكان الملك يضمّ في يديه من الناحية الرسمية كل السلطات : فهو الذي يقود أي تعبئة عسكرية ، وهو مصدر التشريعات والقائم على الأمور التنفيذية ، وهو الكاهن الأعلى للمنطقة . يشاركه مجلس الأعيان بصور متفاوتة من السلطة حسب قوة الملك أو قوة هؤلاء الأعيان ، أما مجلس العامة فلم يكن له في الحقيقة

أكثر من العلم بمجريات الأمور والموافقة على ما يتوصل إليه الملك ومجلس الأعيان (أو الأرستقراطيين) من قرارات .

على أن الدور الأساسي الذي قام به الملوك هو محاولة الربط بين هذه التجمعات القبلية بشتى الوسائل الأمر الذي مهد الطريق لقيام المدن التي أخذ مفهومها يتطور تدريجيا بحيث أصبح مفهوم لفظه المدينة polis لا يعني مجرد مكان أو مساحة من الأرض تسكنها مجموعات من السكان تتجاور مع بعضها ولكنها لا تتكامل أو تتكافل فيما بينها ، وإنما بدأ يقترب كثيرا من معنى النظام السياسي الذي ينظم سكان المدينة ويحدد حقوقهم وواجباتهم والروابط التي تربط بينهم في كافة المجالات .

ونحن نستطيع في الواقع أن نتصور أن الواقع المعيشي بين التجمعات السكانية القبلية المتجاورة هو الذي طرح مسألة الترابط بين هذه التجمعات . فبلاد اليونان تتكون من مجموعة من التكوينات الجبلية والسهلية والساحلية . وأية منطقة من المناطق التي ينقسم إليها سطح هذه البلاد غالبا ما تضم اثنين من هذه التكوينات، إن لم تكن تضم الأنواع الثلاث فعلا كما هو الحال في منطقة أتيكه Attika (التي أصبحت أثينه Athenae هي مركزها السياسي) . ومن الطبيعي أن كلا من هذه التكونيات أو التقسيمات الداخلية (الجبلية والسهلية والساحلية) له ميزاته واحتياجاته. فالأماكن الجبلية لها، بحكم تكوينها التضاريسي ، ميزات دفاعية وهجومية تفتقر إليها الأماكن السهلية ، ولكنهـا في الوقت ذاته لا تصلح إلا للرعي الفقير ، وتفتقر إلى المراعي الغنية والأراضي الزراعية التي تتميز بها السهول . والأماكن الساحلية . إن وجدت ، إذا كانت تحتاج إلى نتاج المناطق السهلية لتستكمل به مواردها المعيشية المحلية التي تقوم أساسا على الصيد وإلى النقاط الدفاعية التي تميز

بها المناطق الجبلية . فإنها (أي الأماكن الساحلية) تشكل المنفذ الطبيعي لأية هجرات أو تعامل تجاري مع الخارج وهكذا.

وفي ضوء هذا الوضع المتكامل يصبح من السهل أن ندرك أن — التجمعات السكانية التي وجدت في هذه التقسيمات الداخلية للمناطق المختلفة التي كانت تشكّل بلاد اليونان ، قد رفعت سكان هذه التقسيمات إلى ما يمكن أن نسميه تعاملا أو « حوارا » يكون عنيفاً في بعض الأحيان وليناً في أحيان أخرى ولكنه قائم دائماً، ما دامت حاجة كلّ تقسيم إلى التقسيمات الأخرى قائمة ؛ سواء أكانت هذه الحاجة جلبا لمنفعة أو درءاً لخطر . ومن هنا فإنّ فكرة الاتحاد أو التوحيد بين هذه التقسيمات في كلّ منطقة تصبح فكرة واردة ، ولايهمّ بعد ذلك أن تتّم محاولات هذا الاتحاد أو التوحيد بطريق العنف أو السلام . ولنا، في هذا الصدد ، أن نتصّور أن ملوك بعض التجمعات السكانية في المناطق المختلفة وهم يحاولون ، كلّ في منطقته ، أن يربطو بين هذه التجمعات وبعضها ، بحيث تتحول كلّ مجموعة من هذه التجمعات السكانية إلى مدينة صغيرة تتسع تدريجيا بتعدد محاولات التوحيد ، وأن مثل هذه المحاولات قد تمرّ بفترة ، تطول أو تقصر ، من التجربة والخطأ ، قبل أن تصل إلى تحقيق التوحيد النهائي للمنطقة .

كذلك فإن لنا أن نتصور أن الملك الذي يرأس التجمع السكاني الذي أخذ على عاتقه مهمة توحيد أية منطقة هو الذي سيصبح ملكاً للمدينة التي تقوم فيها ، وأن الدور الذي قام به هؤلاء الملوك في هذا المجال كان لا بدّ أن يؤدّي إلى ازدياد تركيز السلطة في أيديهم، فالسلطة المركزية هي التي تلائم هذه المهّمة — وهي مهّمة توحيد وتركيز قبل كل شيء وفوق كل شيء . وهذا التصّور نستنتجه في الواقع من أن الملك يظهر لنا في عديد من النصوص وكأنه صاحب حقّ إلهي في

العرش فالآلهة هي التي تسانده وكبير الآلهة هو الذي يمنحه صوبجان المُلْك .

هذا ، إذن ، هو التطور الأساسي الذي تم في عصر الحكومات الملكية ، وهو تطوّر خطت فيه المدينة خطوات واسعة على طريق التحول من مجرّد مفهوم مكاني يعطي معنى التجاور السكاني فحسب ، إلى مفهوم سياسي يعطي معنى الانتماء التنظيمي بكل ما يعنيه هذا من روابط وحقوق وحدود بين سكان المدينة . ونحن نستطيع أن نلمس في وضوح هذا التحول في وضع المدينة من المفهوم المكاني إلى المفهوم السياسي من بين سطور الالياذة والاوديسية . وهما الملحمتان المنسوبتان إلى هوميروس واللتان تعتبران مصدرا اساسيا لجوانب عديدة من حياة اليونان في الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والثامن ق . م . ان الصور والانطباعات التي تعطيها لنا هاتان الملحمتان تصوّر لنا التأرجح بين التكوينات الاجتماعية الصغيرة القديمة وبين التكوين السياسي الجديد الذي اصبحت فيه المدينة تحل إلى حد كبير محل هذه التكوينات . فمن جهة ، نجد ان النزعة الضيقة التي كانت فيها الجماعات التي تسكن المدينة لا تزال تدور حول نفسها تظهر من حين لآخر في كلام الشاعر ، فالدور الذي تقوم به القبائل والعشائر المكوّنة للمدينة في هذه الفترة كان واضحا بشكل مبالغ فيه مما يدل على ان عملية الربط بينها كانت لا تزال في سبيلها نحو الاستكمال . ويظهر هذا جليًا في اكثر من صورة ، من بينها ، على سبيل المثال أن هوميروس يستخدم كلمة مدينة polis في غير قليل من المواضع بالمفهوم المكاني المحض وليس بالمفهوم السياسي . ومن بينها كذلك ان الاسطول المشترك الذي أبحر فيه اليونانيون من بلاد اليونان إلى طروادة (في الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة آسيه الصغرى) اشتركت فيه المدن اليونانية بشكل يبرز فيه التكوين

القبلي لها . فعند اسهام مدينة معينة بعدد من المراكب ، كانت كل قبيلة من القبائل المكونة لها تقدم عددا مساويا للذي تقدمه كل من القبائل الاخرى ، والشيء ذاته ينطبق على عدد البحارة الذين تقدمهم المدينة . فقد كان موزعا بالتساوي بين القبائل والعشائر التي تنقسم إليها(٥) .

على أننا ، من الجهة الأخرى ، نلمح إلى جانب هذه النزعة الضيقة نزعة اخرى تتداخل معها وتمثل اتجاه التكوين السياسي الجديد ومحوره. فكلمة « أجوره » Agora التي كان معناها الاصلي هو السوق الذي يقضي فيها السكان حاجاتهم اليومية ، اصبحت تفيد ، إلى جانب هذا المعنى ، معنى آخر هو المكان الذي يناقش فيه سكان المدينة الشؤون العامة لمدينتهم . وكلمة « ديموس » Demos التي كانت تعني في الاصل مجرد المكان الواقع حول مركز المدينة . اصبحت تعني سكان هذا المكان ، بل اصبحت تعني (الشعب) بوجه عام . كذلك تظهر في الملحمتين الهومريتين تقاليد اجتماعية وسياسية تضم كل افراد المدينة ويتبعها هؤلاء الافراد في حل المشاكل والمنازعات التي تقوم بينهم . ويتعرض من لا يلتزم بها لغضب الآلهة ـ الذي كان يمثل في حقيقة الامر غضب المجتمع الجديد لخرق تقاليده التي كانت قد بدأت في

---

(٥) مثال ذلك أن رودس قدمت ٩ مراكب (سفن) ، وقد كان في رودس ثلاث مدن كل منها تنقسم الى ثلاث قبائل، وهكذا ينطبق عدد السفن المقدمة على عدد القبائل بحيث يصبح نصيب كل قبيلة سفينة واحدة (الالياذة : النشيد الثاني ، سطور ٦٥٤ وما بعدها وسطر ٦٦٨) والشيء ذاته نجده في حالة مدينة بيلوس Pylos التي قدمت ٩٠ سفينة (الالياذة ، ٢ : ٥٩١-٦٠٢) ونحن نفهم سر هذا العدد اذا عرفنا ان بيلوس كانت مقسمة الى تسعة اقسام (الاوديسية ، ٢ : ٧-٨). راجع كذلك ، لطفي عبد الوهاب يحيى : هوميروس (الاسكندرية ، ١٩٦٨) صفحات ٦١-٦٢ .

التبلور حول مركز المدينة كتكوين واحد متكامل[٦] .

٣ ـ نظام دولة المدينة في مرحلة التطور

واذا كان المقوّم السياسي لدولة المدينة (الذي يدور حول توحيد التجمعات السكانية القبلية) هو الذي لعب الدور الاول في عصر الحكم الملكي ، وكان في الواقع هو سبب ظهور هذا الحكم واستمراره طوال الفترة التي عاصرت المرحلة التكوينية لمجتمع دولة المدينة ، فان الحكم الملكي فقد مبرّر وجوده بالضرورة بعد ان تمّ هذا التكوين واتخذ خطوطه الاوليّة العامة . وهكذا يشهد القرن الثامن ق . م بداية تحول جديد يقفز فيه إلى مقدمة الصورة مقوّم آخر من مقومات المجتمع اليوناني هو المقوّم الاقتصادى . فالملوك ، بعد ان انتهى دورهم الاساسي في توحيد مجموعات القبائل في شكل مدن وبعد ان استقر وضع هذه المدن ككيانات سياسية لم يعودوا اصحاب دور يتميزون به على غيرهم من كبار رجال المدينة ، وهم زعماء القبائل والعشائر التي تكونت منها المدن اليونانية . وانما اصبح الملك في الواقع مجرّد واحد من افراد الطبقة الارستقراطية التي تتكون من هؤلاء الزعماء ، يتمتع بسلطة الحكم وميزاته على اساس من ذكرى دور قديم قام به الملوك في فترة اندثرت من عمر المدن اليونانية ولكنه الآن لا يزيد عن كونه واحد منهم يتميز معهم على بقية الشعب بأنه صاحب أراضي واسعة ، زراعية أو رعوية ، تشكل المقوّم الاقتصادى أو مورد الانتاج الرئيسي لمجتمع المدينة، ولكنه لا يتميز عن بقية هؤلاء الارستقراطيين في شيء.

وهكذا ، بعد انتهت الفترة التكوينية لمجتمعات المدن اليونانية ، اصبح المقوّم الاقتصادى هو الذي يدفع تطوّرها السياسي ، فاخذ افراد

(٦) راجع الباب الخاص بالفكر السياسي في القسم الاخير من هذه الدراسة .

الطبقة الارستقراطية منذ القرن الثامن تقريبا . يزحفون على سلطـــات الملك في هذه المدن ويحاولون انتزاعها الواحدة بعد الأخرى. ونحن نجد تصويرا رائعا لهذه الفترة الانتقالية في أكثر من جانب من جوانبها في اشعار الملحمتين المنسوبتين إلى هوميروس . ان الشاعر يصوّر لناالملوك في اكثر من مناسبة ، وقد اصبح وضعهم كأصحاب ارض ينعمـــون بخيراتها وبما يدره عليهم منصب الحكم من ثروة وسلطـــة — بعد ان اصبح هذا الوضع هو المحور الاساسي لحياتهم واهتماماتهم ، دون ان نجد في هذه الحياة وهذه الاهتمامات شيئا عن الدور المنوط بهم في توحيد المجتمعات اليونانية داخل المدن واعطائها شخصيتها السياسية — اذ ان هذا الدور كان في الواقع قد انتهى كما اسلفت .

ولنستمع في هذا الصدد إلى أخيليوس Achilleus . احـــد الملوك اليونانيين ، حين وقع الشقاق بينه وبين اجامنون ، زعيم اليونان وقائدهم الاعلى في حملتهم على طروادة . ان اخيليوس يهدد بانسحابه من الجيش اليوناني المشترك وعودته إلى مدينته ، ولكنه لا يذكر شيئا عن الدور السياسي الذي يقوم به في هذه المدينة التي كانت مقر ملكه وإنما يتحدث عن الارض والثروة . ففي سورة غضبه يوجه خطابه إلى اغاممنون قائلا : « انك لتعلم اني لم آت إلى هنا لمحاربة حاملي الرماح من أبناء طروادة ، فهم لم يسيئوا إلي قط ، انهم لم يسلبوا بقري ولا خيلي ، ولم يخربوا محاصيلي في حقول افثيه Phthia (اسم المدينة الخصبة » . (٧)

والاتجاه ذاته ، الذي تظهر فيه شخصية الملك كصاحب ارض لا يختلف عن بقية اصحاب الارض من افراد الطبقة الارستقراطية، وليس

---

(٧) Homeros: IL., I, 152-6.

كصاحب دور تاريخي يميزه عنهم . نراه بوضوح في منظر آخر من المناظر التي يقدمها لنا الشاعر ، يصوّر لنا فيه ضيعة لأحد الملوك في وقت الحصاد . إن الأُجَراء يقومون على شؤون الحصاد في جد ونشاط ملحوظين ، ولكن الملك لا يكتفي بذلك وينصرف إلى شؤون دولته تاركا امور الارض لهؤلاء الاجراء أو لرئيسهم ، وانما يقف في وسطهم بنفسه وقد امسك بصولجانه وبدت عليه دلائل الارتياح وهو يتابع ما يقومون به أثناء جمعهم للمحصول [٨] .

اما المنظر الثالث الذي يقدمه لنا الشاعر فنجد فيه تأكيدا لهذا الاتجاه يبتعد فيه صاحب العرش عن دوره الاساسي ويرى في الحكم مجرد وسيلة للثروة والسطوة ، كما نلمس فيه تخلخل اركان النظام الملكي بعد ان انتهى دوره وفقد بهذا الانتهاء مبرّر وجوده . ان المنظر يمثل قصر اوديسيوس اثناء غيابه وهو في طريق عودته إلى اثاكه . مدينة ومقرّ حكمه ، وقد غص القصر بعدد كبير من الارستقراطيين وكل منهم يحاول ان يزيح تليماخوس ابن اوديسيوس ووريثه الطبيعي من طريق العرش . ووسط هذا المنظر تقوم مشادة بين احد الارستقراطيين الطامعين في سلطة الملك وبين تلماخوس يتحدث فيها هذا الاخير عن منصب الملك لا على انه وسيلة لتوحيد البلاد أولإعطائها شخصيتها السياسية ولكن على انه «ليس شرا فهو يزيد من سطوة من يتقلده ويوفرّ الثروة في بيته». كما نحس في المنظر ذاته ان ركنا اساسيا من أركان النظام الملكي ، وهو وراثة العرش ، قد بدأ يترنح تحت ضربات الارستقراطيين حين نسمع تليماخوس ،و هو الوريث الشرعي الوحيد للعرش ، يقول « ان بين الآخيين عدد وافر من الامراء، سواء

---

(٨) Il., XVIII, 541-78.

منهم المسنون أو صغار السن ، بأن واحدا منهم لا بد أن يصبح ملكا على اثاكه التي يحيط بها البحر من جميع جهاتها ، بعد ان مات اوديسيوس الطيب » . كما نجد يوريماخوس Eurymachos ، احد الموالين للبيت المالك ، وكان ينظر بعين السخط إلى تزاحم الارستقراطيين على عرش أوديسيوس وعلى معاشه ، يسلم ، وقد غلبه على أمره الواقع المرير ، بان « الآلهة هي التي ستحدد من يكون ملكا على إثاكه »[9].

الطبقة الأرستقراطية ، إذن ، وهي طبقة الملاك الكبار من أصحاب الأراضي الزراعية والرعوية أخذت كما رأينا ، تزحف منذ أوائل القرن الثامن ق . م . بشكل تدريجي على سلطات الملوك في المدن اليونانية سواء أكانت هذه السلطات عسكرية أو سياسية أو تنفيذية أو قضائية . حتى إذا جاء القرن السابع ق . م كانت الحكومات الملكية قد سقطت في أغلب المدن اليونانية لتحل محلها حكومات جماعية تتكون من الطبقة الأرستقراطية التي كان أفرادها يسيطرون على المورد الاقتصادي الرئيسي . وهو الأرض ، في وقت كانت فيه التجارة لا تزال تخطو خطواتها الأولى كمورد من الموارد الاقتصادية الرئيسية في المجتمع اليوناني .

وقد قام الحكم الطبقي الأرستقراطي على ثلاث دعائم واضحة مكنت لأفراد هذه الطبقة من السيطرة على دويلات المدن اليونانية حتى أواسط القرن السادس ق . م أو الشطر الأخير منه . والدعامة الأولى هي الدعامة الاقتصادية . فالأرستقراطيون هم أصحاب الأرض ، سواء أكانت هذه امتدادات زراعية أو رعوية . وهذا المورد الاقتصادي من نتاج الأرض كان لا يزال يغطي احتياجات السكان في المجتمع اليوناني

---

(٩) Od., 381-95.

الذي كان لا يزال صغيرا في أعداده وبسيطا في متطلباته . وهكذا تمكن الأرستقراطيون ، بسيطرتهم على هذا المورد الإنتاجي الوحيد نسبيًا ، أو الرئيسي على الأقل ، أن يسيطروا على مقدرات المجتمع اليوناني .

أما الدعامة الثانية فهي الدعامة العسكرية . وفي هذا المجال فقد كانت ظروف بلاد اليونان تؤدي آنذاك إلى أن يكون أفراد الطبقة الأرستقراطية هم أصحاب السيطرة على القوة العسكرية في البلاد. فالحروب بين المدن اليونانية في ذلك الوقت كان حجمها محدودا يوازي الحجم المحدود للمصالح الاقتصادية التي كانت محلية تدور في أساسها حول ممتلكات الأرستقراطيين من أراضي الزراعة أو الرعي . ومن ثمّ فقد كانت الحروب بين المدن في ذلك الوقت لا تزيد عن غارات متبادلة بين هذه المدن يمكننا أن نشبهها بالغارات التي كانت تقوم بين قبيلة وأخرى في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام . ومن ثم فإنّ قوّة من الفرسان كانت تكفي لأن تكون قوام هذه الغارات. وفي مجتمع مثل المجتمع اليوناني لم تكن توجد فيه جيوش نظامية دائمة . وإنما كانت القوة العسكرية فيه تقوم على أساس من التعبئات المؤقته لمقابلة أيّ ظرف دفاعي أو هجومي وكان المقاتل هو الذي يتكفّل بتسليح نفسه أو أتباعه ، فإنّ أفراد الطبقة الأرستقراطية كانوا هم الفرسان. فهم الذين يمتلكون الخيل اللازمة لمتابعة العمل على أملاكهم الواسعة من الأراضي ؛ وهم وأتباعهم الذين يستطيعون — بحكم الواقع — على القيام بالغارات على جيرانهم من الملاك في المدن المجاورة . أو بصدّ الغارات التي يشنّها هؤلاء الجيران .

ثم نأتي إلى الدعامة الثالثة . وهي الدعامة القانونية . لقد كان الحكم الأرستقراطي . في حقيقة الأمر بداية لتنظيم جديد ، بحكم

الضرورة ؛ لدول المدينة في بلاد اليونان . ذلك أن الحكم الذي سبقه في العصر الملكي كان يقوم أساسا على الحق الإلهي ، وليس على أساس من تنظيم قانوني يكفل الحقوق ويضع الحدود ؛ ومن ثم فقد كان هذا الحكم الملكي يقوم على أساس من إرادة الملك ومقدار سطوته،أو على أساس من التعادل ، بدرجات متفاوتة ، بين سطوة الملك و سطوة الطبقة الأرستقراطية حسب مقدار القوة لدى كل من الطرفين أو حسب الظرف السائد الذي قد يكون في صالح هذا الظرف أو ذاك . أما بعد نجاح الطبقة الأرستقراطية في انتزاع السلطات من الملوك في دول المدينة في بلاد اليونان فقد أصبح الأمر يقوم على أساس من القانون الذي يحدّد الحقوق والواجبات . فالمدينة أصبحت تحكمها الطبقة الأرستقراطية ممثلة من الناحية التنفيذية، في هيئة تنتخب سنويا من بين أفراد هذه الطبقة والمجلس التشريعي الأرستقراطي له صلاحيات محدّدة ، والرابطة التنظيمية بين أفراد المجتمع لم تعد أمراً في يد الأسر أو الجماعات وإنما بدأت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة تنقلها إلى حكومة المدينة . وهكذا ، على سبيل المثال ، ألغت الحكومات الأرستقراطية في المدن اليونانية الصلاحيات العقابية التي كان يتمتع بها رؤساء الأسر . كما حرّمت الحروب التي كانت تقوم بين العشائر والقبائل لفضّ النزاعات التي كانت تنشب بينها . وفرضت رفع هذه النزاعات إلى المحاكم التي أصبحت منذ الآن هي المكلّفة بالفصل في الجرائم العامّة (التي تتعرض لتماسك المجتمع) وفرض العقوبات اللازمة في حال وقوعها . وحين أطلّت بدايات القرن السادس ق . م كانت القوانين التي وضعتها الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في كل مدينة قد وصلت إلى درجة من التفصيل تستدعي أن تدرج في تنظيم قانوني واضح ، وبدأت هذه المدن الواحدة بعد الأخرى تصدر مجموعاتها القانونية الخاصّة بها . وهكذا

حلّ القانون محلّ القوة في إقرار الأمور ، وفرضت الطبقة الأرستقراطية الأمن في المدن اليونانية بشكل أدى إلى انحسار استخدام السلاح في هذا المجال تدريجيا ومن ثم إلى دعم كيان دولة المدينة .

على أن الأرض ، سواء منها أرض الزراعة أو المراعي ، وهي التي كانت تشكل الدعامة الاقتصادية لسيطرة أصحابها من الطبقة الأرستقراطية . لم تكن لتكفي حاجات المجتمع اليوناني بصفة دائمة . فالأراضي المنتجة في بلاد اليونان قليلة وفقيرة كما عرفنا في حديث سابق . ومجتمعات المدن اليونانية كانت تتزايد سواء في أعداد سكانها أو في متطلّبات الحياة اليومية التي تشكل المستوى المعيشي لهؤلاء السكان بحيث أصبحوا ينظرون إلى ما كان كماليا بالأمس على أنه ضروري اليوم . وهكذا بدأ اليونان يولون وجههم نحو البحر بشكل متزايد في محاولة للبحث عن موارد جديدة تعوض مواردهم التي باتت قاصرة عن تغطية ضروراتهم المعيشية . وقد أدى هذا إلى هجرة جديدة من بلاد اليونان إلى الشواطىء المختلفة للبحر المتوسط استمرت حتى أواسط القرن السادس ق . م . وحين أطلّ القرن الخامس ق . م كانت المستوطنات اليونانية تتناثر . بدرجات متفاوتة من الكثافة . على شواطىء مقدونية وتراقية والبحر الأسود وقورينه (برقه الحالية على الشاطىء الإفريقي) والشواطىء الجنوبية لإيطاليه وجزيرة صقلية .

وقد كانت هذه الحركة الاستيطانية مرحلة جديدة في تاريخ المجتمع اليوناني . ففي نهايتها كان اليونان قد شاركوا الفنيقيين في نشاطهم التجاري في البحر المتوسط ، وبدأوا يتعرفون على أسواقه . كما بدأوا يتعلمون أشياء جديدة نتيجة لاحتكاكهم بأقوام الشرق الأدنى أسهمت إلى حدّ كبير في تنمية هذا النشاط التجاري . فمن المصريين والبابليين أخذوا مبادىء الرياضيات ، وعن الفينيقيين تعلّموا طرقا

أكثر تطوّراً في صناعة السفن . وهكذا بدأت التجارة تخطو خطوات واسعة نحو الازدهار ، وأخذ البحر ، حيث النشاط التجاري ، يشكل موردا اقتصاديا أساسيا إلى جانب الأرض حيث الزراعة والرعي ، بل أكثر من هذا فان التجارة أصبحت في الواقع تغطي القسم الأكبر من ضرورات الحياة اليومية في بلاد اليونان. وقد كان طبيعيا والحالة هذه، أن تعكس النظم السياسية هذا التطوّر . فقد ظهرت المدن اليونانية طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة التجار الذين أصبحوا يسيطرون على هذا المورد الأساسي الجديد من موارد الانتاج ، وهو التجارة ، وكان طبيعيا أن يسعى أفراد هذه الطبقة الجديدة الصاعدة إلى تأمين مصالحهم المتزايدة عن طريق السعي بكافة الوسائل إلى المشاركة في الحكم بطريقة أو بأخرى . وهكذا شهدت بدايات القرن السادس ق . م . ظهور نوع جديد من الحكومات في المدن اليونانية تتحالف فيها الطبقات التجارية الجديدة مع الطبقات الأرستقراطية القديمة من ملاّك الأراضي — وهو ما يعرف في بلاد اليونان باسم النظام السياسي الأوليجركي Oligarchia أو نظام حكم الأقلية .

• • •

هكذا ، إذن اكتمل المقوم الاقتصادي في بلاد اليونان ليصبح الدافع الأول وراء تطوّر النظم السياسية اليونانية في مرحلتي الحكم الأرستقراطي والأوليجركي . ولكن هذا الوضع كان يحمل في طياته بذور مقوّم جديد أصبح يشكل العامل الجديد الذي دفع بمجتمعات المدن اليونانية نحو استكمال المراحل الأخيرة من تطوّر نظمها السياسية : فمن جهة نجد أن ازدهار التجارة أوجد أمام الطبقات الشعبية متنفسا ومجالا للحركة لم يكن موجودا أمامها من قبل . فبعد أن كان العمل في أراضي الطبقة الأرستقراطية هو الوسيلة الوحيدة الموجودة أمامهم

لكسب عيشهم ، أصبح العمل في خدمة النشاط التجاري مجالاً آخر يعطيهم فرصة المساومة الاجتماعية بين طبقة الأرستقراطية التقليدية وطبقة التجارة الجديدة . ومن جهة أخرى فإن النشاط التجاري كان يعتمد إلى حد كبير وبشكل متزايد على أبناء طبقة العامة ، أو الطبقة الشعبية سواء كأصحاب حرف يمدون التجار بالسلع التي تشكل أساس مبادلاتهم التجارية ، أو كبحارة وعمال نقل وعمال موانيء ، أو كجنود يخوضون المعارك العنيفة التي ادى إليها ، وكان لابد ان يؤدي إليها، التنافس الحاد بين المدن اليونانية في مجال التجارة التي اصبحت تشكل المورد الاقتصادي الرئيسي لها — وهي معارك لم تعد مجرد غارات محدودة متبادلة بين مدينة وجارتها ، وانما أصبحت تقوم في عرض البحر على امتداد خطوط القوافل التجارية، أو على الشواطيء الجديدة حيث توجد الأسواق المتنازع عليها . وتمتد سجالا عبر سنوات طويلة قد تصل في بعض الأحيان إلى عدة عقود من الزمان ، ومن ثم كانت في حاجة مستمرة إلى أعداد غفيرة من المقاتلين لم تكن تتسع لهم إلا صفوف الطبقات الشعبية .

وهكذا بدأت الكتلة الشعبية العريضة تشعر بكيانها وبوزنها في مجتمعات المدن اليونانية ، ومن ثم برز المقوم البشرى كعنصر محرك لتطور النظم السياسية في هذه المجتمعات . وقد كان المظهر الذي اتخذه هذا المحرك الجديد هو الشعور المعبأ الساخط على تحكم طبقة محدودة في المجتمع بأكمله عن طريق استئثارها بالحقوق السياسية التي تكفل لها الانفراد بتصريف اموره والسيطرة على مقدراته . وهكذا قامت الثورات الشعبية في المدن اليونانية للاطاحة بالحكومات الاوليجركية . ولكن حدث في هذه اللحظة الحرجة من تطورالنظم السياسية لبلاد اليونان ان تسلل إلى قيادة الثورات اشخاص كان عدد غير قليل منهم

من غير الطبقة الشعبية ، فانتفعوا بالقوة الكامنة في صفوف هذه الطبقة للاطاحة بالحكومات الاوليجركية ، وحين تمّ القضاء على هذه الحكومات حلّوا هم محلها في مواقع السلطة وانتكسوا بمجتمعات المدن اليونانية إلى الحكم الفردى ، وان كانوا قد ميعوا وطأة هذا الحكم لفترة وجيزة باكثر من وسيلة .

وقد كان المحور الاساسي الذي دار حوله عملهم بغرض هذا التمييع هو ارضاء طبقة العامة واستمالتها إلى جانبهم .فمن الناحية الاقتصادية دفعوا عجلة النشاط الاستعمارى ليفتحوا بذلك مجالا امام الطبقات المعدمة للسعي وراء الرزق في المستعمرات خارج البلاد، ومن الناحية الاجتماعية شجعوا النشاط الفني والثقافي إلى ابعد الحدود بحيث اصبح عهدهم عهد ازدهار حقيقي في هذا المجال . ولكنهم مع ذلك فشلوا في الجانب السياسي ، اذ ان المظهر الشعبي الشفاف الذي تستّر وراءه الجيل الاول منهم لم يلبث ان انحسر في عهد الجيل الثاني ليحلّ محله الارهاب السافر . وهكذا اكتسب حكمهم في تاريخ النظم السياسية اليونانية اسم حكم الطغاة .

ولكن اذا كان المقوّم البشرى الذي أراد ان يثبت وجوده كقوة دفع لتطوّر النظم السياسية في بلاد اليونان قد تعثّر في طريقه نحو تحطيم الحكم الطبقي فانتكست حركته إلى هذا الحكم الفردى ، فان هذا المقوّم ذاته لم يلبث ان تحرك من جديد هذه المرة في صورة سخط عام على هذا النوع من الحكم انتهى به ، في اواخر القرن السادس ق.م.، إلى ثورات كان ضحيتها الأولى هؤلاء الحكام انفسهم وهكذا اختفت من تاريخ المدن اليونانية فترة حكم الطغاة لتحل محلها مرحلة جديدة من المراحل التي تطوّرت خلالها النظم السياسية اليونانية.مثلت

نهاية الشوط الذي وصل إليه هذا التطور - وهذه هي مرحلة الحكم الشعبي أو الديمقراطي .

٤ - مؤثرات على هذا التطوّر

كان هذا هو الاتجاه الذي سلكته النظم السياسية في بلاد اليونان. ولكن النظم السياسية هي مجرد التعبير الخارجي للظروف التي تعتمل في داخل المجتمع ، والمجتمعات قد تتشابه في هذه الظروف فتتطور نظمها السياسية بشكل متشابه وقد تختلف ظروفها فينعكس هذا بالضرورة على نظمها السياسية . ولم تكن بلاد اليونان بدعا في هذا المجال ، اذ رغم ان اقسامها قد تشابهت فيما بينها في احوال كثيرة الا ان هذا التشابه لم يكن قاعدة عامة ، وإنما خضعت هذه البلاد لعدد من العوامل أو المؤثرات اوجدت نوعا من الاختلاف بين هذه الاقسام في بعض الحالات وادى هذا بدوره الى الابتعاد ، بنسب متفاوته ، عن الخط العام لتطوّر النظم السياسية اليونانية في اكثر من مجتمع من المجتمعات اليونانية التي ظهرت في الأقسام المذكورة. فتوقف بعضها عند مرحلة من مراحل التطور التي مرت فيها هذه النظم وقفز بعضها مرحلة ، وتداخلت في البعض الثالث معالم اكثر من مرحلة وهكذا .

أ - الموقع أو التوزيع الجغرافي

ويمكننا ان نميّز بين هذه العوامل أو المؤثرات ثلاثة انواع : اولها يتصل بالموقع أو ما يمكن ان نسميه التوزيع الجغرافي لبلاد اليونان ، والثاني يتصل بالموضع أو التكوين الطبيعي لهذه البلاد . امّا الثالث فهو يتصل بالسكان أو التكوين البشرى للمجتمعات التي قامت فيها . فمن حيث العامل الاول وهو التوزيع الجغرافي نجد ان بلاد اليونان في العصر القديم لم تكن تشكل كلاً متكاملا وانما كانت تنقسم إلى ثلاث

مناطق رئيسية هي القسم الجنوبي من شبه جزيرة البلقان وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم بلاد اليونان الاصلية. ثم مجموعة الجزر الكثيرة التي تتركز في بحر إيجه الذي يقع بين شبه جزيرة البلقان من الغرب وشبه جزيرة آسيه الصغرى من الشرق . ثم الشريط الساحلي الغربي لآسيه الصغرى الذي هاجر إليه اليونان واستقروا فيه بشكل كثيف بحيث حولّوه إلى منطقة يونانية صرفة في فترة مبكرة من تاريخهم

وقد كانت لكلّ من هذه المناطق الثلاثة ظروفها التي احاطت بها وميزتها عن غيرها ، وهي ظروف اثرت بالضرورة على كافة جوانب حياتها بما في ذلك نظمها السياسية وكيفية تطورها . فبلاد اليونان الاصلية كانت بسبب ظروف التضاريس والتربة التي سادتها . بلاداً فقيرة في عمومها باستثناء مناطق قليلة فيها ، ومن هنا فقد اتجهت اغلب المدن اليونانية منذ المراحل الأولى لظهور مجتمعاتها وتبلور ملامح هذه المجتمعات ، إلى الخارج لاستكمال الموارد الاقتصادية اللازمة لتغطية ضروريات الحياة اليومية لسكانها ، وبالتالي فقد اصبح الاتجاه نحو الخارج وبخاصة نحو الشرق (والشمال الشرقي) حيث تصل الفرص الاقتصادية إلى اوسع احتمالاتها — اقول اصبح هذا الاتجاه يشكّل الخط الرئيسي في حياة هذه المدن سواء تم عن طريق التجارة أو الاستعمار أو المناورات السياسية أو المحالفات أو المؤامرات أو الصدام المسلح

هذا عن القسم الأول من بلاد اليونان ، وهو الذي يقع في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان ، اما عن القسم الثاني وهو مجموعة الجزر التي تقع في بحر إيجه (واشباه الجزر التي تقع في شماليه) ، فقد كانت له هو الاخر ظروفه الخاصة التي اثرت على مصالحه وبالتالي على ردود فعله للاحداث فهذه الجزر تحتل موقعا متوسطا بين الشاطئين الاسيوي والاوربي لهذا البحر ، بل هي تقع بين الشواطىء الاسيوية

والافريقية والأوربية للقسم الشرقي للبحر المتوسط عموما . ومن ثم فهي تشكل محطات تجارية يمكنها ان تنتفع من موقعها انتفاعا حيويا وهو انتفاع يتحقق بشكل كامل اما باتخاذ موقف الحياد أو بالانحياز إلى الجانب الاقوى طالما ظل محتفظا بقوته ، حتى اذا تخلخلت قوة هذا الجانب تخلخل تبعا لذلك انحياز هذه الجزر .

ثم نأتي إلى القسم الثالث من المناطق التي استقر فيها اليونان في العصر القديم بشكل كامل ، وهو الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى . وهنا نجد انه اذا كانت المدن اليونانية التي قامت في هذا القسم تشترك مع جزر بحر إيجه ومع مدن الساحل الشرقي من بلاد اليونان الاصلية في اطلالها على هذا البحر ، فان مدن هذا القسم الثالث انفردت بظروف اخرى تختلف فيها عن مدن القسمين الاخرين . فاتجاهها لم يكن نحو بحر إيجه فحسب ، وانما كان عليها ان تنظر في الوقت نفسه إلى الخلف إلى هضبة أسيه الصغرى ، حيث القوات الشرقية الكبيرة ، مثل الامبراطورية الفارسية ، التي كان من الممكن ان تضغط عليها بين الحين والاخر كما حدث في الفترة السابقة للثورة الايونية التي اسلفت الاشارة إليها .

ب ـ التكوين الطبيعي

هذا عن العامل الاول الذي اثر على بلاد اليونان ، وهو الموقع أو التوزيع الجغرافي لبلاد اليونان ، وقد رأينا فيه ان توزيع هذه البلاد على اقسام ثلاثة جعلها ، رغم اشتراكها في بعض الظروف ، تختلف عن بعضها في ظروف اخرى ، وهذه الظروف لابد ان تنعكس على مصالحها ومن ثم على تفاعلها الطبقي وعلى وضعها الاجتماعي ليظهر تأثيرها في النهاية ، وبالضرورة ، على نظمها السياسية . وقد كان

للعاملين الآخرين وهما التكوين الطبيعي والتكوين البشرى لبلاد اليونان اثر لا يقل عن توزيعها الجغرافي . فمن حيث التكوين الطبيعي نجد ان بلاد اليونان ، كما مر بنا ، قد قسمتها الظروف الجغرافية إلى مناطق صغيرة ، سواء تمثلت هذه الظروف في السلاسل الجبلية ، كما في بلاد اليونان الاصلية أو في البحر ذاته كما في منطقة بحر إيجه التي اتخذت شكل عدد من الجزر المتناثرة . فاذا ادخلنا في اعتبارنا ان هذه البلاد تتكون ، بشكل غير متناسق من ثلاثة تكوينات طبيعية هي السواحل والسهول والجبال ، فان النتيجة المنطقية هي ان الاقسام التي ارتجلتها الطبيعة في بلاد اليونان لا يمكن ان تكون متشابهة من حيث نسب التكوينات الطبيعية الثلاثة المذكورة . ومن هنا فقد يغلب التكوين الجبلي في منطقة ، وقد يغلب التكوين السهلي في منطقة ، وقد تطول السواحل وتغيب بالمرة في منطقة ثالثة وهكذا . وطبيعي ان كلا من هذه التكوينات يؤثر في نوعية الممارسة الاقتصادية التي يقوم بها السكان الموجودون فيه سواء اكان رعيا ام زراعة ام تجارة وهذا بدوره يحدد نوع المصالح التي يسعى هؤلاء السكان إلى تحقيقها وتأمينها ومن ثم يتحدد نوع الطبقات الاجتماعية الموجودة في كل قسم ونسب قوتها أوضعفها وسيطرتها على غيرها من الطبقات أو خضوعها — الامر الذي لابد ان تنعكس محصلته النهائية في صورة النظام السياسي الذي يظهر في كل قسم ، سواء اكان ذلك من حيث شكله النهائي أو طريقة تطوره او الفترة الزمنية التي اقتضاها هذا التطور .

ج — التكوين السكاني

واذا كان عامل التكوين الطبيعي قد اسهم في تغيير الظروف التي

احاطت المناطق المختلفة لبلاد اليونان واثرت عليها بحيث يظهر ذلك في تكوينها الاقتصادى والاجتماعي وانعكس بالتالي على نظمها السياسية فان عامل التكوين البشرى أو السكاني قد كان له دون شك دور لايمكن التقليل من شأنه في تحديد الشكل النهائي الذي اتخذته ظروف كل منطقة . ذلك ان بلاد اليونان ، سواء في قسمها الاصلي في جنوبي شبه جزيرة البلقان أو في جزر بحر إيجه أو على الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى قد دخل في تكوينها السكاني عدد من الهجرات والتحركات السكانية التي كانت عنصرا اساسيا في تكوين المقومات النهائية لابعادها السكانية .

وطبيعي ان لكل فوج من افواج الهجرات التي استقرت في بلاد اليونان ظروفه الخاصة به : فالهجرة قد تكون تسربا بطيئا يذوب في السكان الاصليين اذا كان عدد المهاجرين قليلا وبالتالي تضيع هويته ويظل سكان المنطقة محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم أو يمتزج مع هؤلاء السكان اذا كان عدد المهاجرين كبيراً لتنشأ ملامح جديدة للعادات والنظم الموجودة في المنطقة هي في حقيقتها مزيج بين القديم والجديد ، كذلك قد تمثل الهجرة سيلا متدفقا من المهاجرين يذيب السكان الاصليين ويقضي بنسب متفاوته على ملامح المجتمع القديم ، وقد تكون الهجرة منظمة أو مسلحة تتعالى على السكان الاصليين ولا تمتزج بهم ومن ثم ينشأ مجتمع جديد تلعب العنصرية فيه دورا كبيرا في التمييز بين طبقتين من السكان ، احداهما غازية لهـا كل الميزات والأخرى من السكان الاصليين منقوصة الحقوق ــ الامر الذي لابد ان يؤثر على اي نظام سياسي يقوم في هذا المجتمع يوجهه وجهة بعينها ، وهكذا .

الباب السادس

أثينه واسبرطة في مرحلة الظهور

نظام دولة المدينة سار في عمومه ، إذن ، في اتجاه رئيسي تطور فيه من الحكم الملكي إلى الحكم الشعبي . ولكنه عرف ، كما أسلفت ، اتجاهات ابتعدت به قليلا أو كثيرا عن هذا المسار العام تحت تأثير عدد من الظروف يتصل بعضها بالموقع وبعضها بالتكوين الطبيعي ، وبعضها بالتكوين السكاني . وسيكون حديثنا الان عن مثالين لهذين المسارين في تطور نظم الحكم في العصر الذي شهد ظهور نظام دولة المدينة في بلاد اليونان .

١ ــ النظام الأثيني

وليكن مثالنا الأول في هذا الصدد هو المجتمع الأثيني الذي يمثل الاتجاه الرئيسي لتطور النظام السياسي في دول المدينة بمراحله المتعاقبة انتهاء بمرحلة الحكم الشعبي.وقد تمّ لأثينه هذا التطوّر المستمرّ المتوازن بحكم الظروف المحيطة بشبه جزيرة أتيكه Attika ، وهي المنطقة التي تضمّ أثينه والأراضي والضواحي والقرى والموانىء الصغيرة التي تحيط بها وتتخذها مركزا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لها . وتتلخص هذه الظروف في أن أثينه لم تكن تعتمد على مورد واحد من موارد الإنتاج ، سواء تمثل هذا في الزراعة أو التجارة أو المواد الأولية اللازمة لقيام الحرف والصناعات الصغيرة ، بحيث تتمكن الطبقة المسيطرة

على هذا المورد أو ذاك من السيطرة على نظام الحكم والوقوف في سبيل تطويره ، وإنما تدرجت أثينه في الاعتماد على هذه الموارد ، الواحد تلو الآخر ، بحيث أتى الوقت الذي أصبح فيه اعتماد المجتمع الأثيني على هذه الموارد المختلفة متعادلا أو على الأقل متكاملا ، ومن ثم أصبح وضع الطبقات المسيطرة على موارد الإنتاج متعادلا هو الآخر أو متكاملا . وهكذا تهيأت الفرصة لتطور نظام الحكم حتى وصل في نهاية الشوط إلى النظام الديمقراطي أو الشعبي الذي يرعى مصالح كل الطبقات ويمثل السيطرة المتكاملة لكل الطبقات .

أ ـ من ظهور المجتمع الأثيني إلى عصر سولون

وقد بدأ المجتمع الأثيني في الظهور في عهد الحكم الملكي . ففي ذلك العهد تم توحيد المجتمعات الصغيرة الموجودة في شبه جزيرة أتيكه داخل إطار سياسي موحد هو الذي أصبح يعرف منذ ذلك الوقت باسم المجتمع الأثيني . وقد نسب هذا التوحيد إلى ملك إسمه ثيسيوس Theseus الذي ربما كان في حقيقة الأمر الملك الذي نجحت في عهده آخر حلقة من حلقات التوحيد ، بعد محاولات على سبيل التجربة والخطأ في عهد ملوك آخرين سابقين حققت نسبا متفاوتة من التكتل بين عدد من المجتمعات الصغيرة التي كانت تتكون منها شبه الجزيرة .

وحين انتقل الحكم إلى الطبقة الأرستقراطية نجد أن الصلاحيات الإدارية التي كانت مركزة في يد الملك قبل ذلك بشكل وراثي تصبح الآن موزعة بين عدد من المناصب يشغلها أفراد من الطبقة الأرستقراطية هم : الحاكم أو الأرخون archon وهو رئيس الجهاز التنفيذي ، والمشرف على الشؤون العسكرية أو البوليمارخوس polemarchos

وستة قضاة thesmothetai ورئيس للشؤن الدينية archon basileus [1] وقد كان هؤلاء يشغلون مناصبهم في البداية لمدى الحياة ثم أصبحوا يشغلونها لمدى زمني محدّد تدرج حتى أصبح سنة واحدة في النهاية. أما الصلاحيات التخطيطية والتشريعية فقد انتقلت إلى مجلس يأتي أعضاؤه من بين صفوف الطبقة الأرستقراطية . هو مجلس الأريوباجوس Areopagos الذي كانت في يده الإدارة الحقيقة لأمور الأثينيين .

على أن التسلط الذي اتّسم به حكم الطبقة الأرستقراطية في أثينه وانحرافها المتزايد في مجال القضاء إلى خدمة أهوائها ومصالح أفرادها ، أدى إلى سخط متزايد بين صفوف الطبقات الأخرى ، اضطرت معه الطبقة الحاكمة إلى العمل على تدوين القوانين. وقد عهد بهذه المهمّة إلى مشّرع اسمه دراكون Dracon . ورغم أن القوانين التي سنّها هذا المشرّع في ٦٢١ ق.م. كانت على قدر كبير من القسوة ، كما أنها لم تعالج إلا جوانب محدده من مشاكل المجتمع الأثيني إلا أنها شكلت في الواقع تطوّرا هاما في حياة هذا المجتمع . فمن جهة أصبحت الجرائم

(١) يذكر ارسطو (Athenaion Politeia, III, 1-3) ان وظيفة رئيس الشئون الدينية ظهرت اولا ثم تلتها وظيفة المشرف على الشئون العسكرية ثم الحاكم . وقد راى احد الكتاب المعاصرين (Hignett : Athenian Constitution, p. 42) ان الوضع المنطقي هو ان يكون منصب الحاكم هو الذي ظهر اولا على اساس انه هو المنصب الاعم ثم تتلوه المناصب الاكثر تخصصا (المشرف العسكري والمشرف الديني) . والراي معقول من هذه الزاوية ، ولكن من زاوية اخرى فان الاتجاه الديني كان هو الاتجاه المسيطر دائما على المجتمعات القديمة وبخاصة في المراحل الاولى من ظهورها وكانت الصلاحيات الدينية هي التي تدعم الصلاحيات السياسية وليس العكس ، ومن ثم فربما كان الارجح هو ما ذكره أرسطو رغم أنه كان يتكلم بالضرورة عن تطور سبق الفترة التي كتب فيها (الربع الأخير من القرن الرابع ق.م.) بعدة قرون ، ومن ثم كان لا يعتمد على اكثر من الرواية الشفوية في هذه النقطة .

تعالج على أساس أنها تشكل اعتداء على المجتمع ذاته وليس مجرّد إغضاب الآلهة ، وهكذا يبرز دور القانون كاداة للتعامل داخل المجتمع الأثيني لأول مرّة . ومن جهة أخرى فإن اصدار هذه القوانين كانت في صالح الطبقات المحكومة من حيث أن هذه الطبقات بدأت تعرف مواقع أقدامها وان العلاقة بينها وبين الدولة ، من الآن فصاعداً ، لا بدّ أن تحكمها وتضبطها قوانين تبيّن الحقوق وتوضح الحدود وهكذا أصبحت الظروف تهيأة لأن يخطو المجتمع الأثيني خطواته الأولى على درب — التطوّر الذي أدّى إلى الحكم الشعبي في النهاية .

ولكن قوانين دراكون لم تتناول ، كما ذكرت ، إلاّ جانبا محدودا من مشاكل المجتمع الأثيني . وقد ظهرت آثار ذلك بشكل واضح في الحالة التي انحدرت إليها طبقة العامة والتي وصلت إلى درجة بالغة من السوء. فقد وقع كثير من أفراد هذه الطبقة تحت طائلة الدين ، وانتُزعت أملاك من كانت له أملاك منهم للوفاء بديونهم نحو دائنيهم من أفراد الطبقة الأرستقراطية وبيع بعضهم (ممن لم تكن لديهم أراضي) في أسواق الرقيق أو اضطروا إلى العمل في أراضي سادتهم الأرستقراطيين لقاء سدس المحصول (وقد أصبحوا يعرفون في الواقع باسم « أصحاب السدس » hektamoroi) بينما كانت تذهب الخمسة أسداس الباقية إلى أصحاب الأرض. هذا بينما اضطر من أراد أن ينجو بجلده إلى أن يفرّ خارج حدود أتيكه في منفى اختياري حتى لا يدخل في ربقة العبودية. كذلك فإنّ اتجاه أثينه بشكل متزايد في تلك الفترة نحو النشاط التجاري كان من نتائجه ظهور طبقة التجار التي كانت تكتسب وقعا ملموسا في المجتمع الأثيني يوم بعد يوم، وكان من الطبيعي أن يسعى أفراد هذه الطبقة الصاعدة إلى الاشتراك في الحقوق السياسية حتى يضمنوا رعاية مصالحهم وتنميتها . كما كان في مقدور

هذه الطبقة ــ التي أصبحت تسيطر على مورد أساسي من مواردالانتاج أن تساوم الطبقة الأرستقراطية على هذه الحقوق مساومة الذي يقف على أرض صلبة .

وفي وسط هذه الظروف التي شهدت تسلط الطبقة الأرستقراطية واستئثارها بكل جوانب السلطة من جهة، وسخط العامة وطبقة التجار وتحفزها من جهة أخرى ، تولى منصب الحاكم التنفيذي archon شخص اسمه سولونSolon يبدو أنه كان من الأرستقراطية المعتدلة ذات الثروة المتوسطة(٢). ولكنه رغم انتمائه الأرستقراطي . كانقد اتجه إلى التجارة وكون ثروة عن طريقها ، كما كان لرحلاته المتعددة أثر في سعة أفقه ، كما كان لوطنيته . أو لاعتداله وحكمته ، أثر في حرصه على الصالح العام للمجتمع الأثيني ، وقد قام سولون . نتيجة للظرف المتفجر الذي كان يمر به المجتمع الأثيني آنذاك ، بوضع بعض التشريعات بفرض التدقيق بين المصالح المتضاربة بين طبقاتهذا المجتمع .

---

(٢) يقول ارسطو (Ath. Pol. V, 3) ان « سولون كان من حيث مولده وسمعته (رجلا) من الطراز الأول ، ولكنه ينتمي الى الطبقة المتوسطة من حيث المركز والثروة ، كما يعترف بذلك الاخرون وكما يدلل هو نفسه من خلال القصائد التي يحث فيها الاثرياء على الا ينساقوا وراء الجشع » ثم يذكر ارسطو بعض سطور من احدى القصائد التي يشير اليها ، هي :

« اكبحوا جماح هذه الأهواء العنيدة
المنغمسة في فيض من الثروة
واعتدلوا في اعتدادكم ، فنحن لن نقبله
ولا حتى انتم ستجدونه خليقا بكم » .

ب ـ تشريعات سولون

وتنقسم هذه التشريعات إلى قسمين رئيسيّين ، أوّلهما نستطيع أن نربطه بالطبقة التجارية الصاعدة ومحاولة التوفيق بين مصالحها ومصالح الطبقة الارستقراطية القديمة ، والقسم الثاني يستهدف معالجة وضع العامة . ففيما يخص القسم الاول نجد سولون يربط في تشريعاته بين الثروة بوجه عام وبين الحقوق السياسية ، بحيث يصبح مقدار الدخل السنوى للفرد ، بصرف النظر عن مصدر هذا الدخل سواء أكان من الأرض أو من التجارة ، هو الأساس الذي تقوم عليه درجة تمتعه بهذه الحقوق .

وقد انتفع سولون في هذا الصدد بتقسيم اجتماعي ربما كان موجودا كله أو قسم منه على الاقل في أثينه قبل عهد سولون. وبمقتضى هذا التقسيم كان المجتمع الاثيني ينقسم إلى طبقات اربعة حسب دخل كل فرد في السنة مقدرا بمعايير medimnoi من الحبوب أو الزيت أو النبيذ . واولى هذه الطبقات ينتمي إليها كلّ من كان دخله في السنة خمسمائة معيار . وتسمى طبقة «أصحاب الخمسمائة معيار» pentakosiomedimnoi . والطبقة الثانية وتسمى طبقة الفرسان hippeis لايقل دخل افرادها عن ثلاثمائة معيار . على أساس أن هذا الدخل هو الحد الأدنى الذي كان يمكن صاحبه من الخدمة في التعبئات العسكرية في كتائب الفرسان في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه الدولة تنفق على قواتها الضاربة . وانما كان على المواطن ان يقوم بتسليح نفسه والانفاق على معداته في ميدان القتال . ثم تلي طبقة الفرسان، نزولا في السلم الاجتماعي ، الطبقة الثالثة التي كان دخل الفرد فيها لا يقل عن مائتي معيار في السنة وقد سماها الاثينيون طبقة « اصحاب النير » zeugitae . على

أساس ان الأرض التي تنتج هذا القدر من الدخل يلزم لفلاحتها على الأقل زوج من الثيران وشدهما إلى المحراث بالنير الخشبي zeugos الذي يوضع بشكل مستعرض على رقبتيهما لتوثقا فيه . ثم تأتي أخيرا في أسفل السلم طبقة الأجراء أو العمال اليدويين thetai التي يقل دخل الفرد فيها عن مائتي معيار . وسواء أكان سولون هو صاحب هذا التقسيم أو أن التقسيم كان موجودا من قبل بصفة اجتماعية محضة، فإن سولون يرجع إليه الفضل في الربط بينه وبين الحقوق السياسية بشكل تدريجي يتناسب مع دخل الفرد . وهكذا اصبح المنتمون إلى الطبقة الاولى مثلا هم الذين يختار من بينهم الأعضاء التسع للجهاز التنفيذي (الحاكم العام ، والقائد العام . . . . الخ) بينما تعطى المراكز الاقل درجة إلى أفراد طبقة الفرسان وهكذا .

وبفضل هذا التشريع الذي لم يربط بين الدخل السنوي وبين الأرض . وإنما تركه سولون مفتوحا لأيّ مصدر من مصادر الدخل، أصبح في إمكان الطبقة التجارية الصاعدة أن تشترك ، كلّ حسب ثروته . في المناصب التنفيذية للدولة وفي الجهاز الإدارى بها ، إلى جانب أفراد الطبقة الأرستقراطية القديمة. على أن سولون لم يقتصر على الربط بين الثروة (بغض النظر عن مصدرها) وبين الحقوق السياسية في مجال المناصب التنفيذية والإدارية . وإنّما نقل ذلك إلى المجال التشريعي فأقام . إلى جانب مجلس الأريوباجوس الأرستقراطي . مجلسا جديدا هو مجلس البولي boule (مجلس الشورى) يتكون من أربعمائة عضو . مائة عن كلّ قبيلة من القبائل الأثينية الأربعة ، وكانت عضوية هذا المجلس قاصرة على أفراد الطبقات الثلاثة الأولى ، كما كانت صلاحياته تشمل تحضير مشاريع القوانين التي تطرح على مجلس الاكليزية ekklesia (مجلس العامة أو المجلس الشعبي) الذي كان يتكون من عموم المواطنين الأثينيين .

هذا عن القسم الأول من تشريعات سولون ، وهو القسم الذي ربط فيه بين الثروة والحقوق السياسية وأفادت منه الطبقة التجاريــة الجديدة بشكل ظاهر . أما القسم الثاني من هذه التشريعات فقداستهدف معالجة مشاكل العامّة . وأول التشريعات في هذا المجال هو ماعرف باسم « التخلّص من العبء » seithachtheia ، وبموجب هــذا التشريع الغيت كافة الديون التي كان أفراد طبقة العامة يرزحون تحتها ويئنون منها ، كما ألغيت أهم النتائج المترتبة عليها وهي فقدان المدين لحريته لحساب الدائن ، إذ تضمّن هذا التشريع تحريم اتخاذ شخــص المدين ضمانا للوفاء بالدّيْن .

أما النقطة الثانية في هذا القسم من تشريعات سولون ، فهي تخصّ اشتراك الطبقة الاجتماعية الرابعة ، وهي طبقة الأجراء أو العمــال اليدويين ، في مناقشات مجلس الاكليزية (الذي كان يضمّ كــلّ المواطنين). وفي هذا الصدد يذكر لنا أرسطو أنّ سولون أعطى أفراد هذه الطبقة مكانا في هذا المجلس الذي تدرجت صلاحياته فيما بعد لتشمل الفصل ، عن طريق المناقشة ثم التصويت . في عديد من مسائل المجتمع الأثيني ، من بينها سنّ القوانين وتعديلها أو إلغائها والمسائل المتعلقــة بإعلان الحرب وإبرام السلام وغيرها. ولكن يبدو أنّ هذا الحقّ الذي يذكر أرسطوأن الطبقة الرابعة حصلت عليه نتيجة لتشريعات سولون لم يكن في الحقيقة أكثر من تأكيد أو تحديد رسمي يشكل اللمسات الأخيرة في تطوّر طويل . فالمجلس الشعبي قد عرف في أثينه قبل عهد سولون . بل انّ وجوده في المجتمعات اليونانية عامّة يرجع إلى نهاية العصر الهومري (عصر هوميروس) الذي يرجع على أرجح تقديرإلى أواسط القرن التاسع ق . م . ولكن طريقة تكوين هذا المجلس ومدى صلاحياته أو سلطاته يشوبها الكثير من عدم التحديد ، ولا بدّ أن مرّ

بمرحلة طويلة من التطور في العصر الأرستقراطي ، وفي هذا التطور لا بد أنه واجه بعض الصعوبات أو العقبات العملية نتيجـــة للظروف الواقعية التي كانت تبهظ أفراد الطبقة الاجتماعية الرابعة (والتي رأينا طرفا منها في أثناء الحديث على سيطرة الطبقة الأرستقراطية) ومن ثم تؤثر على إمكانية حضورهم جلسات هذا المجلس واشتراكهم اشتراكا فعالا في المناقشات التي تدور في ساحته . ومن هنا فإن ما ذكره أرسطو من إعطاء تشريعات سولون لأعضاء الطبقة الرابعة مكانا في المجلس الشعبي ، ربما لا يزيد في حقيقته عن النص في هذه التشريعات على حق هذه الطبقة المذكورة في عضوية هذا المجلس كتأكيد رسمي لحق موجود أصلا وإن كانت تنقصه الممارسة الفعالة . وهو نـــص أصبح له محتوى حقيقيا بعد تشريعات سولون التي حررت المدينـــين وحرمت استعباد الأشخاص مقابل الوفاء بالدين . و من ثم أمنت أفراد هذه الطبقة على حريتهم كآدميين وهي الحرية التي يجب أن تتوفـــر قبل التفكير في أية حقوق على الصعيد السياسي .

ثم تأتي النقطة الثالثة التي تخص العامة في تشريعات سولون وهي تتعلق بالناحية القضائية وتنص على قيام « المحاكم الشعبية» Heliaia . وفي هذه المحاكم ، التي أصبحت ملمحا أساسيا من ملامح المجتمع الأثيني منذ عهد سولون ، أصبحت الهيئة القضائية تتكون من أعداد كبيرة من كافة المواطنين بما فيهم أفراد الطبقة الاجتماعية الرابعـــة. وكان المواطنون الجالسين في صورة هيئة قضائية في هذه المحاكـــم ينظرون فيما يقدم أمامهم من شكاوى وتظلمات واتهامات . ونحـــن نعرف أن هذه المحاكم أصبحت في فترة لاحقة تسيطر سيطرة تامـــة على تصرفات الهيئة التنفيذية بما في ذلك حق محاسبة أعضاء هذه الهيئة والنظر في الشكوى ضد أي إجراء يتخذه أحد أعضاء هذه الهيئة ضد

أحد المواطنين . ولكن من الأرجح أن مثل هذه الحقوق الواسعة للمحاكم الشعبية جاءت نتيجة تطورات طويلة ، وربما كان من الأقرب إلى الصواب في هذا الصدد ، أن نفترض أن دور هذه المحاكم ، عندما ابتدأت في عهد سولون ، كان ينحصر في الرجوع إليها لاستئناف أية أحكام يتجاوز فيها أعضاء الهيئة التنفيذية حدود السلطاة المخولة لهم — و هو دور يشكل ، على أي الأحوال ، البداية الأولى للسلطة القضائية الكبيرة التي أصبح يتمتع بها المواطنون الأثينيون عندما وصل المجتمع الأثني إلى آخر مراحل تطوّره .

ج — بيزستراتوس وعصر الطغاة

هكذا وضع سولون . من خلال تشريعاته (في أوائل القرن السادس ق . م .) ، الأساس الدستوري لنظام الحكم الذي يقوم على الثروة . وهو الحكم الأوليجركي . أو حكم الأقلية ° التي تضمّ طبقة ملاّك الأرض وطبقة التجار . كما أعطى طبقة العامّة قدرا من الحقوق يتناسب مع مقدار الوعي الطبقي الذي اعتقد أنهم وصلوا إليه . ولكن اذا كانت هذه التشريعات قد أرضت طبقة التجار إلى حد كبير . فإنها لم تحلّ في الواقع كلّ المشاكل التي كان يعاني منها طبقة العامة بفئاتها المختلفة . كما أن نسبة من الطبقة الأرستقراطية القديمة من ملاك الأرض لم ترض بالدستور الذي أنقص بالضرورة من امتيازاتها القديمة . وقد أدى هذا الوضع المتفجر إلى انقسام في المجتمع الأثيني اتخذ صورة أحزاب ثلاث سمّيت حسب الأماكن التي يقيم فيها سكان أتيكه وهي : حزب الجبل حيث يوجد فقراء العامّة من الرعاة . وحزب السهل حيث يوجد المتشددون من الطبقة الأرستقراطية وحزب الساحل حيث يوجد التجار ، وانتهى هذا الانقسام إلى صراع بين الأحزاب الثلاث تمخّض عن انتصار حزب الجبل الذي كان

يتزعمه جندي شاب اسمه بيزستّراتوس Peisistratos (الذي ربما كان في الحقيقة من خارج طبقة العامة) استغلّ هذا النصر لينصب نفسه حاكما لأثينه حوالي عم ٥٤٥ ق . م .

وقد كان الحكم الذي سار عليه بيزستّراتوس حكما فرديا في حقيقة ، ولكنه لم يحاول أن يمارس سلطته المستبدة هذه بشكل سافر وإنمّا اكتفى بجوهر السلطة وترك الواجهة الدستورية للحكم. على أنه، من ناحية آخرى، قام بعدد من الخطوات التي أدت ، بجانب تدعيم حكمه ، إلى ازدهار المجتمع الأثيني في أكثر من اتجاه . وفي هذا الصدد نجد أنه قام بمصادرة بعض أراضي الطبقة الأرستقراطيةوتوزيعها على المعدمين من بين أفراد الطبقة العامّة . كذلك قام بدفع عجلة النشاط التجاري إلى الأمام ، فأحكم السيطرة على مداخل البحر الأسود التي كانت تتحكم في طريق قوافل السفن المحلية بالقمح والآتية من شواطىء هذا البحر واللازمة للمجتمع الأثيني ، وذلك بالاستيلاء على حصن سيجيون Sigeon على الشاطىء الآسيوى لمضيق الهللسبونتوس Hellespontos (عند مداخل البحر الأسود) ثم بإقامة مستعمرة أثينية في سستوس Sestos على الشاطىء الأوروبي المقابل لسيجيون، إلى جانب الاستيلاء على شبه جزيرة الخرسونيسوس Chersonnesos التي تطلّ من الشمال على طريق القوافل المذكور . ولم يقتصر بيزستّراتوس على هذا ، وإنما مدّ اهتمامه إلى الاعتناء بالنواحي الفنية والأدبية في المجتمع الأثيني ، فأقيمت في عهده مجموعة كبيرة من المعابد ، كما ظهر في عهد تسبيس Thespis الذي كان ظهوره بمثابة ميلاد الفنّ المسرحي اليوناني . [٢] وأخيرا ، وليس آخرا ، فينسب

---

(٢) راجع عن تسبيس الباب الخاص بالمسرح في القسم الثالث من هذه الدراسة .

إلى عهد بيزستراتوس وإلى تشجيعه تدوين ملحمتي الإلياذة والأوديسية (التي اعتقد اليونان أنهما من أعمال هوميروس) لأول مرة ، بعد أن كانت أشعارهما تنتقل شفاهة من جيل إلى جيل حتى ذلك الوقت .

على أن الأمور مالبثت أن تغيرت حين مات بيزستراتوس وخلفه في الحكم ابنه هبياس Hipplas ، الذي مالبث ، بعد بداية لينة في حكمه ، أن عمد إلى الإرهاب بعد حادث أدىّ إلى مقتل أخيه هبارخوس Hipparchos . وقد وصل هذا الإرهاب حدّ جعل الأثينين (وفي الواقع اليونان عامة) يعطون اللقب الذي كان يتخذه الحاكم الذى يسمى على هذا النمط من الحكم الفردى وهو لقب تيرانوس Tyrannos معنى الطاغية رغم أنه لم يكن يؤدى ، من الناحية اللفظية أكثر من معنى « الحاكم » أو « السيد » . »

د ـ كليسثنيس والدستور الديمقراطي

على اي الأحوال انتهي الأمر في أثينه بثورة على هبياس انتهت بطرده من المدينة ، وعادت الأوضاع الدستورية إلى ما كانت عليه قبل عهد أسرة بيزستراتوس. وفي ذلك الوقت كان يرأس الجهاز التنفيذي في أثينة شخص اسمه كليسثنيس Kleisthenes . أقدم على معالجة الأمور بوضع دستور يصقل دستور سولون ويستكمله ويحول دون عودة الحكم الفردي مرة أخرى ويقضى على عوامل الشقاق والصراع الحزبي الذي أدىّ إلى ظهور هذا الحكم الفردي.

ودون دخول في تفاصيل الدستور الذي وضعه كليسثنيس والذي بدأ العمل به في ٥٠٣ ــ ٥٠٢ ق . م سأعرض لاركانه العامة التي مثلت حلا للمشاكل المذكورة أو لبعضها وشكلت تطورا نحو العمل الديمقراطي منذ التشريعات التي وضعها سولون . واول هذه الاركان

هو اعادة تقسيم المجتمع الاثيني إلى قبائل من نوع جديد تقوم على أساس مكاني لتصبح قاعدة للتنظيم الاداري وللحقوق السياسية بدلا من التقسيم القديم الذي كان يقوم على رابطة القرابة أو الدم . فبعد ان كانت اتيكه مقسمة إلى اربع قبائل كل منها مقسمة إلى عدد من العشائر تضم كل واحدة منها عددا من الاسر — وهو التقسيم الذي كان يعطي الارستقراطيين في الحقيقة قبضة حديدية على الجهاز الاداري والذي كان اساسا لحقوق المواطنة (أو الحقوق السياسية) يقصي عنها كل من لا ينتمي بحكم المولد إلى هذه القبائل أو إلى تقسيماتها — بدلا من هذا التقسيم أعاد كليسثنيس تقسيم أتيكه إلى عشرة قبائل : اساس كل منها هو المكان ، كما ذكرت ، وكل قبيلة **phyle** مقسمة إلى ثلاثة أقسام يدعى الواحد منها الثلث **trittys** موزعة بين أقسام اتيكه الطبيعية (الساحل والسهل والجبل) ، وكل من هذه هذه الاقسام أو الأثلاث مقسم إلى عدد من الاحياء (يدعى كل منها **demos**) تتراوح مساحته من قسم لاخر حسب المساحة الكلية للقسم . وقد جعل كليسثنيس عضوية الحي أساسا للمواطنة والحقوق السياسية المترتبة عليها ، كما جعل هذه الأحياء أساسا للتنظيم الإداري .وهكذا قضى على التكتل الطائفي الذي رأيناه يؤدي إلى ظهور الأحزاب المتناحرة : حزب الساحل الذي يمثل التجار ، وحزب السهل الذي يمثل أصحاب الأرض . وحزب الجبل الذي يمثل الرعاة .

على أن أهم انعكاس للرابطة المكانية الجديدة التي حلت محل رابطة الدم القديمة ، ظهر في التنظيم الجديد الذي اتخذه ، في دستور كليسثنيس ، مجلس الشورى — وهو المجلس الذي رأيناه يبرز ضمن تشريعات سولون.فبعد أن كان هذا المجلس مكونا من اربعمائة عضو، مائة من كل من القبائل الأربعة (ومن ثم كانت عصبية القرابة أو

رابطة الدم تلعب دورا كبيرا في تكوينه) ـ أعيد تنظيمه الآن ليصبح عدده خمسمائة عضو . خمسين عن كل قبيلة من القبائل الجديدة يختارون بالاقتراع من بين الاحياء التي تنقسم إليها القبيلة ، كل حي يقدم العدد الذي يتناسب مع مساحته وعدد سكانه . وقد حددت مدة العضوية بسنة واحدة . وحدد عدد المرات التي يمكن للأثيني فيها أن يصبح عضوا في هذا المجلس بمرتين في حياته . وقد كانت سلطة هذا المجلس من الناحية التشريعية هي تحضير وتنظيم الاقتراحات ومشروعات القوانين . ثم تقديمها إلى الجمعية الشعبية لتناقشها ثم تصدر القوانين على أساسها .

والمغزى الديمقراطي لهذا التنظيم الجديد ، من الناحية التشريعية يظهر في ناحيتين رئيسيتين . الناحية الأولى هي أن المجلس ، بطريقة تكوينه الجديدة ، إلى جانب زيادة عدده بمائة عضو عما كان عليه منذ صدور تشريعات سولون . أصبح ممثلا للمجتمع الأثيني ككل وليس ممثلا للروابط الأسرية القديمة . وبذلك اصبح يمثل قاعدة أعرض مما كان عليه من قبل .

هذا . إلى أن مهمة مجلس الشورى لم تعد تشريعية محضة . فقد أصبحت له في التنظيم الجديد صلاحيات إدارية تتلخص في انه كان يدير الشؤون العامة للمدينة بمعاونة أعضاء السلطة التنفيذية أو الجهاز التنفيذي . وقد كان على هؤلاء أن يقدموا تقريرات إلى المجلس وأن يتلقوا توجيهاته فيما يخص تدبير الشئون العامة بعد الاستنارة بهذه التقريرات . وهكذا اضمحلت السلطة التي كانت في يد الجهاز التنفيذي من قبل ، لتستقر في يد هذا المجلس .

ويبقى الحديث عن الركن الثالث الأساسي في دستور كليسثنيس

وهو قانون النص السياسي Ostrakismos . وبموجب هذا القانون ، أصبح الأثينيون يستطيعون . خلال دورات محدّدة من دورات مجلس الشعب ، أن يصوّتوا على نفي أي زعيم سياسي يرغبون في نفيه بسبب أو لآخر . وقد كان الشرط الوحيد في هذا الصدد هو ان يدلي ستة آلاف شخص من المواطنين المجتمعين على الاقل بأصواتهم حتى يصبح النظر في مسألة النفي قانونيا ، والشخص الذي تسجل اغلبية الاصوات بالموافقة على نفيه يسرى عليه قرار النفي ويكون هذا لمدة عشرة سنوات .

ورغم أن قانون النفي السياسي هذا كان يمثل دون شكّ نوعا من القسوة على الزعماء الذين يصدر في حقهم قرار النفي ، ورغم أنه استغلّ أحيانا ، بشكل حزبي ، للتخلص من أشخاص يخشى منهم على بعض الزعامات الحزبية ، إلاّ أنه ، استكمالا للأركان الديمقراطية الأخرى في دستور كليسثنيس ، وقف حائلا دون أية انتكاسة قد تصيب نظام الحكم الأثيني لتعود به إلى الحكم الفردي .

٢ ـ النظام الاسبرطي

كان هذا هو الحديث عن نظام الحكم في المجتمع الأثيني . وقد رأينا هذا المجتمع ، بسبب موارده المتكاملة ، يسير في تطور متوازن ومطّرد يبتدىء بالنظام الفردي في العصر الملكي ويصل إلى نهايته المنطقية في صورة النظام الشعبي أو الديمقراطي . ولكن الظروف المحلية لم تكن واحدة في كلّ المناطق التي انقسمت إليها بلاد اليونان كما ذكرت في مناسبة سابقة ، وهكذا توقفت بعض هذه المناطق عند مرحلة أو أخرى من مراحل نظم الحكم كما كان الحال . على سبيل المثال ، في منطقة تساليه Thessalia التي تقع في القسم الشمالي

الشرقي لبلاد اليونان . وقد أدى التكوين السهلي الممتد في هذه المنطقة إلى وجود قدر كاف من الأراضي الزراعية ومن المراعي الواسعة مكّن الطبقة الأرستقراطية من أصحاب هذه الأراضي من الاستمرار في السيطرة على المجتمع الموجود في هذه المنطقة طوال الفترة التي عرفت فيها بلاد اليونان نظام دولة المدينة . دون أن يتطور الحكم الأرستقراطي إلى المراحل التالية من نظم الحكم. كذلك نشهد هذا التوقف في منطقة يونانية أخرى هي جزيرة أيجينه Aegina التي تقع عند مدخل الخليج الساروني عند أطراف القسم الشمالي الشرقي من شبه جزيرة البلوبونيسوس (شبه جزيرة المورة حالياً) . ذلك أن السطح الجبلي الرئيسي لها هو التجارة وهكذا سيطرت طبقة التجار على مجتمع هذه الجزيرة منذ فترة مبكرة من تاريخها ليصبح نظام الأقلية التجارية هو النظام الذي توقف عنده هذا المجتمع .

أ ـ ظهور المجتمع الاسبرطي

على أن مجتمعا ثالثا ، هو المجتمع الاسبرطي ، يستحق منا وقفة أطول بسبب نظام الحكم المتداخل الذي عرفه هذا المجتمع . وهو نظام أدى إلى تكوين له صفة خاصة برزت من خلاله اسبرطه Sparta لتصبح ، إلى جانب أثينه . إحدى المدينتين الرئيسيتين اللتين عرفهما نظام دولة المدينة في بلاد اليونان . ونحن لا نعرف في الحقيقة شيئا محققا أو كثيرا عن البدايات الأولى للمجتمع الاسبرطي سوى أنه ارتبط بغزو القبائل الدورية التي اجتاحت بلاد اليونان من الشمال لتستقر في آخر المطاف في بعض أقسام شبه جزيرة البلوبونيسوس . فقد استولى هؤلاء الغزاة على منطقة لاكونيه Lakonia في جنوبي شبه الجزيرة حيث يوجد الوادى الخصيب لنهر يوروتاس Eurotas ؛ وهي منطقة كانت تضم بعض التجمعات السكانية ، وأطلقوا على أنفسهم

اسم « اللاكيدايمونيين » . وبالتدريج نشأت في وسط هذه المنطقة مدينة اسبرطه التي أصبحت المركز الحصين لهؤلاء الغزاة .

ويبدوا أنّ هؤلاء الاسبرطيين ، أو هذا القسم الذي استقر في اسبرطه من الغزاة الدوريين ، كانوا يشكلون كتلة منظمة متماسكة في فترة الغزو ومن ثم كانوا أكثر بأسا من بقية القبائل الدورية الغازية ، فلم يندمجوا معهم أو مع من تبقى من السكان الأصليين الذي لم يفرّوا أمام هذه القبائل ، وإنما آثر الاسبرطيون أن يظلوّا محافظين على تماسكهم كطبقة حاكمة تسيطر على المقيمين في منطقة لاكونيه عن طريق التسلط الذي يحتفظون من خلاله بكافة الحقوق السياسية ، بينما أطلقوا على هؤلاء السكان تسمية البيريؤيكوي Perioekoi وهي تسمية معناها « السكان المحيطون » — أي المحيطون باسبرطه . ورغم أن هؤلاء « السكان المحيطين » كانوا احرارا ، إلا أنهم لم يكونوا يتمتعون بأن حقوق سياسة . بعد ذلك دخل الاسبرطيون في حربين مديدتين ومريرتين مع منطقة مسّينية Messenia الواقعة إلى غربي لاكونيه ، مرة في القرن الثامن ق . م . ومرة في القرن السابع ق . م . بغرض الاستيلاء على هذه المنطقة ، وهي أخصب مناطق شبه جزيرة البلوبونيسوس ، وانتهى الأمر باستيلاء الاسبرطيين على هذه المنطقة والهبوط باغلب سكانها إلى مرتبة العبيد Helotai .

وقد كانت نتيجة هذا الظرف التاريخي الاقتصادي المحلي أن أصبح الاسبرطيون أقلية حاكمة وسط محيط من السكان المعادين لهم أو المتحفزين ضدّهم أو على الأقلّ الساخطين عليهم ، سواء في ذلك سكان البلاد الأصليين من أهل لاكونيه ، أو سكان ميسينيه الذين غلبوا على أمرهم وسحبت منهم حريتهم ليصبحوا عبيدا . وفي ضوء هذا الوضع نجد الاسبرطيين يتبعون نظاما اجتماعيا وسياسيا من شأنه

أن يمكنهم من المحافظة على تماسكهم وسيطرتهم وسط هذه الأغلبية المعادية .

ب ـ التنظيم الاجتماعي والاقتصادي

والنظام ، الذي تتضمنه تشريعات نسبها الاسبرطيون إلى شخصية يحمل صاحبها اسم ليكورجوس Lykourgos [٤] ، كان يهدف ، في شقه الاجتماعي، إلى تنشئة الاسبرطيين تنشئه جماعية خشنه تجعل من المجتمع الاسبرطي مجتمعا عسكريا في المقام الأول ، بحيث يشكّل الاسبرطيون جيشا قائما مستعدا للقتال في أية لحظة (على عكس بقية المدن اليونانية التي كانت تعتمد في قوتها العسكرية على التعبئات المؤقتة من بين المدنيين حين تدعوالى هذه التعبئات ظروف الدفاع أو الهجوم) وعلى وجه التحديد، مستعدا لقمع أيّ تمرّد يقوم به « السكان المحيطون » أو العبيد . وبمقتضى هذا النظام فإنّ الأطفال الذين يولدون في عائلات اسبرطية سواء أكانوا ذكورا أو إناثا . كانوا يخضعون لإشراف الدولة من لحظة ولادتهم . فالأصحاء منهم يوضعون في رعاية أمهاتهم أو مربيات من قبل الدولة . اما الضعفاء أو المشوّهون فقد كانت الدولة تأمر بتركهم في العراء حتى يموتوا أو يلتقطهم أحد العبيد . فإذا بلغ الطفل من الذكور العام السابع من عمره أخذته الدولة من أسرته لتدخله ضمن مجموعة يرأسها أحد الشبان الاسبرطيين ، حيث يمارس تدريبات

---

(٤) اختلفت المصادر القديمة والمراجع الحديثة على شخصية ليكورجوس ، وتتأرجح الاراء حول ان المشرع كان وصيا على احد الملكين للاسبرطيين ، او انه كان الها ، وذهب البعض الى ان التشريعات الاسبراطية لم تكن من وضعه . راجع عن التشريعات وعن شخصية ليكورجوس ، فيما يخص المصادر :

Plutarchos: Lykourgos. Herodotos: I, 65; 147; VI, 51. Xenophon : Lakedaimonion Politeia. Aristoteles: Politika II.

السير العسكري والرياضة البدنية ويتعلم الموسيقى والقراءة . في هذه المجموعات كان هؤلاء النشء يحيون حياة خشنة قوامها طعام عادي بسيط يقومون بطهيه بأنفسهم ومكان النوم على بعض الأعشاب الجافة التي يجمعونها من على شاطىء نهر اليوروتاس . وحتى تعوّد الدولة هؤلاء الصبيان على نوع من إمكان التصرّف في أوقات الشدّة فقد كانت تشجعهم على السرقة ، وبخاصّة سرقة الطعام ، فإذا ضبط أحدهم كان يعاقب بالضرب لا لأنه ارتكب جريمة السرقة ولكن لأنّه لم يستطع أن يتفادى القبض عليه متلبّسا بهذه الجريمة

فإذا بلغ الاسبرطي سنّ الرشد فإنه يبدأ في مزاولة حياة عسكرية كجندي في الجيش الوطني. حقيقة كان له بيت وأسرة . إلاّ أنه كان لا يعيش في بيته أو مع أسرته ، كما لم يكن يشغل وقته في العمل سعيا لتهيئة أسباب العيش لهذه الأسرة ولكنه كان يكرس وقته للتدريب العسكري.فكل مواطن اسبرطي كان عليه أن ينضم إلى إحدى وحدات الجيش الوطني وأن يمضي وقته كلّه تقريبا في نوادي خاصة (syssic'tia أو phiditia) يشترك فيها مع الآخرين في عدد من الوجبات الجماعية على الأقل . ولمّا كان هذا يستوعب كلّ وقته أو أغلب . فإنّ الدولة كان عليها أن ترعى شئونه المادية هو وأسرته وذلك عن طريق إعطائه مساحة كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة وعائلة أو أكثر من العبيد helotai لفلاحتها والعمل فيها . وكان على هؤلاء العبيد أن يعطوا الاسبرطي الذين يعملون في أرضه نصف العائد من هذه الأرض ، كما كان عليهم أن يقوموا على خدمته (هو وأسرته) سواء في أوقات السلم ، أو في ميدان القتال . وهذا القسم من العائد الذي يقدّمه العبيد لسيّدهم الاسبرطي كان جزء منه يذهب لتغطية نفقات المعيشة بالنسبة لأسرته والجزء الآخر لتغطية

نفقات عضوية في النادي الذي ينتمي إليه . كذلك لم يكن مسموحا للاسبرطي أن يتعامل في التجارة أو الصناعة ، لنفس الهدف الذي من أجله لم يكن مسموحا له أن يعمل في الأرض — وهذا الهدف ، كما أسلفت ، هو التفرغ للحياة العسكرية . وهكذا تركت الاعمال التجارية والصناعية لطبقة البيري أويكوي ، فكان هؤلاء يعملون في مناجم الحديد الغنية في لاكونية ، يصنعون منها الأسلحة للجيش والأدوات اللازمة للزراعة وللحياة المنزلية ، كما كانت المعاملات التجارية محصورة في أيديهم بالكامل :

ج — التنظيم السياسي

أما عن الجانب السياسي ، أو الجانب المتعلق بنظام الحكم ، في اسبرطة ، فإنّ الدستور الاسبرطي كما نعرفه بعد تطوّره الكامل كاد يقوم على دعائم أربعة تتمثل في : ملكين على رأس الجهاز الدستوري مجلس للشيوخ ، مجلس شعبى وعدد من المشرفين . وفيما يخصّ الملكين فقد رأينا أن النظام الملكي الذي مرّت به المدن أو الدويلات اليونانية بوجه عام يزدهر في وضع تتركز فيه السلطات في يد الملك في كلّ مدينة ثم يندثر ويخلي مكانه لحكم الطبقة الأرستقراطية . أما في اسبرطه فقد بقيت الملكية قائمة في دستور المدينة حتى بعد أن بلغت آخر مراحل تطوّرها . ولكنها ، إذا كانت قد بقيت ، إلا أن سلطات الملك تقلصت إلى حد كبير بسبب عاملين رئيسيين : والعامل الأول هو الصفة الغريبة التي لازمت النظام الملكي في اسبرطة وجعلتها مختلفة عن غيرها من المدن اليونانية من البداية وأعني بهذه الصفة وجود ملكين على رأس الدولة بدلا من ملك واحد . ويبدو أن أصل هذه الملكية المزدوجة يرجع إلى وجود قبيلتين رئيسيتين قامت مدينة اسبرطة نتيجة لاتحادهما هما قبيلة الآجيديين Agidae وقبيلة اليوريبونتيين Eurypontidae ،

وأن شرط اتفاق هاتين القبيلتين على الاتحاد هو أن يكون على رأس المدينة ملك من كلّ منهما . وقد كانت النتيجة المنطقية لهذا الازدواج هي أن السلطة لم تكن مركزه في يد ملك واحد وإنما كانت موزعة بين الملكين . وفي الحقيقة فإنّه يبدو من المرجح أن بقاء النظام الملكي في اسبرطة حتّى بعد أن سقط هذا النظام في بقية المدن اليونانية يرجع إلى هذه الصفة المزدوجة التي كان فيها كل ملك رقيبا بالضرورة على الملك الآخر ومن ثم مقيدا لسلطاته ، الأمر الذي حال ، إلى جانب ظروف أخرى ، دون السيطرة المستبدة التي تؤدي عادة إلى العمل على التخلّص الكامل من النظام الفردي الملكي .

أما العامل الآخر الذي قلّص السلطة الملكية في أسبرطة فهو التطوّر الطبيعي الذي رأيناه في بلاد اليونان بشكل عام والذي شهد ازدياد قوة الطبقات الأرستقراطية التي زحفت بالتدريج على سلطات الملك أو صلاحياته . وفي هذا الصدد فاننا نشهد تقلّص سلطات الملكية الاسبرطية في الصلاحيات العسكرية والقضائية والدينية — وهذه الأخيرة كانت صلاحيات لها قيمتها في العصر القديم الذي كان الدين يلعب دورا رئيسيا في المجتمع ، ومن ثم كانت الشعائر الدينية أمرا لايستهان به ، ليس على الصعيد الفردي فحسب وإنما كذلك على صعيد الحياة العامة . وفيما يخصّ الصلاحيات العسكرية كانت للملكين في البداية صلاحيات مطلقة : فقد كان من حقهما أن يعلنا الحرب على أيّ منطقة يريدان ، وتوقيع العقوبات على أي مواطن اسبرطي يحاول عرقلة هذه الإرادة . فإذا نشبت الحرب فهما القائدان للمعركة بحكم صلاحياتهما العسكرية ، وفي أيديهما السلطة المطلقة في الحكم بالموت على أي مواطن يقوم بتصرف يعتبرانه مخالفا للانضباط العسكري أو مخلاّ بسير المعركة. ولكن في فترة لاحقة نجد أن قيادة الجيش في المعركة أصبح قاصرا

على واحد أو الآخر من الملكين . وأصبح الشعب الذي يقرّر أيّا منهما هو الذي يتولى هذه القيادة . كذلك أصبح الملك الذي يقود معركة ما مسئولا أمام الشعب عن تصرفاته في أثناء المعركة .

وفيما يخصّ الصلاحيات القضائية للملكين نجد أنها تنحسر كذلك إلى حدّ بعيد بحيث لم يعد في أيديهما إلاّ الفصل في عدد من القضايا البسيطة ، مثل حالات التبني ، وزواج الوريثة التي مات أبوها قبل أن يزوجها ، والمشاكل الناتجة عن شق الطرق . والشيء ذاته نجده فيما يخصّ الصلاحيات الدينية التي تراجعت هي الأخرى تدريجيا وإن كان هذا التراجع أقل مما حدث في الجانب القضائي. فبينما ظلّت في أيديهما صلاحية الإشراف على تقديم القرابين باسم المدينة للإله أبوللو كلّ شهر ، وعلى تقديم القرابين اللازمة قبل الحملات العسكرية إلاّ أنهما لم يعودا القائمين الوحيدين على المسائل الدينية بالنسبة للشعب وإنما شاركهما في ذلك أفراد آخرون .

أما عن مجلس الشيوخ أو مجلس الجيروسيه Gerousia كما كان يدعى في اسبرطه ، فقد كان يتكون من ثلاثين عضوا من بينهم الملكان بحكم منصبهما. وفيما عدا الملكين فقد كان سنّ الأعضاء الثمانية والعشرين يجب أن يكون فوق الستين عاما . وكانت عضويتهم تمتد مدى الحياة ويقوم بانتخابهم بطريقة الصياح أو التصفيق العام ممّن يتوسمون فيهم « الفضيلة » التي لنا أن نتصوّر أنها رزانة التصرف والتجربة الواسعة . وكانت صلاحياتهم تشمل تحضير المسائل التي تعرض أمام مجلس الشعب كما كانت لهم صفة استشارية أعطتهم ، من الناحية الواقعية نفوذا كبيرا في المسائل السياسية . كذلك كان في أيديهم الفصل ، على هيئة محكمة ، في القضايا الجنائية . على أن المسألة الجديرة بالملاحظة فيما يخص هذا المجلس هي أن اعضاءه الذين كان ينتخبهم

المجلس الشعبي الذي يضم عامة الشعب لم يكونوا هم أنفسهم من عامة الشعب ، وإنما كان الشرط الأساسي لعضويتهم أن يكونوا من الأسر الأرستقراطية ، ومن ثمّ كانوا يشكلون عنصرا طبقيـــا في الدستور الاسبرطي يشكل حكم الأقلية الأرستقراطية .

والركن الثالث من أركان الجانب السياسي في الدستور الاسبرطي كان يشكله المجلس الشعبي أو مجلس الأبلّة Apella الذي كانت عضويته تشمل كلّ اسبرطي فوق الثلاثين عاما من عمره. وكان اجتماع هذا المجلس يتم مرة كل شهر بدعوة ربما كان يوجهها الملكان فـــي العصور القديمة ولكن في العصور التاريخية كان يوجهها المشرفـــون Ephores . وكانت صلاحيات هذا المجلس تشمل انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ (الجيروسيه) وهيئة المشرفين وأعضاء الجهاز التنفيذي ، كذلك كان في يد المجلس الشعبي تقرير المسائل الخاصّة بالحـــرب والسلام والسياسة الخارجية . وحسم المشاكل المتعلقة بوراثة عـــرش الملكين . وهكذا يبدو هذا المجلس ركيزة للحكم الديمقراطي فـــي الدستور الاسبرطي .

على أن هناك اعتبارين ينبغي أن ندخلهما في حسابنا قبل أن نطلق هذه الصفة الديمقراطية بشكل مطلق على هذا المجلس . وأول هذيـــن الاعتبارين هو أنّ أعضاء المجلس الشعبي الاسبرطي لم يكونوا ينظرون في المسائل المطروحة أمامهم بطريقة المناقشة قبل أن يصلوا فيها إلى قرار ، وإنما كانت الطريقة هي أن يبدوا موافقتهم أو عدم موافقتهم عـــلى المسألة المطروحة عن طريق الصياح الذي يعبر عن الموافقة أو الرفض بشكل عام . فإذا بدا الانطباع العام لهذا الصياح غير واضح في تحديد رأي الأعضاء المجتمعين لجأ منظمو الاجتماع إلى تقسيم هؤلاء الأعضاء إلى مجموعتين ، احداهما تمثل الموافقين والأخرى تمثل الرافضين حتى

يمكن تحديد الاتجاه الذي تشير إليه أغلبية الأصوات . ومعنى هـذا أن القرار في أي مسألة كان حقيقة في يد مجلس الشعب ولكن هـذا المجلس كان يفتقر إلى ركن هام من أركان الوصول إلى هذا القرار ، وهذا الركن هو تمحيص الأمر وتقليبه على وجوهه المختلفة . ومـن ثم إلقاء ضوء واضح على تفاصيله وعلى الاختيارات والبدائل المتصلة به عن طريق المناقشة . أما الاعتبار الثاني في صدد الممارسة الديمقراطية لمجلس الشعب الاسبرطي فهو الحق الذي كان يتمتع بـه أعضـاء الهيئة التنفيذية وأعضاء مجلس الشيوخ ، وقد كانوا يحضرون جلسات مجلس الشعب . وهذا هو « حق الانسحاب » من الجلسة إذا رأوا أن القرار الذي توصل إليه اعضاء مجلس الشعب قراراً منحرفا . وقد كان هذا الانسحاب من الجلسة يعطل إصدار القرار الذي توصل إليه المجلس . إذ أن قرار المجلس كان لا يعتبر نافذا إذا تم هذا الانسحاب قبل أن يعلن منظمو الجلسة انفضاضها بشكل رسمي . وهكذا كان « حـق الانسحاب » المذكور يشكل في الحقيقة ضغطا على الممارسة الديمقراطية الكاملة لأعضاء مجلس الشعب .

أما الركن الرابع من أركان النظام السياسي في اسبرطه فيمثلـه « المشرفون » أو الإيفوريس Ephores . ونظام المشرفين في الواقع يميز النظام الاسبرطي عن غيره من النظم السياسية في الدويلات اليونانية الأخرى — فهي لم تـكن تعرف هـذا النظام . وكان عدد هؤلاء « المشرفين » خمسة أفراد . ويبدو من المرجح أن هذا العدد كـان مرتبطا بعدد القرى الخمس التي قامت اسبرطة نتيجة لإتحادهـا أو توحيدها ، كما يبدو أن بداية هذا النظام جاءت عندما شعر الملوك أن مهمة الإشراف على القضايا المدنية في هذه القرى ، التي أصبحت بعد اتحادها أو توحيدها مناطق من اسبرطه ، اتسع تدريجيا عن قـدرات

الملوك فاضطروا إلى تعيين هؤلاء « المشرفين » للنهوض به . على أن صلاحيات المشرفين التي ابتدأت مقصورة على هذا المجال القضائي الضيق لم تلبث أن نمت وتطورت بحيث أصبحوا في آخر الأمر يضمّون إلى جانبها صلاحيات سياسية على جانب كبير من الأهمية . وهكذا أصبح من بين سلطاتهم الرقابة على تصرفات الملوك (وبهذه الصفة كان اثنان منهم يرافقان الملك في الحملات العسكرية) وتوجيه الاتهام إليه واستدعاؤه للمثول أمامهم إذا بدا في تصرّفاته ما يبرّر ذلك . كذلك كانوا مسئولين عن المحافظة على النظام العام والتطبيق الصارم للقانون في الدولة ، كما كانوا يشكلون الهيئة القضائية التي تنظر في قضايا البيرى أويكوي أو « السكان المحيطين » إلى جانب وضعهم الذي رأيناهم فيه يشكلون الهيئة القضائية العليا في القضايا المدنية بين المواطنين الاسبرطيين . ومع هذا التطوّر لم يعد الملوك هم الذي يعينون المشرفين وإنما اصبحوا يشغلون مناصبهم عن طريق الاقتراع العام من بين صفوف كل الاسبرطيين دون أيّ تحديد .

ويبدو واضحا أنّ التطوّر الذي ادى إلى اتساع سلطاتهم السياسية بهذه الصورة اكتسبوه في أثناء الصراع الذي دار في القرن السابع ق. م. بين طبقة الأرستقراطية التي كانت تحكم اسبرطه بالاشتراك مع الملوك من جهة ، وبين طبقة العامة أو الطبقة الشعبية من جهة أخرى فكانت هذه السلطات السياسية التي حصل عليها المشرفون في حقيقة الأمر تشكل نوعا من التوازن الذي يحفظ ما حصل عليه العامة من مكاسب في اثناء هذا الصراع وبين ما استطاع الملوك والارستقراطيون أن يستبقوه في أيديهم من سلطات – هذا إلى أن الأبقاء على مثل هذا التوازن كانت له في المجتمع الاسبرطي أهمية خاصّة للحفاظ على التماسك الذي كان ضرورة ملحة في هذا المجتمع الذي رأيناه يشكل أقلية لها كل الحقوق السياسية وسط محيط واسع من السكان الساخطين

أو المتحفزين سواء في ذلك « السكان المحيطون » الذين حرمهم الاسبرطيون الحقوق السياسية ، أو العبيد الذين حرموهم الحرية الشخصية .

د – تقييم للنظام الاسبرطي

وتبقى في نهاية الحديث كلمة سريعة عن الدستور الاسبرطي في عمومه . انّ التناسق الذي نلحظه واضحا بين الأركان الأربع للدستور الاسبرطي في تداخلها الذي يضع الحقوق والحدود لكلّ منها على السواء . يبدو وكأنّه عمل مشرع واحد . وفي الواقع فقد ساد اعتقاد (ضمن آراء أخرى) في العصور القديمة يردّ صياغة هذا الدستور إلى مشرّع واحد اسمه ليكورجوس Lykourgos ظهر في بدايات القرن التاسع ق . م . ولكن هذا الاعتقاد تحيط به تفاصيل أغلبها ذو صفة أسطورية جعلت من هذا الاسم شخصية إلهية في بعض الأحيان. وبغض النظر عن اسم ليكورجوس أو عن التفاصيل الأسطورية التي أحاطت به فإنّ هذا التناسق أو التوازن الذي يظهر إلى حدّ كبير في الدستور الاسبرطي قد يشير فعلا إلى أنّ نواة أولى لهذا الدستور قد وضعها مشرّع واحد . ولكن يبدو واضحاً أن الحجم الحقيقي الذي كان عليه هذا الدستور في العصر التاريخي كان نتيجة تطوّر وتفاعل مستمرّ ، وهذا يبدو واضحاً من بعض ما رأيناه من تناقص في سلطة الملوك ومن تزايد في سلطة المشرفين على سبيل المثال . كذلك فإن احتواء هذا الدستور على معالم من كلّ المراحل التي مرت بها النظم السياسية في المدن اليونانية الأخرى دون نبذ ما تقادم منها (كما حدث في هذه المدن الأخرى) بحيث شكل الدستور الأسبرطي في ظاهر الأمر نوعا من التوازن بين هذه المراحل بدلا من أن يشكل تطورا من مرحلة إلى التي تليها – هذه الظاهرة ليس معناها أن النظام السياسي الاسبرطي لم يتطوّر في الحقيقة وإنما مردّها إلى روح المحافظة التي اتّسم بها المجتمع الاسبرطي بحيث استبقى معالم من كلّ مرحلة ، وهذه الروح المحافظة

تنسق مع فكرة التماسك التي سيطرت على هذا المجتمع نتيجة لظروفه التاريخية التي سبقت الإشارة إليها والتي جعلت الاسبرطيين في حالة تحفز دائم للدفاع عن هذا التماسك في وسط محيط من السكان المغلوبين على أمرهم المتحفزين للتمرّد . وهكذا يمكن أن نصف هذا النظام بأنه يمثل في الحقيقة تطوّراً محافظاً ، إذ حين جاء الوقت الذي ينبغي فيه (تمشيا مع التطور العام في المدن اليونانية الأخرى) أن يزول النظام الملكي ليحل محله الحكم الارستقراطي ، قلّص الاسبرطيون سلطات الملكين ولكن بقيت الملكية النظام الأرستقراطي ، وحين جاء الوقت الذي كان ينبغي فيه التطور إلى الحكم الشعبي (الديمقراطي) الكامل، حصل العامة على سلطات ضخمة وأساسية ولكن احتفظت اسبرطة في الوقت ذاته بالعنصر الملكي الوراثي وبمجلس الشيوخ الذي ظل قاصرا على الطبقة الأرستقراطية ، هذا بينما كان عنصر « المشرفين » حارسا على حقوق الشعب وعنصر توازن بين هذه العناصر جميعا .

كذلك نستطيع أن ننظر إلى هذا النظام السياسي من زاوية أخرى تمثل الاتجاه الجماعي الذي ينبثق . هو الآخر عن العمل على الإبقاء على التماسك السياسي في المجتمع الاسبرطي الذي رأيناه يسيطر على هذا المجتمع في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية من حياة الاسبرطيين . فبالقدر الذي نستطيع أن نستنتجه من الدستور المنسوب إلى ليكورجوس نجد الاسبرطيين ينظرون إلى الحكم الفردي المطلق على أنه نقطة ضعف يستطيع أن ينفذ منها أيّ دخيل عن طريق التأثير على شخص الحاكم . ويرون أن الحكم الطبقي بطبيعته يؤدي إلى الحزازات الطبقية ومن ثم إلى تفكك الجماعة ، وأن الحكم الشعبي المطلق الذي يترك لكل فرد ولكلّ طائفة أو أصحاب اتجاه بين المواطنين الحرية الكاملة في التعبير المنفصل عن رأيه عن طريق المناقشة التي تؤدى إلى الاقتناع مرة وتكرس

الاختلاف مرة – يرون في ذلك هو الآخر ، نقطة ضعف يستطيع الدخيل أن ينفذ منها عن طريق استغلال الخلاف في الرأي ليتخذ منه وسيلة لاحداث صدع في الصفوف عن طريق اللعب على المصالح الفردية أو الطائفية وابرازها وتجسيدها وتشجيعها على حساب المصلحة العامة . وفي ضوء هذه النظرة نستطيع أن نفهم أن يقيم الاسبرطيون، أو على الأقل أن يستبقوا ، على رأس السلطة ملكين يكاد كل منهما أن يكون رقيبا على الآخر وليست لهما على أي الأحوال سلطة يمكن أن توصف بأنها مطلقة أو شاملة . وأن يكون هناك مجلس طبقي أرستقراطي هو مجلس الشيوخ يملك تحضير القضايا والمشاريع التي ستطرح أمام مجلس الشعب ويملك تعطيل أو عرقلة رأي مجلس الشعب فيها بصفة مؤقتة ولكنه لا يملك القرار الأخير في هذه القضايا أو المشاريع. ثم يأتي مجلس الشعب الذي كان يملك هذا القرار ولكن بالموافقة أو الرفض فقط دون أن يكون له حق مناقشتها .

ولكن مهما كانت الزوايا التي ننظر منها إلى الدستور الاسبرطي فقد أدى الغرض منه في فترة ظهور اسبرطة كدولة من دول المدينة ، وهو تماسك المجتمع الاسبرطي . وقد ظهرت آثار هذا التماسك واضحة في هذه الفترة. ففي مجال الصراع الذي خاضته اسبرطه مع جيرانها في شبه جزيرة البلوبونيسوس للسيطرة على المنطقة . خرجت اسبرطه ظافرة فانتصرت على أرجوس Argos . كما تمكنت من اخضاع كل من إيليس Elis وسيكيون Sikyon وكورنثه Korinthos لتجعل من هذه المدن أو الدويلات حلفا عسكريا تحت سيطرتها، وقد كان هذا هو أول حلف كبير من نوعه في تاريخ اليونان – وهو حلف جعل من اسبرطه قوة أساسية محركة في السياسة اليونانية في أكثر من مناسبة .

الباب السابع

دولة المدينة بين الصعود والانحدار

تمهيد

الفترة التي شغلتها القرون الثلاث . من أوائل القرن الثامن إلى أوائل القرن الخامس ق.م. ، شهدت إذن ، ظهور الدويلات اليونانية أو دول المدينة في بلاد اليونان . في هذه الفترة ، كما رأينا تطور المجتمع اليوناني من تجمعات سكانية قبلية بسيطة إلى دويلات تبلورت ونضجت كوحدات أو كيانات سياسية خلال المراحل التي مرّت بها ، سواء توقف بعضها عند نظام سياسي واحد ، أو مرّ البعض الآخر بعدد من الأنظمة منتهيا بالنظام الشعبي أو الديمقراطي ، أو وصل البعض الثالث إلى وضع تداخلت فيه عناصر متعددة من هذه الأنظمة. في هذه الفترة كذلك أقدم اليونان على حركة الاستيطان التي دفعت بهم كتجار ومهاجرين إلى شواطىء البحر المتوسط ، سواء في قسمه الشرقي أو قسمه الغربي . حيث أسسوا عديدا من المدن التي سارت في تطوّرها على نمط المدن التي قامت في بلاد اليونان الأصلية في شبه جزيرة البلقان.وفي خلال ذلك كلّه عرفت هذه المدن جميعا عددا من المصادمات

فيما بينها في مجال التسابق على الأسواق الخارجية أو السيطرة على الخطوط التجارية التي تصل إلى هذه الأسواق .

ولكن الفترة التالية ، وهي الفترة التي امتدت عبر القرن الخامس والقسم الأكبر من القرن الرابع ق . م . شهدت مرحلة جديدة تخطت فيها المدن اليونانية الإطار الذي عرفته في فترة الظهور إلى إطار آخر أكثر اتساعا ظهرت فيه ملامح جديدة في حياة المجتمع اليوناني .فعلى الصعيد الخارجي طرأ عنصر جديد على علاقة المدن أو الدويلات اليونانية مع القوى الخارجية الموجودة على المسرح الدولي.فبعد أن كانت هذه العلاقة هامشية أو على أكثر تقدير تمرّ دون صخب شديد في أغلب الأحوال ، نجدها تتطوّر في القرنين الخامس والرابع ق . م. إلى مواجهات مسلحة سواء وجدت هذه القوى في غربي البحر المتوسط أو في شرقيه أو في شمالي شبه جزيرة البلقان . وقد انتصر اليونان في هذه المواجهات أحيانا ، وانهزموا أحيانا أخرى ووصلوا إلى نوع من التعادل أو ما يقترب من التعادل في أحيان ثالثه . ولكنهم أثناء ذلك كلّه لم يستطيعوا في أغلب الأحيان أن يتخلصوا من النزعة الانفصالية التي سيطرت عليهم بدرجات متفاوتة حتى انتهى الأمر بأن تفقد هذه المدن استقلالها وينهار مع فقدان هذا الاستقلال نظام دولة المدينة في جوهره ، حتى وإن ظلّ محتفظا بشكله الخارجي ، في الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م. .

وعلى الصعيد اليوناني ،أو فيما يخص العلاقات بين المدن اليونانية ذاتها ، ظلّ الصدام بين هذه المدن مستمرا على فترات مستمرة أو متقطعة ، كما كان من قبل ، لتكريس مصالح محدودة ، سياسية أو تجارية أو غيرها . ولكن بدأ يظهر إلى جانب هذا الصدام صدام آخر من نـوع

جديد هو الصراع الذي يهدف إلى سيطرة مدينة أو أخرى على بلاد اليونان بأكملها . ولكن رغم أنّ هذه السيطرة التي اتخذت أشكالا تدرّجت من الليونة إلى العنف كانت تحمل بذور الاتحاد بين المدن اليونانية في صورة أو في أخرى ، إلا أنها لم تؤد في النهاية إلى ذلك ، وإنما اصطدمت ، مرة أخرى ، بالنزعة الانفصالية التي وقفت عقبة لا يمكن التغلب عليها في طريق أيّ اتحاد حقيقي في بلاد اليونان ، وحين قام هذا الاتحاد في نهاية المطاف لم يكن في حقيقته أكثر من خضوع جماعي لسيطرة غير يونانية : هي سيطرة الدولة المقدونية.

وأخيرا ، وليس آخرا ، فعلى الصعيد الداخلي الذي يمسّ الحياة اليومية في المدن اليونانية . شهدت الفترة المذكورة أنضج ما عرفه المجتمع اليوناني في مجال النشاط الاقتصادى والتطوّر السياسي فكرا وتطبيقا ، ولكن كلّ ذلك كان يحمل في ثناياه جرثومة ضعفه التي انتهت به إلى التراجع في المجال الاقتصادي وإلى التخلخل والتحلّل في المجال السياسي حتى إذا كان الثلث الأخير من القرن الرابع ق.م. كان نظام دولة المدينة قد فقد مبرّر وجوده كصيغة حضارية يقتنع بها المواطن اليوناني أسلوبا في الحياة .

١ ــ الحروب مع قرطاجة والامبراطورية الفارسية

وأنقل الحديث الآن إلى عرض سريع للعلاقات الخارجية التي أدت إلى المواجهة المسلحة في أوائل القرن الخامس ق . م . بين بلاد اليونان وبين قوّتين كانتا موجودتين على المسرح الدولي آنذاك . وهما قوّة قرطاجة التي كانت تفرض سيطرتها على الثلث الغربي للبحر المتوسط . والامبراطورية الفارسية التي كانت سيطرتها تصل إلى الشواطىء الشرقية لهذا البحر . ورغم أن الصدام بين القوات الفارسية واليونانية قد سبق

الصدام بين بلاد اليونان وقرطاجة بعدة سنوات . فسأبدأ بحديثي عن هذا الصدام الأخير إذ أنه وصل إلى نقطة تعادل حدّية لم يكن لهـا تأثير مستمر على حياة المجتمع اليوناني يتخطى هـذا التعادل طوال القرنين الخامس والرابع ق . م . بينما كان الصدام مع الامبراطورية الفارسية بداية لعدد من التفاعلات شملت هذه الفترة بأكملها سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

أ ـ الحروب مع قرطاجة

والصراع بين اليونان والقرطاجيين جاء نتيجة طبيعية لعاملين رئيسيين : العامل الأول هو سيطرة قرطاجة على الثلث الغربي للبحر المتوسط (الذي ينتهي شرقا عند شواطىء جزيرة صقلية) ومحاولتها الإبقاء على هذا القسم كمجال حيوي اقتصادي بالدرجة الأولى بالنسبة لها ؛ وهو أمر يعتبرا تطورا منطقيا منذ أن أسس الفينيقيون المهاجرون هذه الدولة على قسم من الشاطىء الإفريقي في هذه المنطقة في القرن التاسع ق . م . لتصبح مقدمة للمستوطنات الفينيقية سواء على الشاطىء الإفريقي أو الشاطىء الأوروبي في هـذا القسم من البحر المتوسط . ولم يقتصر هذا التطور على الزعامة السياسية القرطاجية في هذه المنطقة، وإنما تخطاها ليكتسب صفة اقتصادية تجارية تدرجت لتصبح مع الزمن سيطرة تجارية كاملة . أما العامل الآخر (الذي قابل هذا التطور) فهو التوسع اليوناني الاستيطاني في غربي البحر المتوسط ـ الذي ابتدأ في الشطر الأخير من القرن الثامن ق.م . ووصل إلى أقصاه في الشطر الأول من القرن السادس ق . م . لتنتشر المدن اليونانية عبر هذه الفترة على شواطىء القسم الجنوبي من شبه جزيرة صقلية باستثناء شواطئها الغربية . وكما كان الأمر في حالة

قرطاجة ، فقد كان للاستيطان اليوناني ، إلى جانب صفته السياسية ، صفة اقتصادية ، بشكل أو بآخر ، في المقام الأول . وفي ضوء هذين العاملين تكون مقومات الاحتكاك بين اليونان والقرطاجيين قد توفرت ويصبح حدوث هذا الاحتكاك وتطوّره إلى الانفجار أمرا وارداً .

وقد ظهرت البدايات الأولى لهذا الاحتكاك بين الطرفين فعلا في خلال القرن السادس ق . م . حين حاولت مدينة فوكاية Phokaea اليونانية (على الساحل الغربي لآسيه الصغرى) أن تقيم علاقات تجارية (وربما استيطانية) مع الشواطىء الجنوبية الغربية لاسبانيه، فقد تصدّى القرطاجيون لهذه المحاولات التي كانت تبشّر بالنجاح وتمكنوا من قطعها ، كما تصدّوا ، بالاتفاق مع الإترووريين (في إيطاليه) لمستوطنة أقامتها المدينة نفسها في جزيرة قورصقه . على أن الانفجار الحقيقي وقع في خلال العقود الأولى من القرن الخامس ق.م. ، وكان في الواقع مقدمة لعدد من الصدامات امتدت عبر القرنين الخامس والرابع ق . م . وكانت جميعها تدور حول جزيرة صقلية .

وقد وقع أول صدام في ٤٨٠ ق . م . وإن كان الظرف الذي أدّى إليه في الحقيقة صراعا بين المدن اليونانية وبعضها في جزيرة صقلية ، وقف فيه جيلون Gelon حاكم سيراكوزه (كبرى مدن الجزيرة) وبين مناوئيه من الجانب الآخر . إلاّ أن مناوئي جيلون لجأوا إلى قرطاجة لتساندهم في صراعهم معه . وهنا كانت فرصة قرطاجة للتدخل . ولكن يبدو أن تدخّلها كان يستهدف أكثر من مجرد المساندة لطرف يوناني ضدّ طرف يوناني آخر . وهذا يبدو واضحا من حجم الجيش الذي أرسلته قرطاجة إلى المنطقة تحت قيادة هاملكار Hamilcar ، وهو حجم يبدو من ضخامته أنّه يتخطّى هدف المساندة إلى محاولة

الغزو الفعلي للجزيرة . على أنّ المعركة انتهت بانتصار جيلون (اليوناني) الذي فرض على قرطاجة تعويضا كبيرا . وإن كان لم يتابع نصره الحاسم بغزو المستوطنات الفينقية الثلاثة الصغيرة التي كانت تقع على الشاطىء الغربي للجزيرة والتي كانت تقع تحت حماية قرطاجة .

أما الصدام الثاني بين اليونان والقرطاجيين فلم يكن مباشرا، وإنما وقع بين سيراكوزة في ٤٧٤ ق.م. على عهد حاكمها هييرون Hieron وبين الإتروريين (في إيطالية) الذين كانوا حلفاء للقرطاجيين في فترة سابقة.وفي هذا الصدام أحرز هييرون انتصار بحرياعلى الإتروريين في موقعة كوماي Cumae (على القسم الجنوبي من الساحل الغربي لإيطاليه) . وإذا كانت الأمور قد ظلّت هادئة بين اليونان والقرطاجيين حتى العقد الأخير من القرن الرابع . فإن قرطاجة كانت تستعدّ طوال هذه الفترة لصدام آخر مع اليونان في صقلية .

وقد تم هذا الصدام فعلا في ٤٠٩ ق . م . حين تدخلت قرطاجه مرة أخرى في النزاع بين المدن اليونانية في صقلية ، وكان القائد القرطاجي هو هانيبعل (غير هانيبعل الذي حارب الرومان في العقدين الأخيرين من القرن الثالث ق. م.) حفيد هاملكار الذي هلك في الصدام الأول . كما كان هدف الغزو من وراء التدخل أكثر وضوحا هذه المرة مما كان عليه في ذلك الصدام ، إذ مالبث القائد القرطاجي أن بدأ باخضاع المدن اليونانية على الساحل الجنوبي للجزيرة بشكل منظم. وبعد أربع سنوات اضطر ديونيسيوس . الذي أصبح حاكما لسيراكوزه في ٤٠٥ ق . م . أن يقبل صلحاً سيطر القرطاجيون بمقتضاه على القسم الأكبر من صقلية . وقد حاول ديونيسيوس أن يشنّ حربا انتقامية على القرطاجيين في ٣٩٦ ق.م. ولكنها لم تكن ناجحة إذ تعرضت سيراكوزه لحصار قرطاجي كاد يسقطها ، ولكن الأمور تغيرت بعد

ذلك إذ تمكن ديونيسيوس من دفع السيطرة القرطاجية بحيث لم يتبق تحت هذه السيطرة إلاّ الطرف الغربي للجزيرة .

وبهذا يكون الوضع في غربي البحر المتوسط قد عاد إلى نقطة البداية التي رأيناها في بداية الصراع بين اليونان والقرطاجيين . وقد ظل هذا الخطّ الحدّي بين الطرفين على ما هو عليه حتى بعد أن أقدم القرطاجيون على محاولة للتوسع مرة أخرى على عهد أجاثوكليس Agathokles (الذي حكم سيراكوزه بين ٣١٧ و ٢٨٩ ق. م.) وكان معنى هذا في الحقيقة ، من جانب اليونان ، أن توسعهم في غربي المتوسط قد توقف عند المرحلة التي كان قد توصّل إليها قبل بداية القرن الخامس ق . م .

ب ـ الحروب مع الامبراطورية الفارسية

في القرن السابع والنصف الأول من القرن السادس ق . م كانت المدن اليونانية الممتدة على الشريط الساحلي الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى تخضع لمملكة ليديه الواقعة في القسم الغربي من وسط شبه الجزيرة ، وإن بقيت هذه المدن محتفظة بحكمها الذاتي الذي مارسته في تصريف شئونها الداخلية وفي علاقاتها الخارجية ، التي كانت تجارية في أغلبها ، مع المدن اليونانية في بلاد اليونان الأصلية الواقعة في شبه جزيرة البلقان . ولكن في بداية النصف الثاني من هذا القرن غزا الامبراطور الفارسي مملكة ليديه (في ٥٤٨ ق.م.) وأخضع معها المدن اليونانية الآسيوية .

ولم يكن إخضاع هذه المدن اليونانية صعبا في الحقيقة . فقد كانت تعاني من الانقسام فيما بينها ، بينما كانت المدن اليونانية الأوروبية

(في شبه جزيرة البلقان) بعيدة عنها . كما كانت في ذلك الوقت في شغل شاغل بتطوراتها السياسية الداخلية التي كانت تمرّ في عدد منها . مثل أثينه ، بمرحلة دقيقة وحاسمة . وفي الواقع فإن المدن اليونانية الآسيوية لم تبال كثيرا بانتقالها من السيطرة الليدية إلى السيطرة الفارسية فقد بقيت أمورها على ما هي عليه دون تغيير ملموس . بقي لها حكمها الذاتي وعلاقاتها الخارجية كما ظلّت تشكل مراكز تجارية وصناعية هامّة . وكلّ ما طرأ عليها في هذا الصدد هو تعهّد من جانبها بأن تدفع جزء من دخلها للفاتحين الفرس وأن تقدم عددا من السفن والجنود للامبراطورية الفارسية في حروبها المستمرة ضدّ بابل ومصر .

ولكن الأمور اتخذت مسارا جديدا حين بدأ الفرس يتدخلون بشكل متكرر في النزاعات التي كانت تنشب داخل كلّ مدينة حول الشكل الذي يتخذه نظام الحكم . وهو تدخل كان الفرس يساندون فيه الحكم الفردي (أو حكم الطغاه Tyrannoi كما كان يسميه اليونان). وتحت هذا الظرف ساد السخط في هذه المدن على الحكم الفارسي فأقاموا فيما بينهم حلفا عسكريا تحت زعامة مدينة ميليتوس Miletos (في وسط الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى) . وكانت هذه المدينة تشغل مركزا تجاريا هاما يؤهلها ، ربمّا إلى جانب موقعها الأوسط ، لزعامة هذا الحلف (1) . وتمكنت المدن المشتركة في هذا الحلف من الثورة على الحكم الفارسي والوقوف في وجهه عسكريا لعدّة سنوات (٤٩٩ ــ ٤٩٤ ق . م .) ، كما حاولوا في

---

(1) بلغ من تماسك هذا التحالف ان صك المتحالفون عملة مشتركة . راجع صورا من هذه العملة في :

Seltman : Greek Coins, 78 - 88.

أثناء ذلك أن يحصلوا على مساندة من المدن اليونانية الأوروبية ، وإن لم يستجب لندائهم في الواقع سوى أثينه وإريتريه Eretria (تقع هذه الأخيرة في منطقة يوبويه Euboea) اللتين أرسلتا لها قوةعسكرية ضئيلة ، كان من بينها عشرون سفينة أثينية .

على أن الثورة لم تحقق شيئاً في النهاية . اذ ماليث اليونان أناختلفوا فيما بينهم وتمكن الفرس من إعادة سيطرتهم على المدن الثائرة ودمروا ميليتوس التي تزعمت الثورة . ولكن مع ذلك فقد كانت هذه الثورة بداية لصدام كبير بين الفرس وبلاد اليونان الأصلية (الأوروبية) . وكان السبب في ذلك هو القوات التي قدمتها أثينه وإريتريه لمساندة الثوار . وهو أمر لنا أن نتصوّر أنه نبّه الامبراطور الفارسي إلى الخطر الذي يمكن أن تتعرض له حدود الإمبراطورية الفارسية إذا تكررت مثل هذه المساندة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه القوات اشتركت مع الثوار في اجتياح مدينة سارديس (في آسية الصغرى) وأن النار شبّت في هذه المدينة أثناء ذلك وأتت عليها . يصبح من الأمور الواردة ، ان لم يكن من الأمور الملحّة فعلاً . أن يفكر الامبراطور الفارسي في القضاء على مصدر هذا الخطر عن طريق غزو بلاد اليونـان الأصليـة ، وتأديب الأثينيين بسبب القوة البحرية التي أرسلوها للثوار .

وقد بدأ الفرس تنفيذ هدفهم فعلا في ٤٩٠ ق . م . حين أرسل الإمبراطور الفارسي حملة كبيرة هبطت في سهل ماراثون Marathon على مقربة من أثينه لتأديب هذه المدينة على المساعدة التي كانت قـد قدمتها للمدن اليونانية الثائرة في آسيه الصغرى . وقد انتهت معركة ماراثون بانتصار الأثينيين الذين كانوا تحت قيادة ملتيادس Miltiades .

وكان هذا يرجع لعاملين أساسيين : أحدهما هو معرفة ملتياديس بطرق الحرب الفارسية إذ كان قد خدم مع الجيش الفارسي في مناسبة سابقة ، وهي معرفة مكنته من التحسب لتحركاتهم . أما السبب الثاني فهو تنظيم فرق المشاة الثقيلة hoplites الذي مكّن الأثينيين من التصدّى لتنظيمات الرماة في الجيش الفارسي [٢] .

وقد انسحب الفرس بعد موقعة ماراثون ولم يتعرضوا لبلاد اليونان على مدى عشرة سنوات لأسباب تخصّ الوضع الداخلي في الامبراطورية، من بينها بطء الجهاز الإداري وقيام ثورة مصرية على الفرس (في٤٨٦ ق . م .) ثم وفاة الإمبراطور دارا في السنة التالية واضطرار خلفه خشيارشاه Xerxes أن يقوّى مركزه على رأس الحكومة الامبراطورية ولكنهم عادوا في ٤٨٠ ق . م . لتصفية الحساب مع اليونان الأوروبيين في جولة أخرى . وقد امتدت هذه الجولة عبر سنتين نستطيع أن نميز فيها بعض الظواهر : الظاهرة الأولى هي أن المواجهة هذه المرة لم تكن مع الأثينيين وحدهم ، وإنما امتدت لتشمل القسم الأكبر من المدن اليونانية الأوروبية . وحقيقة إنّ تكتل اليونان ضد الفرس لم يكن كاملا ، فقد وقفت طيبة (على الأقلّ بعض الوقت) موقفا مواليا للقوات الفارسية ، كما تلكأت اسبرطه في بعض المناسبات في القيام بدورها . بينما كانت الخطط اليونانية في مواجهة الخطر الفارسي مجالا لخلافات وانقسامات شديدة في الرأي بين المدن اليونانية — ولكن مع ذلك فقد نجح اليونان في تكتيل جهودهم بوجه عام . والظاهرة

---

(٢) كان للنصر الاثيني في ماراثون اثر كبير على الاثينيين ، فقد أعطاهم هذا النصر ثقة كبيرة في النظام الديمقراطي الذي كان توصلهم اليه لا يزال بعد قريبا . وراجع صورة لعملة اثينية تخلد هذا النصر في :
Seltman : op. cit., 91.

الثانية هي أن المواجهة كانت شاملة ، امتدت برا وبحرا . كما أنها خرجت عن نطاق شبه جزيرة البلقان لتشمل بحر إيجه ولتمتد في نهاية المطاف إلى مداخل البحر الأسود . أما الظاهرة الثالثة فهي ظهور قدر غير قليل من التنسيق ، حتى وإن جاء بعضه اضطراريا، بين التحركات اليونانية في مواجهة الفرس ، وفي هذا التنسيق كانت المواقع البحرية من نصيب القوات التي تتزعمها أثينه بينما دارت المواقع البحرية تحت القيادة الاسبرطية .

وأهم مواقع هذه الجولة أربعة . كانت الأولى في مضيق ثرموبيلاى Thermopylae (على الساحل الشرقي لبلاد اليونان في مواجهة الطرف الشمالي لجزيرة يوبويه Euboea) ، وقد وقعت في ٤٨٠ ق م . وفيها نجح الفرس في محاصرة قوة اسبرطية صغيره تحت قيادة ليونيداس Leonidas وقضوا عليها عن آخرها . أما الموقعة الثانية فهي موقعة سلاميس Salamis التي دارت في السنة نفسها قرب الشاطىء الشرقي لجزيرة التي تحمل هذا الاسم في مواجهة الطرف الجنوبي الغربي لشبه جزيرة أتيكه . وتعتبر هذه الموقعة نقطة التحول الرئيسية في هذه الجولة الفارسية اليونانية وربما كانت أهم مواقعها[٣]. فقد استطاع الأسطول الأثيني ، بمساعدة عدد من القطع البحرية التي قدمتها المدن اليونانية الأخرى ، أن يلحق هزيمة ساحقة بالأسطول الفارسي . وإلى جانب عوامل أخرى فإن الانتصار اليوناني في هذه

(٣) الى جانب الاهمية الفعلية لهذه الموقعة ، فقد اعتقد اليونان ، خطأ او صوابا ، ان نتيجتها تشكل بالنسبة لهم مسألة بقاء او فناء سواء بالنسبة لهم او بالنسبة لحريتهم وقيمهم واسلوب حياتهم . وقد خلدها الشاعر الاثيني ايسخولوس في مسرحية الفرس Persai ، وعبر عن هذه المعاني في اكثر من موضع من المسرحية : راجع ، على سبيل المثال ، سطور ٣٤٣–٣٤٤ و ٤٠٣–٤٠٨ من المسرحية .

الموقعة يرجع إلى ضخامة عدد السفن الأثينية . وكانت هذه الضخامة ترجع إلى مجهودات السياسي الأثيني ثميستوكليس Themistokles الذي انتفع في ٤٨٣ ق . م . (قبل الموقعة بثلاث سنوات) بزيادة غير متوقعة في دخل أثينه من انتاج الفضة في مناجم اللوريون Laurion فحوّل هذه الزيادة إلى رفع عدد السفن في الأسطول الأثيني .

وقد كانت نتيجة موقعة سلاميس أن انحسر التقدّم الفارسي في بلاد اليونان الأوروبية وتأهب اليونان للهجوم المضادّ الذي تمخض عن موقعتين في السنة التالية (٤٧٩ ق . م) إحداهما موقعة برية في بلاتايه Plataea (في جنوبي بويوتيه قرب حدود أتيكه .) حيث أحرزت القوات اليونانية تحت قيادة اسبرطه نصرا على القوات الفارسية . والأخرى موقعة بحرية تمّت في نفس الوقت تقريبا وانتصرت فيها القوات اليونانية البحرية (تحت زعامة أثينه) كذلك على الأسطول الفارسي في موقعة ميكالي Mykale عند شواطىء جزيرة ساموس Samor (تقع قرب النصف الجنوبي للشاطىء الغربي لآسيه الصغرى). وقد كانت نتيجة هاتين الموقعتين الحاسمتين برا وبحرا أن ابتعد الخطر الفارسي عن بلاد اليونان الأوربية .

٢ ـ صعود أثينة والحروب البلوبونيسية

ولكن إذا كان الخطر الفارسي قد ابتعد عن بلاد اليونان الأوروبية فإن المدن اليونانية الآسيوية كانت لا تزال تحت السيطرة الفارسية. ومن ثم فقد أخذت فكرة تحررهم من هذه السيطرة (وهي الفكرة التي أدت إلى ثورتهم قبل الحروب الفارسية) تراودهم من جديد بعد هزيمة الفرس أمام المدن اليونانية الأوروبية . وفي الواقع فإنّ مؤشرا إلى انبعاث هذه الفكرة من جديد كان قد ظهر بالفعل في أثناء موقعة ميكالي حين

فر الجنود اليونان الآسيويون الذين كانوا يحاربون ضمن القوات الفارسية ، إلى صفوف الأثينيين والقوات اليونانية الأخرى التي اشتركت معهم في المعركة . وفي هذا الجو المشحون بالرغبة في التحرر من سيطرة الفرس من جانب المدن اليونانية لم يكن ينقص لمواصلة التصدى للفرس إلا الزعامة ، وكانت المدينتان المرشحتان لهذه الزعامة هما اسبرطه وأثينه ، اللتين قاما بالدور الأول في اثناء الحروب الفارسية .

ولكن الذي حدث هو أن اسبرطه انسحبت من دورها القيادى بعد موقعة بلاتايه . فبعد الانتصار اليوناني في هذه الموقعة آثر الاسبرطيون أن يعودوا إلى مدينتهم مكتفين بالقدر الذي قدموه في أثناء المواجهة اليونانية الفارسية. وفي الواقع فإن أكثر من سبب كان يدعوهم إلى هذا التصرف . فمن جهة كان هناك وضع السكان في اسبرطه وفي منطقة مسينيه المجاورة لها،وهم السكان الذي رأينا الاسبرطيين في مناسبة سابقة يحرمون بعضهم من حقوق المواطنة وينزلون بالبعض الآخر إلى مرتبة العبيد. وقد كان هؤلاء يشكلون بوضعهم هذا خطرا مستمرا على الاسبرطيين يستلزم من هؤلاء حذرا مستمرا ومراقبة دائمة . ومن جهة أخرى كان هناك الحلف البلوبونيزي الذي تتزعمه اسبرطه ، وقد كانت زعامتها عسكرية أساسا . ومن ثم فغياب الجيش الاسبرطي لفترة طويلة كان خليقا بأن يضعف هذه الزعامة أو يقضي عليها . ومن جهة ثالثة فقد كان اقتصاد اسبرطه اقتصادا يقوم على الزراعة بما يعيه ذلك من أرض محدودة تنتج محصولا محدودا ، ومن ثم يتسع لأية تكاليف تفرضها التزامات عسكرية تحمل الاسبرطيين إلى شواطىء آسيه الصغرى على المدى الطويل .

١ ـ أثينة وقيام حلف ديلوس

ولكن على عكس ذلك كانت أثينه . فقد كان وضعها الداخلي مستقرا في أركانه الأساسية بعد أن توصلت في بداية القرن الخامس إلى النظام

الديمقراطي (الشعبي) الذي أفسح المجال إلى حدّ كبير أمام الأثينيين بكلّ طبقاتهم . لذلك كان الاقتصاد الأثيني يعتمد في قسم كبير منه على النشاط التجاري الذي كان مجاله الأساسي هو بحر إيجه وشواطىء آسيه الصغرى ، وهو نشاط غير محدود بطبيعته ، تتفتّح أمامه فرص الاتساع إذا توفرّت ظروف ازدهاره . وفي هذا الصدد يصبح تحرير المدن اليونانية الآسيوية دون شكّ ظرفا مواتيا لهذا الازدهار الذي كانت أثينه تسعى إليه دائما منذ النصف الثاني من القرن السادس ق . م . على عهد الطاغية بيستراتوس Pesistratos الذي أسلفت الإشارة إلى أنه فتح مداخل البحر الأسود أمام تجارة الأثينيين . هذا إلى أن مواصلة الحرب ضدّ الامبراطورية الفارسية على سواحل آسية الصغرى كان قوامه الأساسي لا بدّ أن يكون أسطولاً كبيراً . وقد رأينا أن أثينة كانت تملك هذا الأسطول منذ ٤٨٣ ق . م حين وجّه تمستوكليس فائض الدخل الأثيني من مناجم الفضة لزيادة عدد القطع البحرية في هذا الأسطول .

وفي الواقع فإن فكرة تحرير المدن اليونانية الآسيوية وفكرة الزعامة الأثينية لم تكن بعيدة عن أذهان الأثينيين . وهكذا لم يعودوا أدراجهم بعد موقعة ميكالي . وإنما تابعوا انتصارهم في هذه الموقعة البحرية بالتقدم إلى مداخل البحر الأسود حيث تمكنوا من انتزاع مدينة سستوس Sestos من السيطرة الفارسية . وبهذا كانوا في الواقع قد خطوا الخطوة الأولى لتأكيد زعامتهم في هذا الشوط الجديد . وهكذا التقت المصلحتان : مصلحة المدن اليونانية الآسيوية في التحرر من السيطرة الفارسية الـتي أصبح من الوارد الآن . بعد المواجهة الفارسية اليونانية . أن تكون أشدّ إحكاماً من ذي قبل . تثبيتاً لحدودها الغربية في آسيا الصغرى . ومصلحة أثينة في تزعّم هذه المدن توسيعاً وتمكيناً للنشاط التجاري الأثيني في بحر إيجه الذي تطلّ عليه أثينة من الغرب وتطل عليه المدن اليونانية الآسيوية من الشرق . وكانت النتيجة هي تكوين حلف من أغلب المدن اليونانية

الواقعة على شواطئ هذا البحر والموجودة في جزره . وقد تم تأسيس هذا الحلف في شتاء ٤٧٨ ـ ٤٧٧ ق. م ، تحت زعامة أثينة وعرف باسم حلف ديلوس Delos نسبة إلى الجزيرة التي تحمل هذا الاسم والتي تقع في نقطة وسطى في بحر إيجه ، ومن ثم وقع الاختيار عليها لتكون مقراً لمجلس الحلف الذي كان حلفاً بحرياً في طبيعته ، وقام القائد الأثيني أرستيديس Aristides بالدور الأول في تأسيسه .

وكان الأساس الذي قام عليه هذا الحلف هو أن تسهم كلّ من المدن اليونانية المتحالفة في الاستعداد لأيّ خطر يتجدد من جانب الامبراطورية الفارسية وذلك بتقديم عدد من السفن بغرض تكوين أسطول مشترك وبتقديم عدد من الجنود ، ولكن مع ذلك فقد كان من حق هذه المدن ، إذا أرادت ، أن تقدّم أموالاً بدلاً من السفن أو الجنود . وتحت هذه الظروف كان طبيعياً أن تتأكّد الزعامة لأثينة ، فقد كانت أغنى هذه المدن كما كانت تملك أن تقدّم أكبر عدد من القوات العسكرية ، وكانت أوفرهم قدرة على التحرّك بسبب إمكانياتها ، ومن ثمّ كان بوسعها ، أكثر من غيرها أن تحوّل أية أموال يسهم بها الحلفاء إلى سفن وجنود ، إذا لم تتوفّر لدى هؤلاء الحلفاء المقدرة ، لسبب أو لآخر . على الاشتراك الإيجابي في التصدّي العسكري لأيّ تحرك من جانب الامبراطورية الفارسية . وهكذا أصبحت المسئولية الأولى في هذا الحلف من نصيب الأثينيين ، وتركّزت إدارة شئونه في أيديهم بقدر نصيبهم من هذه المسئولية . وقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الحلف أن استطاعت أثينة أن تقدم على سلسلة من المعارك والتحركات العسكرية أجبرت الامبراطورية الفارسية على التراجع عن سيطرتها على الشواطئ الآسيوية لبحر إيجه ، كانت أهمها موقعة نهر يوريميدون Eurymedon (في بامفيلية Pamphilia على الشاطئ الجنوبي الغربي لآسية الصغرى)

في ٤٦٨ ق . م وهي الموقعة التي تم على أثرها تحرير كلّ القسم الجنوبي من المدن اليونانية الآسيوية وانضمامها إلى حلف ديلوس أو الحلف الأثيني .

ب - الامبراطورية الأثينية

ولكن اتجاهاً معيناً كان قد بدأ يظهر بين بعض أعضاء الحلف آنذاك . فبمجرّد أن بدأ الخطر الفارسي في التراجع ،حتى قبل موقعة نهر يوريميدون ، بدأت بعض المدن اليونانية تحسّ بأن الحلف قد انتهى مبرّر وجوده وحاولت الخروج منه . وهنا وجدت أثينة نفسها أمام أحد اختيارين : إمّا أن تساير الاتجاه الجديد وتترك لكلّ مدينة من المدن المتحالفة أن تترك الحلف وقتما تشاء ويكون ، ذا ، بغضّ النظر عن بعض الاعتبارات الجانبية ، أقرب الأشياء إلى المبدأ الذي قام الحلف على أساسه في البداية وهو حرية الاختيار في الانضمام إليه وفي الإسهام لتحقيق أهدافه . وإمّا أن تجبر المدن الأعضاء في الحلف على البقاء فيه رغم إرادتها ويتحول بذلك إلى امبراطورية أثينية ، ومن ثم تتحوّل لمبالغ التي كانت تسهم بها هذه المدن بمحض اختيارها نحو الهدف المشترك إلى ضرائب تدفعها صاغرة لأثينة. وقد تبنّت أثينةهذا الاختيار الأخير وكان المثل الأول لتطبيقه حين خرجت جزيرة ناكسوس Naxos من عضويتها للحلف في ٤٧٩ ق . م . فحاصرها الأسطول المشترك تحت قيادة أثينة وأعادها إلى الحلف بالقوّة . ويمكننا أن نعتبر هذه المناسبة هي بداية تحوّل حلف ديلوس إلى امبراطورية أثينية .

وقد كان هناك أكثر من سبب لإغراء أثينة باتخاذ هذا الاتجـــاه الامبراطوري . فمن جهة ، إذا كانت بعض المدن المتحالفة قد شعرت بانحسار الخطر الفارسي ، إلاّ أنّ هذا الخطر لم يكن قد اختفى نهائياً ، فالامبراطورية الفارسية كانت لا تزال تملك أسطولاً كبيراً يمكن أن

بوجوده في أيّ خطر لتهديد المدن اليونانية . وفي الواقع فإنّ آخر المعارك بين الأثينيين والفرس قد نشبت على شواطئ جزيرة قبرص في ٤٥٠ – ٤٤٩ ق . م . ومن جهة أخرى فإنّ اعتبارات داخلية كانت تدفع الأثينيين إلى الإبقاء على مدن الحلف تحت سيطرتها حتّى ولو كان معنى هذا تحوّله إلى امبراطورية . فأثينة كانت قد أصبحت مدينة كبيرة منذ تكوين حلف ديلوس بعد أن تركّز في يديها القسم الأكبر من تجارة بحر إيجه ؛ وبعد أن ازدهر فيها عدد من الصناعات اللازمة لتزويد نشاطها التجاري الواسع بالسلع اللازمة له . كذلك تزايد عدد سكانها بشكل واضح بعد أن اجتذب نشاطها التجاري والصناعي عدداً كبيراً من الأجانب metoikoi الذين استقروا فيها تحت إغراء ما يمكن أن يحققوه من وراء الاشتراك في ممارسة هذا النشاط ، كما زاد عدد العبيد الذين كانوا يعملون سواء في المشروعات الخاصّة أو في المشروعات التي تشرف عليها الدولة (مثل العمل في المناجم).وأمام هذه الظروف فإنّ أيّة فرصة لانفضاض الحلف عن أثينة كان معناه في الحقيقة ضياع ما حققته من ازدهار تجاري وصناعي ، بل ربما أدّى هذا الضياع الاقتصادي إلى تطوّرات داخلية تقضي على ما كانت تتمتع به أثينة من استقرار اجتماعي وسياسي .

وفي الواقع فإنّ هذا الاتجاه نحو السياسة الامبراطورية قد ساد حتّى بين زعماء الحزب الديمقراطي في أثينة الذي كانت زعامته في البداية ، ولفترة قصيرة ، في يد إفيالتيس Ephialtes ، ثم انتقلت بعد اغتياله (٤٦٢ ق . م) إلى بركليس Perikles الذي أصبح الزعيم الأثيني دون منازع على امتداد ثلاثين عاماً (قبل أن يموت في ٤٢٩ ق . م) سواء بصفته سياسياً أو قائداً عسكرياً Strategos أعيد انتخابه لمنصب القيادة خلال خمسة عشر عاماً متوالية خلال هذه الفترة . وقد تدعمت السيطرة الأثينية في عهده على مدن بحر إيجه ، من خلال الامبراطورية ، كما عادت

هذه السيطرة . بكل متعلقاتها الاقتصادية ، بقدر غير عاديّ من الازدهار على أثينة في شتى مناحي الحياة ، بحيث سميت فترة زعامته بعصر بركليس. فقد شهدت هذه الفترة تقدماً في الحركة الثقافية بدت آثاره واضحة في ظهور عدد كبير من المفكرين الذين عرفوا بالسوفسطائيين Sophistae (حرفياً : المشتغلين بالحكمة) الذين ظهروا في أثينة أو وفدوا إليها من المدن اليونانية الأخرى ليمارسوا فيها نشاطهم العلمي والتعليمي ، وهو نشاط تطرّق إلى جوانب متعددة من فروع المعرفة . كذلك خطا النشاط الفني خطوات واسعة ظهرت آثارها في عدد كبير من المعابد والأبنية العامة الأخرى التي قامت في أثينة في عهد بركليس ، وأظهرت عدد من الفنانين العظام كان من أبرزهم المثّال الأثيني فيدياس Phidias .

على أنّ أبرز تطوّر عرفه المجتمع الأثيني في مجال الحياة العامة في عصر بركليس ربما كان في الجانب السياسي الداخلي . فقد شهد هذا الجانب من حياة الأثينيين خطوات أساسية نحو استكمال النظام الديمقراطي الذي أشرت في مناسبة سابقة إلى أنّ دستور كليسثنيس كان قد أرسى قواعده مع إطلالة القرن الخامس ق. م[٤] . وقد ساعد على هذا التطوّر ازدياد وعي طبقة العامة في أثينة بالدور الذي قاموا به سواء في منجزات الحلف الأثيني (حلف ديلوس) ثم في القاعدة العسكرية والاقتصادية التي أدت إلى ازدهار أثينة بعد أن تحوّل هذا الحلف إلى امبراطورية أثينية . وفي هذا الصدد كان العامة يشكلون بالضرورة الأغلبية الساحقة من القوات المقاتلة الأثينية سواء حين كانت أثينة تقاتل إلى جانب حلفائها في تحرير المدن اليونانية الآسيوية أو حين اتجهت أثينة إلى إخضاع حلفاء الأمس لتضعهم تحت سيطرتها الامبراطورية . وفي أثناء كلّ ذلك

(٤) راجع الباب السادس من هذه الدراسة .

شعر هؤلاء العامّة أنهم أصحاب الدور الأول في وصول الكيان الأثيني إلى الحجم الذي وصل اليه ومن جهة أخرى فقد عمّق من شعور العامة بهذا الدور أنّ الازدهار التجاري والصناعي الذي عرفته أثينة في هذه الفترة كان يقوم على أكتافهم ، سواء كملاحين أو عمال موانئ أو أصحاب حرف تنتج السلع التي كانت عصب هذا الازدهار .

وقد ظهر هذا الاتجاه نحو استكمال الخطّ الديمقراطي في نظام الحكم في ثلاث خطوات ، وكانت الخطوة الأولى هي تقليم أظافر مجلس الأريوباجوس Areopagos ، وهو المجلس الأرستقراطي الذي كان موجوداً في أثينة في عهد الحكم الأرستقراطي ، وظلّ قائماً حتى بعد تشريعات سولون وكليستنيس إلى جانب مؤسسات الحكم الجديدة ، وكل ما حدث فيه هو أنّ أعضاءه الذين كانوا يختارون في العصر الأرستقراطي بحكم المولد ، أصبحوا منذ عهد سولون يختارون من الأعضاء السابقين للمجلس التنفيذي الأعلى . وبما أن شغل مناصب هذا المجلس كان قاصراً على أفراد الطبقة الأولى في البداية ثم بعد ذلك اتسع قليلاً ليشمل أفراد الطبقة الثانية (وهاتان الطبقتان ، كما رأينا في مناسبة سابقة كانوا أصحاب أعلى دخل في المجتمع) فقد كانت الصلاحيات التي يتمتع بها مجلس الأريوباجوس تمثل وضعاً طبقياً ومن ثم تخدم مصالح طبقية . وهكذا يصبح تجريد الأريوباجوس من صلاحياته السياسية خطوة واسعة نحو نظام ديمقراطي أكثر اكتمالاً .

والخطوة الثانية التي تمت في هذا الاتجاه في عهد بركليس . فهي توسيع دائرة المواطنين الذين يختار من بينهم أعضاء المجلس التنفيذي الأعلى ، فبعد أن كانوا يختارون من قبل من بين صفوف الطبقتين الأولى والثانية كما أسلفت ، زاد اتساع الدائرة لتشمل أفراد من الطبقة الثالثة Zeugitae (الذين كان دخلهم السنوي يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ معيار)

بعد أن كان لا يسمح لهم . من الناحية القانونية ، بأكثر من شغل الوظائف الثانوية التي تلي مناصب المجلس التنفيذي الأعلى.(٥) وقد كانت هذه الخطوة ، هي الأخرى . خطوة إلى الأمام دون شك في طريق استكمال نظام الحكم الشعبي (الديمقراطي) . وإذا أخذنا في اعتبارنا أن كتائب المشاة الثقيلة hoplites ، وهي عصب القوات الأثينية المحاربة ، كانت من بين صفوف هذه الطبقة الثالثة ، فإن سن هذا القانون أصبح يشكل في الحقيقة نوعاً من المساواة أو التعادل بين الواجب الذي كان ملقى على عاتق هذه الطبقة وبين الحق الذي حصلوا عليه .

أما الخطوة الثالثة على طريق استكمال الديمقراطية في عصر بركليس فهي إدخال نظام المكافأة أو الأجر أو التعويض misthos على حضور جلسات المحاكم الشعبية Heliaea ثم على حضور جلسات مجلس الشورى وعلى شغل الوظائف الإدارية . ونحن نستطيع أن نقدر القيمة الحقيقية لهذه الخطوة إذا عرفنا أن الأثينيين كانوا يقومون بدورهم في هذه المؤسسات كخدمة عامة بحكم كونهم مواطنين دون أن يتقاضوا عليها أجراً . وقد كان معنى هذا أن المواطنين الميسورين مادياً فحسب هم الذين كانوا يشتركون في هذه الجلسات أو الوظائف بينما كان الفقراء من المواطنين ينصرفون عن ذلك إلى حد كبير بحكم سعيهم اليومي وراء تحصيل ضرورات حياتهم ، ومن ثم كان التطبيق الديمقراطي (الشعبي)

---

(٥) انظر : Aristoteles : Ath. Pol., XXVI, 2 هذا ويذكر لنا ارسطو ، في الموضع ذاته ، ان أول من شغل منصب الحاكم العام (أو رئيس المجلس التنفيذي archon من هذه الطبقة هو منيسيثيديس Mnesitheides ، وقد تم هذا في ٤٥٧ ق.م. وهي نفس السنة التي اصبح فيها من حق هذه الطبقة ان تشغل مناصب الهيئة التنفيذية العليا . راجع تحليلا لذلك في : لطفي عبد الوهاب يحي ، الديمقراطية الاثينية (ط ٢ ، الاسكندرية ١٩٦٩) صفحات ١٦٢ – ١٦٣ .

في حقيقته تطبيقاً طبقياً. أمّا بعد إدخال نظام المكافأة فقد تمكن عدد كبير من غير الموسرين من تأدية دورهم بالاشتراك في هذه المؤسسات، واقترب بذلك النظام الديمقراطي من جانب الممارسة الفعلية على الصعيد الشعبي إلى حد كبير.

ج ــ الحروب البلوبونيسية

تكونت الامبراطورية الأثينية، إذن، وتدعّم فيها النظام الديمقراطي، وأدّى الخطّان الامبراطوري والديمقراطي إلى قدر كبير من الرخاء، فقد اقترن كلاهما، كما رأينا، بقاعدة تجارية صناعية واسعة أصبحت أثينة هي مركزها وبحر إيجه والشواطئ المطلة عليه مجال الخطوط التجارية والأسواق التي تساعد على تدعيمها، ومن ثمّ كانت الطبقات العاملة في التجارة والصناعة، وهي المستفيدة أساساً من كلّ ذلك، هي دعامة النظام الجديد سواء في شقّه الامبراطوري أو شقّه الديمقراطي. وفي ضوء هذا الظرف اتجهت أثينة إلى تشجيع الأحزاب الديمقراطية في كل المدن اليونانية، ووجدت استجابة من هذه الأحزاب، فالمصلحة واحدة، والقوة الأثينية تضمن الأمان للخطوط التجارية البحرية.

ولكن قوّة أخرى كانت موجودة في بلاد اليونان وكان لها نوع من الزعامة كذلك، وهي إسبرطة التي كانت تسيطر على الحلف البلوبونيسي المكوّن من الدويلات أو المدن اليونانية الموجودة في شبه جزيرة البلوبونيسوس Peloponnesos. وقد كانت اسبرطة، على عكس أثينة، قوّة بريّة تقوم على قاعدة اقتصادية زراعية قوامها ملكية الأرض بما يعنيه ذلك من مصالح تتعارض أساساً مع مصالح الطبقات التجارية والصناعية، وبخاصّة في المدن الخاضعة لها والمكونة للحلف البلوبونيسي الذي كانت زعامتها له تقوم على السيطرة العسكرية، ومن ثمّ فقد كانت تخشى على

على هذه الزعامة أو السيطرة من امتداد النفوذ الأثيني ومن تشجيع أثينة للفئات ذات الاتجاه الديمقراطي . كما كانت تعمل بدورها على مساندة وتشجيع الفئات أو الأحزاب الأرستقراطية التي تعتمد اقتصادياً على ملكية الأرض في المدن اليونانية الأخرى ، حتى تلك الداخلة في دائرة الامبراطورية الأثينية .

ومن هنا كان هناك نوعاً من التناقض الأساسي بين هاتين المدينتين الرئيسيتين في بلاد اليونان ، وكان من الوارد أن يوجد بينهما نوع من الاحتكاك في صورة أو في أخرى . ومع ذلك فربما كان من الممكن أن يقوم بين هاتين الزعامتين نوع من التعايش يحل فيه ما بينهما من تناقض بصورة أو بأخرى على المدى الطويل . ولكن الأوضاع والأحداث التي سبقت الثلاثينات في القرن الخامس ق . م في بلاد اليونان ، عجلت بانفجار هذا التناقض وحددت الصراع العسكري لحله . وقد كانت هذه الأوضاع والأحداث تدور أساساً في دائرة التنافس التجاري الذي وصل آنذاك إلى درجة كبيرة من الاحتداد بين أثينة من جانب وبعض المدن اليونانية (مثل كورنثه وميجاره وسيكيون ، في شمالي شبه جزيرة البلوبونيسوس) التي كانت تعتمد في نشاطها التجاري على المياه الغربية التي تقع بين غرب بلاد اليونان من جهة وبين إيطالية وجزيرة صقلية من جهة أخرى .

وقد أدى إلى هذا الاحتداد أو التأزم أن أثينة ، بتوسعها التجاري والصناعي المستمر وجدت نفسها في حاجة إلى أسواق جديدة إلى جانب أسواق بحر إيجه فاتجهت إلى المياه الغربية بنشاطها ووصل نشاطها التجاري فيه إلى درجة كادت تكتسح المصالح التجارية للمدن المذكورة وتهدد بذلك الخبز اليومي لمجتمعات هذه المدن . وكان هذا مثار ضيق شديد بالنسبة لها . ورغم أن اسبرطة لم تكن لها مصالح تجارية في الغرب ،

إلاّ أنّ توجّسها المطّرد من توسّع النفوذ الأثيني جعلها مستعدّة للسماع لشكاوى هذه المدن من هذا التوسّع ولمساندتها من هذا الأمر ، وكانت أبرز مصدر لهذه الشكاوى آنذاك هو المسألة المتعلقة بجزيرة كوركيره Korkyra الواقعة قرب النصف الشمالي للساحل الغربي لبلاد اليونان . فهذه الجزيرة التي قطنها في الأصل مستوطنون من كورنثه كانت ، بحكم موقعها ،تسيطر على الخط التجاري الرئيسي في المياه الغربية ، ومن ثم كانت كورنثه تعتمد بشكل أساسي على بقائها في صفها . ولكن تضارباً في المصالح حدث بين الجزيرة وبين المدينة الأم ، فاتجهت الجزيرة إلى التحالف مع أثينة . وكانت هذه هي المرحلة الخطرة بالنسبة لكورنثه . فالسيطرة الأثينية على موانئ جزيرة كوركيرا عن طريق هذا التحالف كان معناه قطع خط الحياة بالنسبة لكورنثه . وهنا ثارت المشكلة ، ولم يكن بوسع أثينة أن تتراجع لسببين هما : حاجتها المتزايدة ، كما أسلفت ، للتوسع التجاري في الغرب ، ورغبتها في ضرب مصالح كورنثه لتصفية حساب سياسي كان قائماً بين المدينتين . وهكذا وجد السبب المباشر للصدام المسلح بين أثينة من جهة ، وبين اسبرطة التي كانت تساند كورنثة ، توجساً من أثينة ، من جهة أخرى ، وهو صدام قدّر له أن يستمر ثلاثة عقود تقريباً ، وأن يتخذ مسرحاً له ثلاث جبهات وأن تستخدم فيه ثلاثة أنواع من الأسلحة : المواجهة العسكرية والدعاية السياسية والتخريب الاقتصادي . وأن يمتدّ عبر ثلاث مراحل .

وقد ابتدأ الصدام في ٤٣١ ق . م . واستمرت المواجهة عشرة سنوات وكان مسرحها بلاد اليونان الأصلية في شبه جزيرة البلقان ، وكانت تتصف بالتواتر وغير حاسمة في مجملها . فمن جهة اسبرطة نجد أنها عمدت إلى اجتياح أراضي أتيكه (المنطقة التابعة لأثينة والمحيطة بها) عاماً بعد عام في موسم الحصاد لتخريب المحصول ، ولكن هذا لم يحقق

الهدف الأساسي منه وهو الضغط العسكري والاقتصادي على أثينة ، فقد ردّ الأسطول الأثيني بهجمات تخريبية على السواحل البلوبونيسية . كما بقيت الطرق التجارية الأثينية في بحر إيجه مفتوحة أمامها ومن بينها الخط الذي يصل إلى مداخل البحر الأسود والذي كانت أثينة تستورد عن طريقه أغلب احتياجاتها من الحبوب . ومن جهة أثينة نجد أنها حاولت جاهدة أن تضغط على اقتصاد المدن البلوبونيسية التي تتزعمها اسبرطة باستخدام كافة الوسائل لقطع خطوط تجارتهم في المياه الغربية ، وكان يلزمها لتحقيق ذلك أن تحتل مناطق شمالي وجنوبي مدخل خليج كورنثه (الذي يطلّ على المياه الغربية) ، ولكنها لم تنجح إلاّ في الاستيلاء على موقعين (هما بيلوس Pylos وجزيرة كيثره Kythera) في الجنوب ، ومن ثم بقي الخليج مفتوحاً يزوّد هذه المدن بما تحتاجه من سلع الغرب اللازمة لحياتها اليومية ، وهي الحبوب والماشية والمعادن . وأمام هذا الوضع الذي لم يحقّق نتيجة ملموسة عند أيّ من الطرفين ، بينما استنزف قواهما بشكل بطيء ولكنه مستمرّ ، تغلّبت أصوات الفئات المطالبة بالسلام في كلّ من المعسكرين وانتهى الأمر بعقد صلح في ٤٢١ ق . م اكتسب تسمية « سلم نكياس » نسبة إلى الزعيم الأثيني نكياس Nikias الذي مثّل الجانب الأثيني في توقيع هذا الصلح .

ولكن السلم لم يدم . فمن جهة كان الأثينيون مقتنعين بقدرتهم على إحراز نصر حاسم على اسبرطة وحلفائها من المدن البلوبونيسية إذا خططوا لذلك تخطيطاً محكماً . ومن جهة أخرى فإنّ عدداً من المدن التابعة للامبراطورية الأثينية كانت قد بدأت تحاول ، تحت إغراء الذهب الفارسي : أن تتملّص من تبعيتها لأثينة . وأمام هذه الاعتبارات قدّرت أثينة أن معاودة المواجهة العسكرية أصبحت أمراً ضرورياً . وأرسلت قوّة بحرية إلى جزيرة صقلية في الغرب تحت اقتناع بأن إخضاع مدينة

سيراكوزة في جنوب شرق هذه الجزيرة) التي كانت تسيطر على الجزيرة وعلى المدن اليونانية على الشواطىء الإيطالية ، وإدخالهـا في الامبراطوريه الأثينية كفيل بالتحقيق التام للهدف الأثيني وهو الخنق الاقتصادي للمدن البلوبونيسية . ولكن خصومات حزبية في أثينة عرقلت نجاح هذه الحملة وأدت إلى فرار قائدها الكيبياديس Alkibiades الى الجانب الاسبرطي وتغييره بقائد آخر أقل كفاءة ، وانتهت المواجهة بتدمير القوات الأثينية براً وبحراً في ٤١٣ ق.م .

أما المرحلة الثالثة من الحروب البلوبونيسية فقد تمت بين ٤٠٦ و ٤٠٤ ق. م بعد فترة من الركود النسبي . فاسبرطة لم تستطع متابعة نصرها لعدد من الأسباب كان أهمها حاجتها إلى أسطول لم تكن تملك تكاليفه ، ومن ثم لجأت إلى طلب مساعدة في هذا الصدد من الإمبراطورية الفارسية لم تتمّ الاستجابة لها إلاّ بعد عدّة أعوام . وحين تمّ لها ما أرادت أرسلت أسطولها تحت قيادة القائد الاسبرطي ليساندروس Lysandros للاستيلاء على مداخل البحر الأسود حيث الخط التجاري الأساسي الذي يموّن أثينة بما تحتاجه من قمح . وقد انتصرت أثينة في البداية (٤٠٦ ق . م) في موقعة أرجينوساي Arginusa (على القسم الشمالي من الساحل الغربي لآسية الصغرى) ولكنها هزمت في الموقعة التالية بعد ذلك بسنتين في ٤٠٤ ق . م في موقعة ايجوسبوتامي Aegospotamoi عند مداخل البحر الأسود ، ودمّر الأسطول الأثيني عن بكرة أبيه . وبتدمير الأسطول لم يكن أمام أثينة إلاّ الاستسلام لشروط الصلح التي أملاها ليساندروس والتي كانت أبرز نتائجها انفراط عقد الامبراطورية الأثينية . وبذلك انتهت أول محاولة جادّة كان يمكن أن توحّد المدن اليونانية بصرف النظر عن صيغة السيطرة التي اتخذتها هذه الوحدة .

٣ ـ القرن الرابع وانحدار دول المدينة

بعد الانتصار الاسبرطي الساحق على أثينة في ٤٠٤ ق . م بدأت سيطرة اسبرطة على كلّ المدن التي كانت تشكل الامبراطورية الأثينية . إلى جانب المدن اليونانية الأخرى ، بدا وكأن بلاد اليونان مقبلة على نوع من الوحدة أو الاتحاد ، وإن كان ذلك . هذه المرّة تحت السيطرة الاسبرطية بدلاً من السيطرة الأثينية ، وأن الاستقرار سيعم الآن هذه البلاد بصورة أو بأخرى ولكن شيئا من ذلك لم يتم ، بل أكثر من هذا فإن القرن الرابع ق . م . شكلّ بالنسبة لبلاد اليونان ولنظام دولة المدينة الذي سارت عليه . ما يمكن أن نسميه عصر الفوضى أو عصر الانحدار . دون أن نبتعد كثيرا عن الصواب . وانتهى الأمر في الواقع بسقوط المدن اليونانية أمام أول تحدّ خارجي جادّ (على عكس ما حدث أثناء الحروب الفارسية في القرن السابق) ويتحول نظام دولة المدينة بعد ذلك إلى شكل كان في الواقع قد فقد محتواه . وبوسعنا أن نميز خلال هذا القرن ثلاثة عوامل رئيسية أدّت ، بجانب عوامل فرعية أخرى ، إلى هذه النتيجة .

أ ـ صراع الزعامة بين الدويلات اليونانية

وأول هذه العوامل الرئيسية الثلاث هو صراع المدن اليونانية في سبيل الزعامة أو السيطرة على بلاد اليونان . وقد تم في هذا الصدد عدد من المحاولات ، ولكنها بدلاً من أن تؤدى إلى توحيد المدن الوطنية على مستوى وطني يشمل كلّ بلاد اليونان انتهت بتكريس أو تأكيد النزعة الانفصالية التي لا يتخطى في ظلها مفهوم الحرية أو مفهوم الولاء لدى المواطن اليوناني حدود المدينة التي ينتمي إليها ليصبح هذا المفهوم قيمة تشمل بلاد اليونان بأكملها . وقد ظهر هذا بشكل واضح لدى المدن

القوية التي سعت إلى تزعم بقية المدن اليونانية ، فاتخذت زعامتها صورة السيطرة التي تضخم نفوذها ومصالحها من جهة وتبالغ في الوقت ذاته في إخضاع المدن الداخلية في دائرة نفوذها ، وفشلت في إيجاد صيغة سياسية تحوّل هذه الزعامة إلى أداة تحقق الوحدة أو الاتحاد على الصعيد اليوناني الشامل. كما ظهر المفهوم ذاته بنفس الوضوح لدى المدن الصغيرة أو الضعيفة التي وجدت نفسها تحت سيطرة مدينة أو أخرى من المدن القوية ، فكان همها الأول هو ترقب الفرصة للثورة على هذه السيطرة والعمل الدائب على الخروج منها . فإذا أضفنا إلى ذلك عددا من العوامل الأخرى التي تتصل بظروف خاصة لبعض المدن أو بمصالح معينة لدول خارجية (مثل الامبراطورية الفارسية) استطعنا أن ندرك بوضوح حتمية الواقع التفتيتي الذي انتهى إليه هذا العامل الذي برز في القرن الرابع في علاقات المدن اليونانية ببعضها .

وفي هذا الصدد ابتدأت اسبرطه منذ انتصارها في ٤٠٤ ق . م . بإحكام سيطرتها على كل المدن التي كانت ضمن الامبراطورية الأثينية من قبل، إلى جانب المدن التي تحالفت معها أثناء حروبها مع أثينة، وكانت هذه جميعا تشكل غالبية المدن اليونانية . وقد اتصفت هذه السيطرة بقدر كبير من الصرامة التي عامل بها الحكام harmostai (حرفيا : المنسّقين) الذين أرسلتهم اسبرطه إلى المدن التي خضعت لها وبخاصة في آسيه الصغرى ، فاق بكثير ما كانت هذه المدن تشكو منه أثناء حكم الامبراطورية الأثينية ومن ثمّ أشاع السخط بين هذه المدن ، وأدى إلى قيام عدد من المصادمات العسكرية بين اسبرطه وبين المدن اليونانية الأسيوية بوجه خاص . ولكن السيطرة الإسبرطية التي استمرت ثلث قرن كانت تسير في الواقع في طريق التخلخل ، حتى ولو بدا بطيئاً : سواء من الناحية السياسية والمعنوية أو من الناحية المادية . فمن الناحية السياسية والمعنوية كان هناك موقف بين اسبرطة والامبراطورية الفارسية تطوّر

بحيث أضاع السيطرة الاسبرطية على المدن اليونانية الآسيوية . ذلك أن الامبراطورية الفارسية التي كانت قد ساعدت اسبرطة في دولتها الأخيرة في الحروب البلوبونيسية ضد أثينه كانت قد طلبت ثمناً لذلك أن تعود المدن اليونانية الآسيوية إلى السيادة الفارسية بعد هزيمة أثينه. ولكن بعد أن انهزمت أثينه تلكات اسبرطه في الوفاء بتعهدها في هذا الصدد ، فبدأت الامبراطورية الفارسية في تأليب المدن اليونانية الآسيوية على اسبرطه ومساعدتهـا في التصدي العسكري لها ، وكانت النتيجة هي أن اسبرطه اضطرت في النهاية إلى عقد صلح مع الأمبراطورية الفارسية في ٣٨٦ ق . م . اتخذ اسم « سلم الملك » (نسبة إلى الإمبراطور الفارسي الذي كان يشار إليه لدى اليونان باسم الملك) . وبمقتضى هذا الصلح عادت كـل المدن اليونانية الآسيوية إلى السيادة الفارسية فيما عدا ثلاث جزر (جزر ليمنوس Lemnos وإيمبروس Imbros وسكيروس Skyros) أعادها الامبراطور الفارسي لأثينه . وقد كان هذا الصلح الذي أعادت فيه اسبرطه المدن اليونانية الآسيوية للسيطرة الفارسية في سبيل إحكام سيطرتها هي على المدن اليونانية الأوروبية وصمة أدبية لاسبرطه أمام هذه المدن الأخيرة. كما أثارت في الوقت ذاته توجسات كثيرة بينها. أما من الناحية المادية.فإن اعتماد اسبرطه على القوة العسكرية في السيطرة على المدن اليونانية ، كان معناه ابقاء أعداد كبيرة من الاسبرطيين بصفة مستمرة خارج اسبرطه موزعين على أغلب المناطق اليونانية. وقد كان هذا عامل إضعاف مستمر لمدينة اسبرطه ولقواتها العسكرية إذا جـد ما يجر اسبرطه إلى مواجهة عسكرية كبيرة ،وبخاصة إذا عرفنا أن الخدمة العسكرية في اسبرطه كانت قاصرة على المواطنين الاسبرطيين وحدهم، وقد كان عدد هؤلاء بالطبيعة ضئيلا بالنسبة لسكان اسبرطه من غـير المواطنين .

وقد جاءت النهاية الطبيعية للسيطرة الاسبرطية في ضوء هذه الظروف، على يد مدينة طيبة Thebae (في منطقة بويوتيه Boeotia). وكانت هذه المدينة قد عملت على مدى عدة سنوات إلى توجيه قدر غير قليل من العناية لإصلاح قواتها العسكرية والنهوض بها على يد قائدها الكبير إبامينونداس Epaminondas. حتى وجدت الفرصة مواتية لمهاجمة القوات الاسبرطية وإلحاق هزيمة ساحقة بها في موقعة ليوكتره Leuktra (قرب طيبه) في ٣٧١ ق . م . وبعد ذلك بدأت طيبة سلسلة من التحركات العسكرية والسياسية لتفرض سيطرتها بدورها، على المدن اليونانية. ولكن سيطرة طيبة لم تستمر طويلا كما لم تنجح، هي الأخرى، في توحيد بلاد اليونان. وكان من بين ما أدى إلى هذه النتيجة أن طيبة كانت تفتقر إلى مقومات الماضي التاريخي والثروة والتقدم الحضاري التي اعتمدت عليها أثينه في تكوين امبراطوريتها، بينما كانت، رغم اصلاحاتها في مجال القوات العسكرية، تفتقد الجيش النظامي الدائم الذي كان يمثل عصب القوة الاسبرطية.

هذا وفي الوقت الذي تعاقبت فيه سيطرة سبرطه وسيطرة طيبة على أغلب المدن اليونانية كانت أثينه تسعى لإقامة حلف جديد لها على نمط حلفها القديم (حلف ديلوس) الذي كونته في القرن الخامس ق . م وقد ساعدها على ذلك المعاملة الصارمة الشرسة في بعض الأحيان، التي لقيها عدد من المدن اليونانية على يد الاسبرطيين. ولكن أثينه ما لبثت أن عادت إلى سيرتها الأولى في معاملة حلفائها وكأنهم أصبحوا مدنا خاضعة لها في امبراطورية جديدة وبخاصة حين بدأت بعض هذه المدن تحاول الخروج من الحلف بعد أن زال الخطر الاسبرطي في أعقاب هزيمة ليوكتره. وقد أدى هذا الوضع المتأزم إلى حرب فعلية بين أثينا وحلفائها انتهت بعقد صلح بين الطرفين في ٣٥٤ ق . م اعترفت

فيه باستقلال أهم المدن التابعة للحلف . ولم تلبث المدن الباقيـة أن انسلخت بدورها . لتفقد أثينه بذلك سيطرتها الثانية على مياه بحر إيجه بعد أن كرست ، هي الأخرى . التفتت اليوناني على حساب أيـة فرصة للوحدة أو الاتحاد في بلاد اليونان .

ب ـ التخلخل في الأحوال الداخلية للدويلات

انتهت ، إذن ، محاولات المدن الكبرى للسيطرة على بقية المـدن اليونانية . ولم يأت عام ٣٥٠ ق . م حتى كانت كل مدينة يونانية قد عادت إلى استقلالها وتشبثت به بعد تجاربها التي عانت منها مكررا مع المدن المسيطرة . وكان المغزى الأول لهذا الوضع أن نظام دولة المدينة قد ترك أثره بصفة قاطعة لصالح النزعة الانفصالية على حساب أي اعتبار أمني قد تحتاج بلاد اليونان إلى مراعاته في مواجهة أيّ تهديد خارجي عام . على أن احتداد النزعة الانفصالية إلى نقطة اللاعودة لم يكن المظهر الوحيد من مظاهر التدهور الذي انحدرت إليه المدن اليونانية في القرن الرابع ق. م. ، وإنما تعرّضت الحياة العامّة في داخل المدن ذاتها خلال هذا القرن ، إلى عوامل تخلخل في أكثر من جانب من جوانبها. وعلى سبيل المثال ، فقد تعرّضت الموارد الاقتصادية لهذه المدن إلى تناقص ظاهر ومطرّد بعد أن شهدت عهدا من الازدهار منذ أواسط القـرن السادس إلى نهاية القرن الخامس ق م . حين كانت المدن اليونانية تصدّر سلعها من الزيت والنبيذ والأواني الفخارية إلى مناطق مثل إيطاليه وصقليه ومصر وسواحل البحر الأسود ، وتستورد منهـا في مقابل ذلك المعادن والحبوب والماشية والأخشاب التي كانت تلزمهـا بوجه خاصّ في صناعة السفن . وبسبب تقلص هذه الموارد في القرن الرابع يرجع إلى أن بعض البلاد التي كانت تشكل الأسواق الخارجية لبلاد اليونان بدأت تطوّر منتجاتها لدرجة تكفي احتياجاتها من السلع

التي كانت تستوردها من قبل من المدن اليونانية ، بل أخذت تنافس السلع اليونانية في بعض الأسواق الأخرى . وعلى سبيل المثال فقد توسعت إيطاليه في زراعة الزيتون والكروم وطورتها بحيث لم تعد تستورد من زيت الزيتون والنبيذ من بلاد اليونان في القرن الرابع إلاّ ربع ما كانت تستورده قبل ذلك . كذلك أخذ الفخّار الإيطالى ينافس الفخّار الأثيني في جنوبي غاله (فرنسه الحالية) حتى اختفى الفخار الأثيني من أسواق غاله في أواسط هذا القرن .

وقد أدّى هذا الوضع الاقتصادى المتدهور إلى وضع آخر لم يلبث أن تحوّل بدوره إلى مظهر من مظاهر التدهور العام في حياة المدن اليونانية في القرن الرابع ق . م . وأعنى بذلك انتشار العمل بين اليونانيين كجنود مرتزقة misthphoroi ، بغضّ النظر عن الدولة التي يقاتلون تحت لوائها ، على نطاق لم يكن معروفا قبل ذلك . ولعلّ أشهر مثالين على ذلك ، الحملة التي كانت تضمّ عشرة آلاف جندى يوناني مرتزق ، والتي اشترك في تنظيمها كسينوفون Xenophon (الذي كان مؤرخا ورجلا عسكريا في الوقت ذاته) [٦] لتقاتل في ٤٠١ — ٤٠٠ ق . م تحت لواء الأمير الفارسي قورش Cyrus في صراعه على العرش ضدّ أخيه الامبراطور الفارسي منيمون (Artaxerxes الثاني عند اليونان) . وحملة أخرى تضمّ عشرة آلاف جندي يوناني كذلك جرّدها الامبراطور الفارسي على مصر في ٣٤٣ ق . م ولكن هؤلاء الجنود المرتزقة لم يقتصروا على القتال لحساب الدول غير اليونانية ، وإنما استشرى هذا الوضع بحيث بدأت المدن اليونانية في الاعتماد عليهم بدلا من المواطنين أنفسهم في هذه المدن. وإذا كان هذا قد تمّ على استحياء في بدايات القرن الرابع ، فقد أصبح هو

(٦) خلد كسينوفون هذه الحملة في كتابه Anabasis

الشيء المعتاد في أواسط هذا القرن . بل أن مدينة أثينه أصبحت تعتمد في بعض الأحيان على هذا النوع من الجنود فحسب ، كما يظهر من كلام ديموسثنيس Demosthenes (الخطيب والسياسي الأثيني) الذي يوبّخ فيه أبناء أثينه « الذي يقبعون في عقر دارهم ينتظرون أن تصلهم الأخبار بأنّ الجنود المرتزقة التي تحارب تحت قيادة فلان أوغيره (من القواد العسكريين المرتزقة) قد كسبوا نصرا لأثينه (٧) » وقد كان هذا الوضع من العوامل الأساسية دون شك في تدهور نظام دولة المدينة ، فقد كان في حقيقته وضعا يتقلّص فيه معنى المواطنه ليصبح حقوقا يتمتع بها المواطن دون أن يؤديّ ما عليه من واجبات نحو الدولة ؛ بعبارة أخرى كان انفصاما بين المواطن والدولة .

على أنّ هذا الوضع المتسيّب لم يكن قاصرا على الجانب العسكري ، بل تعدّاه ليظهر كذلك في الجانب السياسي من حياة دولة المدينة في القرن الرابع ق . م . وفي هذا الصدد فإنّ العلاقة بين الطبقات الموسرة والطبقات المعوزة في داخل كل مدينة لم تعد تشكلّ حوارا أو كفاحاً أو حتّى صراعاً يستهدف تطوير الوضع العام في مجتمعات هذه المدن توصّلاً إلى نظام سياسي شامل، كما كان الحال قبل القرن الخامس وفي أثناء القرن الخامس ، وإنما تحوّل إلى مجرّد صراع عضويّ في سبيل الحصول على مكاسب مؤقته وقصيرة المدى دون ارتباط بأيّ مبدأ سياسي محدّد، بحيث صار الأمر أقرب ما يكون إلى التخبط الفوضوي منه إلى الحوار أو التطوّر السياسي . ونحن نستطيع أن نتتبع هذا التسيّب السياسي في أكثر من جانب، وفي هذا الصدّد يزخر القرن الرابع بأمثله

(٧) Demosthenes: III, 35; IV, 24.

تشير جميعها إلى هذه الحقيقة . فقد ظهر في هذا القرن عدد غير قليل من الخطباء الغوغائيين demagogoi الذين كانوا يؤثرون على المواطنين في اجتماعات مجلس الشعب خدمة للمصالح الخاصّة لبعض الفئات دون نظر للمصلحة العامة في حدّ ذاتها ، كذلك كان عدد من الموسرين يخفون ثرواتهم أو ينكروا وجودها بطريقة أو بأخرى حتى لا يقعوا تحت طائلة الضرائب المترتبة على هذه الثروات ، هذا وفي الجانب الآخر كانت المحاكم الشعبية،التي يتكوّن سوادها من الفقراء ، إذا عرضت أمامها قضايا ذات عقوبات مالية تخص أحد الأثرياء تبالغ في تقدير أملاكه لتوقيع أكبر قدر من العقوبة المالية عليه — وقد كانت المحاكم الأثينية تعتمد في هذا المجال على مجموعة من المخبرين أو المبلّغين Sykophantes ، وكانوا عادة من المواطنين المعوزين الذين يقومون لقاء أجر ، بنقل أخبار الأغنياء إلى السلطات والمحاكم الشعبية،وكثيرا ما كان هؤلاء المخبرون يبالغون في تقديراتهم بدوافع قد يكون من بينها الدافع الطبقي.ولعلّ مثالا أخيرا من أثينه يوضح لنا هذا التسيب السياسي الذي وصل بالمواطنين الأثينيين إلى أن يقدّموا متعتهم الخاصة على صالح الدولة حتى حين كان الخطر الخارجي غير بعيد عن أثينه . وقد ظهر هذا في حرص الأثينيين على الحصول على ما سمي بإعانة المسرح التي كانت تصرف للمواطنين المحتاجين من الأموال العامة حتى يتمكنوا من حضور الاحتفالات السنوية (أو الموسمية) التي كانت تقيمها الدولة وتعرض فيها المباريات المسرحية . لقد وصل هذا الحرص في أواسط القرن الرابع ق . م . إلى درجة إصدار قرار من مجلس الشعب (بين عامي ٣٥٦ و ٣٥١ ق . م) مؤداه أن يدخل كل فائض الموازنة إلى خزينة أموال المسرح theorikon بدلا من خزينة الدفاع stratiotikon ، وأن ينزل أقصى العقاب على كلّ من يحاول تغيير هذا

الوضع . وحين نجح السياسي الأثيني ديموستثنيس في أن يقنع الأثينيين في ٣٣٩ ق . م . بأن يوجهوا فائض الموازنة للانفاق على الدفاع ضد الخطر المقدوني كان الوقت قد فات واستطاعت مقدونيه أن تقضى على الاستقلال الأثيني في السنة التالية .

ج – ظهور مقدونية وإخضاع الدويلات اليونانية

وقد كان هذا الخطر المقدوني هو العامل الثالث الذي أدى إلى تدهور نظام دولة المدينة إلى جانب العاملين السالفين وهما : تكريس النزعة الانفصالية إلى درجة التمشت الكامل في العلاقات بين المدن اليونانية ، والتسيب السياسي الذي ساد علاقة الطبقات داخل كل مدينة. وقد كان الخطر المقدوني في الحقيقة أكثر تهديدا للمدن اليونانية من الخطر الفارسي . فالامبراطورية الفارسية بعد المجابهة العسكرية مع اليونان إبان الحروب الفارسية في العقود الأولى من القرن الخامس (٤٩٠ – ٤٨٠ ق . م .) آثرت لأكثر من سبب ، ألا تدخل مرة أخرى في مواجهة مسلحة مباشرة مع المدن اليونانية . وأن تلجأ بدلا من ذلك إلى استخدام ذهبها في تحقيق أهدافها كلما حانت الفرصة . وحقيقة إنها استطاعت بهذه الطريقة الأخيرة أن تستعيد سيطرتها على المدن اليونانية في آسيه الصغرى في ٣٨٦ ق . م . ولكنها لم تستطع بعد ذلك أن تحصل على شيء آخر. أما القوة المقدونية فقد كانت تملك من المقومات ما يجعلها تشكل خطرا حقيقيا على المدن اليونانية إذا اتجهت سياستها نحو الاستيلاء على هذه المدن .

وفي هذا الصدد نجد ، من الناحية الاقتصادية . أن مقدونيا كانت تشكل امتدادا كبيرا من الأراضي ذات الموارد الغنية والمتنوعة التي تصلح قاعدة راسخة لدولة قوية ، فقد كانت هذه الأراضي تضم

عددا غير قليل من المناجم الغنية اللازمة للصناعات المعدنية . ومساحات كبيرة من الغابات الكثيفة التي يمكن أن تدعم صناعة ضخمة في بناء السفن . كما وجدت فيها إمتدادات مترامية من الحقول الخصبة المنتجة للحبوب يمكن أن يعتمد عليها في تغطية حاجة السكان من الخبز اليومي ؛ ومن المراعي الواسعة التي كانت تربى عليها الخيول اللازمة لقوات الفرسان ، والماشية والاغنام التي كانت تشكل موردا غذائيا وكسائيا (أصواف الغنم) ثابتا . ومن الناحية السياسية والعسكرية فقد خطت مقدونية في أواسط القرن الرابع خطوات واسعة في ترسيخ هذين المقومين . فبعد أن كانت هذه الدولة عبارة عن مملكة تضم مجموعة من المقاطعات والاقطاعيات المفككة فيما بينها . يسيطر عليها ملاك الأراضي من الطبقة الأرستقراطية ويخضعون خضوعاً غير كامل للملك ، نجدها حين يؤول عرشها إلى الملك فيليب Philippos في ٣٦٠ ق م . قد اقتربت كثيرا من الوحدة السياسية . وقد قام فيليب بمجهود واضح حتى أكمل الوحدة السياسية المقدونية كما طور قواتها العسكرية من مجرد ميليشيات متفرقة إلى جيش مركزي قائم يصلح للغزو الخارجي . وقد أدخل فيليب على هذا الجيش نظام الفيلق Phalanx المكون من المشاة الثقيلة والذي كان يجمع بين كثافة العدد والتسليح ومرونة الحركة في الوقت ذاته (وهو نظام أثبت تفوقه أثناء غزو الإسكندر للامبراطورية الفارسية فيما بعد). كما كان يضم فرق المشاة الخفيفة إلى جانب المشاة الثقيلة ، بينما فرق الفرسان فيه أقوى وأحسن تنظيما وتسليحا من أي شيء عرف حتى ذلك الوقت .

وقد رأى الملك فيليب المقدوني أن فرصة للسيطرة على بلاد اليونان مواتيه : فمقدونيه تمتد مباشرة على الحدود الشمالية لبلاد اليونان ومن ثم فالغزو لن يشكل أية مشكلة من ناحية المسافة أو عقبات المواصلات .

ومن جهة أخرى فانتشار النزعة الانفصالية بما يتبعها من انقسامات بين المدن اليونانية خليق بأن يخلق الثغرات التي يمكن أن ينفذ منها هذا الملك. بينما كانت العلاقة بين الطبقات داخل المدن — وهي علاقة لم تكن تتجاوز المناورات التي تهدف إلى الكسب المؤقت وتفتقر إلى النظرة البعيدة في أغلب الأحيان — كانت كفيلة بأن تجد أنصارا لها، إن لم يكن عن اقتناع كامل، فعلى الأقل على المدى القصير. وهكذا بدأ فيليب سياسة لغزو المدن اليونانية منتهزا الانقسامات المستمرة بين هذه المدن. وكانت هذه السياسة تقوم على محاصرة إحدى المدن ومهادنة المدن الأخرى في الوقت نفسه، حتى إذا انتهى من اسقاط مدينة كرر الشيء ذاته مع مدينة أخرى وهكذا. وحين تنبهت أثينه وطيبة في نهاية الأمر ووحدا قواتهما العسكرية في وجه الغزو المقدوني كان الوقت قد فات واستطاع الجيش المقدوني أن ينزل بالقوات الأثينية — الطيبية المشتركة هزيمة ساحقة عند خايرونيه Chaeronea (في شمال بويوتيه) في ٣٣٨ ق . م . ووضعت كل بلاد اليونان تحت سيطرة فيليب .

وقد حاول فيليب أن يجعل سيطرته على المدن اليونانية سيطرة غير مباشرة وغير مرئية إلى حد كبير . فقد جمع المدن اليونانية في هيئة حلف أسس في السنة نفسها تحت اسم الحلف الهليني (اليوناني) وجعل مركزه في كورنثه حيث أصبح لهذا الحلف مجلس يضم مندوبين عن كل المدن اليونانية الأوروبية. وكانت المهمة الرئيسية لهذا المجلس هي أن يعمل على تزويد الملك المقدوني بما يحتاجه من قوات يونانية مقاتلة في أية مشروعات عسكرية قد يقدم عليها وعلى إشاعة السلام بين المدن اليونانيه عن طريق اصدار تشريع يحرم الحرب بين هذه المدينة وتعيين محكمين لفض ما قد يقوم بينها من نزاعات .

ولكن رغم قيام هذا الحلف فإنّ عام ٣٣٨ ق . م . يمكن أن نعتبره عام النهاية بالنسبة لنظام دولة المدينة . لقد رأينا هذا النظام يتدهور في أكثر من جانب : مرة حين فشل في تحقيق أية صيغة من صيغ الوحدة بين المدن اليونانية أو حتى في إقامة علاقات سلمية بينها ، ومرة أخرى حين تقلّصت قاعدته الاقتصادية بتقلّص التجارة اليونانية إلى الخارج ، وفي هذا المجال لم تكن أية مدينة يونانية ، إذا أخذت على حدة ، تملك من اتساع الموارد وتنوعها ما يعوّض آثار التجارة الخارجية المتقاصة ، ومرة ثالثة حين تخبطت قاعدته السياسية ؛ وكانت موقعة خايرونية في العام المذكور هي مجرّد المناسبة التي ظهرت فيها النتيجة المنطقية لتدهور هذا النظام . وحقيقة إنّ فيليب لم يقض على نظام دولة المدينة ، فقد أبقى المدن اليونانية كما هي بمجالسها التشريعية التي تمثل نقطة الوسط في مؤسساتها السياسية . ولكن هذه المجالس لم تعد قادرة على مناقشته كلّ شيء تريد مناقشته والوصول في ذلك إلى الرأى الذي تراه كما أن مجلس الحلف الهليني لم يكن هو الآخر تعبيرا حقيقيا عن الإرادة الجماعية للمدن اليونانية ؛ فإنّ الزعامة الإجبارية لمقدونيه وللملك المقدوني على هذا الحلف ، ومن ثم السيطرة عليه مهما كانت الصيغة الشفافة التي اتخذتها هذه السيطرة ، كلّ هذا كان أمرا مفروغاً منه .

سقط إذن نظام دولة المدينة (حتّى ولو كان قد استبقى شكله الخارجي) ولكن مع ذلك فإنّ نتائج هذا النظام لم تكن كلها شراً بالنسبة للمجتمع اليوناني . فقد وصلت الحضارة اليونانية في ظل دولة المدينة إلى ذروة نضجها.وهكذا إذا كان المقدونيون قد غزوا بلادااليونان عسكريا ، فإنّ الثقافة اليونانية قد غزت المقدونيين حضاريا . وقد ظهرت نتيجة ذلك بعد سنوات قليلة من سقوط المدن اليونانية أمام فيليب . فبعد موت هذا الملك في ٣٣٦ ق . م . خلفه على العرش ابنه

الاسكندر الذي وجّه أنظاره نحو الشرق، لغزو الامبراطورية الفارسية . واستطاع أن يحقق ذلك فعلا في تسع سنوات الانتصارات العسكرية (٣٣٤ ق . م . ٣٢٥ ق . م .) وقد كان اعتماده الأساسي في فتوحه هذه (إلى جانب الجنود المقدونية) على الجنود اليونان . وحين أراد إدارة امبراطوريته كان اعتماده كذلك على الممارسة اليونانية المتقدمة في هذا الصدد . وحين مات الاسكندر في ٣٢٣ ق. م. وانقسمت هذه الإمبراطورية إلى عدّة ممالك انتقل حكمها إلى قواده ؛ كان اعتماد هؤلاء على اليونان سواء في المجالات الإدارية أو العسكرية أو الثقافية، وهكذا وُجدت الفرصة لامتزاج الحضارة الإغريقية (اليونانية) بالحضارات الشرقية في صيغة عمت المنطقة كلها سواء في المناطق الشرقية أو في بلاد اليونان — وهي صيغة عرفت باسم الحضارة المتأغرقة (أو الهلنستية وهي الكلمة الأوروبية التي تفيد هذا المعنى) إشارة إلى المسحة الإغريقية لهذه الصيغة الحضارية الجديدة .

القسم الثالث

جوانب من النشاط الحضاري اليوناني

الباب الثامن

المسرح اليوناني

١ ـ ظهور المسرح اليوناني

ا ـ أصول المسرح اليوناني

تكمن الأصول الأولى للمسرح اليوناني في الاحتفالات الدينية التي كانت تقام في المناطق المختلفة في بلاد اليونان ، والتي كانت تدور حول عقيدة الإله ديونيسوس Dionysos (وهو اسم آخر للإله باخوس Bakkhos) الذي كان إلهاً للحصاد والثمار والكروم ، وإن كان قد اشتهر بصفته إلهاً للخمر . واليونان كانوا يقومون بهذا النوع من الاحتفالات كمظهر من مظاهر الابتهاج والشكر للقوى الإلهية التي تتحكم في الطبيعة . إذا كان المحصول وافراً ، أو كمظهر للابتهال أو التضرّع لهذه القوى الإلهية إذا قصّر المحصول عن الوفاء المنتظر .

ولم تكن هذه الاحتفالات في الحقيقة بدعة اقتصرت على بلاد اليونان ، وإنما عرفتها مجتمعات أخرى من بينها مصر وسورية على سبيل المثال لا الحصر . ففي مصر كانت تقام في بداية الربيع احتفالات تمثل تناوب الفصول ، تدور حول لإله أوزيريس (الذي ارتبط اسمه

بالحبوب والحصاد) تمجد عودته للحياة بعد أن قتله أخوه الإله الشرير ست. وفي هذه الاحتفالات كانت القصة الكاملة تمثل في شكل ديني شعبي تبين كيف قتل ست أخاه أوزيريس، ثم كيف سعت الآلهة إيزيس (زوجة أوزيريس) بكافة الطرق حتى استعادت جثة زوجها وأعادت إليه الحياة، وكيف تم الانتقام من ست. وفي سورية كانت تقام احتفالات مماثلة تدور حول أسطورة مماثلة كذلك، مؤداها أن الإله بعل (أو آذون = أدونيس) قد قتله خنزير بري، ثم حاولت زوجته الآلهة عشتار (أو عشتروت) إعادته للحياة حتى تعود الحياة إلى الطبيعة التي ماتت في الشتاء.

وفي بلاد اليونان استهدفت هذه الاحتفالات تصوير أسطورة هذه الإله، وهي الأسطورة التي اعتقد اليونان أنها تعبر عن آلامه وأفراحه. فقد كانت تصور الظواهر المتعاقبة التي تمر بشجرة الكروم. فشجر الكرم يبدو فاقداً للحياة حزيناً في الشتاء، ثم تعود إليه الحياة في الربيع وكأنما يعود إليه المرح، فتتفتح البراعم التي تمتد منها أغصان جديدة لا تلبث أن تغطيها نضرة الأوراق. ومع مجيء الصيف وحرارته تظهر الثمار ثم تنضج مع اقتراب الخريف وبعد أن تجمع وتعصر، تمتلئ بعصيرها الخوابي والدنان. وفي هذه المراحل المتعاقبة كان اليونان يرون مراحل يمر بها ديونيسوس من الألم والحزن إلى الفرحة والمرح، ثم الانتصار. وهكذا كان ما يحدث في احتفالات هذا الإله هو خليط من الشعائر التي تتخذ شكلاً جاداً ينشد فيه المحتفلون قصة الإله، ومن الانطلاق الذي يعبر به المحتفلون عن تصوراتهم بأشكال مختلفة من بينها الرقص والغناء والفكاهة الخشنة التي تتعلق بالإخصاب أو الجنس بطريقة أو بأخرى. وقد كان هذان العنصران هما الأصول الأولى للمسرح اليوناني: فالشعائر الجادة التي ينشد فيهـا المواطنون أناشيد تبين تقلبات الحيـاة

وخضوعها لقوة أكبر منها تسيطر عليها بما يتصل بذلك من ألم ومعاناة وصراع ، هي أصل المأساة أو المسرحية التراجيدية . والعنصر الثاني الذي يتصل بالمرح والفكاهة هو أصل الملهاة أو المسرحية الكوميدية ، وامتزاج هذين العنصرين هو أصل اللون المسرحي الثالث وهو المسرحية الساتورية ، وهو لون تتداخل فيه العناصر المأساوية مع العناصر الضاحكة المرحة . وقد مرّت هذه الأصول الأولى ، قبل أن تتبلور في شكلها النهائي كفن وأدب مسرحي ، بمرحلة أولى من التنظيم والتشذيب أنتجت نوعين من العروض أو الاستعراضات المنظمة .

والنوع الأول من هذه العروض ، هو العروض الغنائية الجادة . ورغم أن ما كتبه اليونان في هذا المجال اندثر كله تقريباً بحيث لم يصل إلينا إلاّ بعض شذرات من هذه العروض وبعض إشارات إليها ، إلاّ أن هذه تكفي لإلقاء بعض الضوء على تطور هذه العروض . والتسمية التي عرف بها اليونان هذا النوع من العروض هي استعراضات الديثيرامبوس Dithyrambos . والتسمية في حدّ ذاتها غير يونانية الأصل ، إلاّ أنها حين استخدمها اليونان في أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن السابع ق . م كانت تعني « أغنية ديونيسوس » وأنّ أحد الأشخاص كان يتولى قيادة مجموعة من المغنّين في إنشادها ، ولو أن هذا لا يعني أنّ هذا الإنشاد كان له آنذاك شكل محدّد أو أبعاد واضحة سواء من حيث المنشدين أو من حيث موضوع الإنشاد . ولكن تطوراً جدّ على هذا الاستعراض الغنائي حوالي ٦٠٠ ق.م حين أخضعه آريون Arion الكورنثي لشيء من التحديد . فأصبحت هناك مجموعة غنائية منتظمة ، كما كان غناؤها في كلّ مرّة يتناول موضوعاً محدّداً . ومن كورنثه انتقلت فكرة هذه الاستعراضات الديثيرامبية إلى أثينه حيث أصبحت قبيل القرن الخامس ق.م مجالاً للمباراة في الاحتفالات المتصلة بأعياد الإله

ديونيسوس ، وإن كانت الأغاني لم تعد بالضرورة تدور حول هذا الإله بشكل مباشر . وفي أثينه شهدت هذه الاستعراضات تطوراً نحو النضوج فلم تعد قاصرة على سرد الأحداث في نمط واحد ، وإنما أصبحت تتكوّن من مقاطع Strophai تصوّر كلّ منهـا موقفاً ، ومقاطع مقابلة antistrophai تصوّر مواقف تعرض الجانب الآخر من الفكرة أو الموضوع ، وهكذا وصلت هذه الاستعراضات إلى قمة نضوجها كلون من ألوان الفنّ الغنائي ، وكانت بذلك مقدّمة لظهور مسرحية المأساة اليونانية فيما بعد . على أن تطوراً جديداً تعرّض له هذا النشاط الغنائي حوالي ٤٧٠ ق.م ، إذ بدأ عنصر الموسيقى (الذي كان يتكوّن أساساً من أنغام على الناي والقيثارة) يتغلّب على إنشاد الشعر ، بحيث أخذ هذا النوع من العروض يفقد سمته الأساسية وهي الإنشاد ومن ثم يبدأ في الانحدار ، وإن ظلّ مستمراً كنوع من النشاط الفنّي في مناطق مختلفة من بلاد اليونان بعد ذلك بعدة قرون .

هذا عن النوع الأول من العروض المنظمة ، أما النوع الثاني فنحن لا نستطيع أن نتتبع تطوره بنفس السهولة في الفولكلور اليوناني ، ولكن بعض ملامحه أسهمت دون شكّ في ظهور مسرحية الملهاة عند اليونان في فترة لاحقة . وقد كان هذا النوع استعراضاً هزلياً مرحاً تقوم به جماعة من المشتركين في أعياد الإله ديونيسوس ، وكانت التسمية التي أطلقت على هذا الاستعراض هي كوموس Komos ، ولعل هذه التسمية هي التي حدت بالمفكر اليوناني أرسطو إلى الربط بين هذه الاستعراضات وظهور الكوميدية أو مسرحية الملهاة . ورغم أن هذا النوع من الاستعراض لم يكن فيه ما يقترب من عنصر « التمثيل » الذي يشكل جوهر العمل المسرحي ، إلا أنّ المشتركين فيه كانوا يظهرون متنكرين في ملابس

تعطيهم شكل الحيوانات أو الطيور ، وهو عنصر نجده يظهر في الجوقات التي شكلت قسماً من المسرحيات الكوميدية التي ظهرت فيما بعد ، فقد ظهرت بعض هذه الجوقات متنكرة في هيئة ضفادع وطيور وذكور النحل وحيوانات أخرى . كذلك يبدو أنّ هذه العروض كانت تنتهي في صورة وليمة ، وقد كانت هذه النهاية ، كذلك ، من العناصر التي ظهرت في المسرحيات الكوميدية فيما بعد .

ب ــ ظهور المسرح اليوناني

كانت هذه هي العروض التي بدأ يظهر فيها قدر من التنظيم والتطوّر كان في حقيقته مقدمة لميلاد المسرح اليوناني . ومن النوع الأول ، وهو الديثيرامبوس أو العرض الغنائي الجاد انبثقت التراجيدية أو مسرحية المأساة لتصبح لوناً فنيّاً قائماً بذاته . والتراجيدية تعتبر في الواقع البداية الحقيقية للفن المسرحي اليوناني ، إذ فيها بدأ «سرد» المواقف يتحول ، لأول مرة ، إلى « حوار » . وقد كانت بداية هذا التطوّر على يد شخص اسمه ثسبيس Thespis ، عاش في أثينه في أواسط القرن السادس ق.م وأراد أن يعطي الأناشيد الجماعية التي كانت تنشد في العروض الديثيرامبية شيئاً من التشويق عن طريق « التجسيد » . فبعد أن كان المنشدون يسردون الأحداث والمواقف بكل ما في هذه الأخيرة من حديث فيه أخذ وردّ بين الشخصيات التي يتناولها المنشدون ، أدخل ثسبيس تطويراً جديداً (حوالى ٥٣٥ ق.م) تطويراً لهذا الوضع ، فجعل واحداً من المنشدين يقوم بدور هذه الشخصية أو تلك حينما يرد ذكرها في الإنشاد . وبهذا التطوير تحوّل سرد مجموعة المنشدين أو الكورس Choros الحديث بشكل غير مباشر إلى حوار مباشر بين رئيس الكورس وبين من يقوم بدور

الشخصية المطلوبة[1] . وقد أطلق اليونان على من يمثل هذه الشخصية أو يقوم بدورها تسمية هيبوكريتيس hypokriies ومعناها « المجيب » أو « المفسّر » أو « الشخص » الذي يدّعي دور شخص آخر . ومن ذلك نستنتج طبيعة دور الممثل في البداية . فقد كان هذا الدور ينحصر تقريباً في الإجابة على بعض أسئلة يلقيها الكورس أو رئيس الكورس ، بحيث تكون هذه الإجابة نوعاً من التفسير أو التوضيح ، وذلك عن طريق تقمّص الممثل لشخصية أخرى غير شخصيته بهدف تجسيد الموضوعات التي تتحدث عنها أناشيد الكورس . وبظهور هذا الاتجاه أو هذا التطوّر نحو تجسيد الإلقاء يمكننا أن نقول إنّ فنّ الدراما أو فنّ المسرح قد بدأ عند اليونان*.

وقد كانت المسرحية التراجيدية بسيطة في بدايتها ، فهي ملتزمة بأن يكون موضوعها متصل بالإله ديونيسوس . والحوار لا يتعدّى « مجيباً » أو ممثلاً واحداً يقوم بتقمّص دور كلّ الشخصيات التي يرد ذكرها في المسرحية ، وإنشاد الكورس أو الجوقة هو العنصر الرئيسي في المسرحية . هذا ، ويبدو أن الممثل وأفراد الكورس أو الجوقة جميعاً كانوا يلبسون جلد الماعز في أثناء العرض (وقد كان من الأمور المألوفة آنذاك أن تصنع ملابس الرعاة والفلاحين من جلد الماعز) أو أنّ الجائزة التي

---

(1) قبل هذا التطوير كان هناك شيء قريب منه ولكنه لا يصل اليه من حيث صفة التجسيد التي نتحدث عنها والتي تشكل جوهر هذا التطوير . ذلك ان اتجاها كان قد بدأ يظهر تدريجيا في المناسبات التي كانت تلقى فيها الاناشيد مؤداها ان رئيس الكورس كان يشغل الفترات الزمنية القصيرة بين هذه الأناشيد ، بانشاد فردي يقوم به هو ويشترك معه الكورس في بعض الأحيان على هيئة ما يمكن ان نسميه حوارا غير محدد بين الطرفين ، حتى اذا انتهت الفترة التي يتم فيها ذلك عاد رئيس الكورس فانضم الى الكورس كما كان واشترك مع افراده في تأدية اناشيدهم . اما بعد هذا التطوير الذي ادخله تسبيس فقد اصبح الحوار محددا من جهة ، كما اصبح الممثل منفصلا عن الكورس ومتفرغا لأدوار الشخصيات التي يقوم بتمثيلها من جهة اخرى .

تفوز بها أحسن مجموعات الإنشاد أو أحسن الممثلين كانت عنزا ، ومن هنا أصبح اسم المسرحية التي من هذا النوع تراجيدية tragoidia (وهي كلمة يونانية مركبة من كلمتين tragos بمعنى العنز و oidia بمعنى أغنية) أو الأغنية العنزية .

ولكن المسرحية التراجيدية لم تبق على بساطتها ، فهد شهدت ابتداء من أوائل القرن الخامس عدداً من مراحل التطوّر سواء في المضمون أو في الشكل والأداء . فمن حيث المضمون لم يعد موضوع المسرحية يدور حول ما يتصل بالإله ديونيسوس وإنما أصبح يدور عموماً حول الصراع بين الآلهة والإنسان أو بين القدر والإنسان أو بين الخير والشرّ أو حول مواضيع أخرى من هذا القبيل ، وهي مواضيع كثيراً ما كانت تؤخذ من الأساطير اليونانية . ومن حيث الشكل تطوّر عدد المجيبين أو الممثلين من ممثل واحد إلى ثلاثة ، وإن كان لم يزد عن هذا العدد إلاّ في مناسبة واحدة ربما وجد فيها أربعة ممثلون (وكان هؤلاء يقومون بكلّ الأدوار بصرف النظر عن عددها) ، كما ظهرت تحسينات تتصل بالإخراج ومستلزمات المسرح عموماً .

وقد تمّ هذا على يد ثلاثة من شعراء المسرح الأثينيين . وكان أول هؤلاء هو إيسخيلوس Aeschylos (٥٢٥ — ٥٢٤ — ٤٥٦ ق . م .) الذي يرجع إليه الفضل في وصول التراجيدية اليونانية إلى الصورة التي نعرفها بها . فقد تخطى مبدأ الممثل الواحد ليدخل في مسرحياته ممثلاً ثانياً ، وهو أمر أدى إلى زيادة عنصر الحوار عن عنصر الغناء أو الإنشاد عند الكورس ، كما مكّن من تضمّن المسرحية لمواقف يبرز فيها الصراع بين وجهات النظر المختلفة أو المتعارضة . هذا ، إلى جانب اهتمام ايسخيلوس بتطوير الأقنعة (التي كانت لازمة طالما كان الممثل الواحد يقوم بدور عدد من شخصيات المسرحية رجالاً ونساءً) بحيث تعطي

تعبيراً دقيقاً عن ملامح الشخصية وصفتها الأساسية (البطولة أو الشراسة أو النذالة .. الخ) ، وإلى جانب اهتمامه بثياب الممثلين حتى تتناسب مع الأدوار التي يقومون بها . وقد استطاع ايسخيلوس أن يعبّر من خلال كلّ هذا عن القيم والمعاني الكبيرة التي ضمنها مسرحياته والتي كانت تدور في أغلبها حول الإرادة الإلهية كقيمة تشير إلى الخط السليم وسط الصراعات التي يزخر بها المجتمع .

أمّا ثاني هؤلاء الشعراء المسرحيين الكبار الذين أسهموا في تطوير التراجيدية اليونانية فهو سوفوكليس Sophokles (٤٩٦–٤٠٦ ق.م) ، وقد شمل إسهامه في هذا التطوير إضافة ممثل ثالث ممّا فتح بالضرورة مجالاً أوسع لإمكانيات الحوار ومن ثمّ خدمة مواقف الصراع التي تحتوي عليها المسرحية ، كما شمل هذا الإسهام زيادة سرعة الحركة وسهولتها في المسرحية على حساب بعض العناصر التقليدية التي كانت تعوق هذه السرعة (مثل الإطالة في المقطوعات التي كان ينشدهـا الكورس) وإدخال فكرة تلوين المنظر الذي كان بمثابة خلفية للممثلين . هذا وفيما يخصّ مضمون المسرحية أبرز سوفوكليس عنصر البطولة في الإنسان بشكل واضح .

ثم يأتي ثالث هؤلاء الشعراء وهو يوروبيديس (٤٨٥ ؟ — ٤٠٦ ؟ ق . م) الذي كان أبرز ما أسهم به في تطور المسرح التراجيدي يتعلق أساساً بمضمون المسرحيات الذي اعتنى عناية خاصة يجعله بالحيوية ولكنه يتصف بالواقعية التي تصوّر الصراعات الحقيقية للإنسان في حجمـه العادي ؛ لا كمخلوق لا حول له ولا طول أمام إرادة الآلهة كما فعل ايسخيلوس ، ولا كبطل صراعاته أكبر من حجمه الإنساني كما فعل سوفوكليس . وهكذا عالج في مسرحياته عدداً من الموضوعات التي يمكن أن تشغلنا حتى الآن مثل : الوطنية المبالغ فيها ، المعاناة غير العادلة في

الحروب ، العوائق التي تقف في وجه المرأة ، الخرافة والتعصب أو التزمت في الدين ، الصراع بين الغبي والمعقول ، وهكذا — وفي وسط كلّ هذه التناقضات يشير إمكان التغلب عليها إلى طريق واحدة هي التساند والتعاضد بين الأفراد العاديين .

هذا عن التراجيدية أو المسرحية المأساوية . وقد رأينا أنها ابتعدت ثم انسلخت عن معالجة الأساطير المتعلقة بالإله ديونيسوس ، ومن ثم لم تعد تشترك فيها مجموعة الممثلين والمنشدين الذين يمثلون فكرة الحياة البرية وما فيها من كائنات هائمة تمثل الرغبات الحيوانية أو غير المعقولة في الإنسان ، وتتخذ ، في تصوّر اليونان ، أشكال آدميين لهم بعض أعضاء الحصان أو العنز ، كانوا يطلقون عليها اسم ساتيروى Satyroi . وقد كانت العروض الديونيسية وكذلك المسرحيات التراجيدية في بداية الفترة التي شهدت ظهورها تضمّ إلى جانب المشاهد المأساوية مشاهد يظهر فيها أشخاص يتنكرون ، عن طريق الملابس ، في هيئة هذه الكائنات الساتيرية ويقومون بأدوار فيها شيء من المرح والجرأة التي تشيع في العرض قدراً غير قليل من البهجة .

فلما اتخذت المسرحيات التراجيدية مسارها الجديد بعيداً عن أساطير ديونيسوس بما يتصل بها من أدوار هذه الكائنات ، وهي أدوار اختفت نهائياً من هذه المسرحيات مع أوائل القرن الخامس ق . م ، ظهرت رغبة لدى الجماهير اليونانية في استمرار هذا النوع من الأدوار على أساس أنه يرتبط مباشرة بالأساطير المذكورة التي كانت تحظى برواج كبير لديهم وكان هذا اللون من التعبير الساتيري عنها يشدّهم إلى حدّ كبير . وهكذا ظهرت ، إلى جانب المسرحيات التراجيدية ، مسرحيات قائمة بذاتها خاصّة بأدوار هذه الكائنات سميّت باسم المسرحيات الساتيرية . وقد كانت هذه المسرحيات تجمع بين مآسي الإله ديونيسوس من جانب

وبين ما أسلفت الإشارة إليه من روح المرح والصراحة أو الجرأة التي تتخطّى . في تعبيرها ، القيود التي يفرضها المجتمع (والتي قد تصل إلى حد التناقض مع الطبيعة) ومن ثم تضفي على العرض المسرحي جوّاً من المرح يختلط بهذه المواقف المأساوية ، كما تضع نهاية سعيدة لهذه المواقف بحيث يتحول العرض المسرحي إلى ما يمكن أن نسميه المأساة الضاحكة أو الملهاة الدامعة .

وقد لقي هذا اللون من الفن المسرحي استجابة كبيرة لدى المشاهد اليوناني ، ولعلّ خير دليل على هذا النجاح هو أنّه ابتداء من النصف الثاني للقرن الخامس ق . م . أصبحت شروط المباريات المسرحية التي كانت تقام في أثينه في مناسبة الاحتفالات الديونيسية تتضمن أن يتقدم كل من الشعراء المسرحيين الثلاث المتبارين بأربعة مسرحيات ، ثلاث منها مسرحيات تراجيدية ، والرابعة مسرحية ساتيرية ، على اعتبار أنها استبقت ، أكثر من غيرها ، قدراً أكبر من الصلة الاساطير الديونيسية . وقد اندثرت كل مسرحيات هذا اللون المسرحي فلم يصلنا منها سوى شذرات متفرقة أو مجرد أسماء للمسرحيات في بعض الحالات – فيما عدا مسرحية واحدة (غير محدّدة التاريخ) كتبها يوريبيديس ، وهي مسرحية الكيكلوبيس Kyklopes .

وغير هذين اللونين من الفنّ المسرحي اليوناني ، وهما التّراجيدية والمسرحية الساتيرية ، كان هناك لون ثالث تمثله الملهاة أو المسرحيــة الكوميدية . وقد أسلفت الإشارة إلى العروض التي أسهمت على الأقلّ في ظهور المسرحيات الكوميدية اليونانية في صورتها النهائية التي وصلت إلينا . ولم تتخذ الكوميدية موضوعاتها من الأساطير أو قصص الأبطال كما كان الحال في التّراجيدية ، وإنما من المفارقات التي كانت تنطوي عليها حياة المجتمع نفسه في جوانبه المختلفة .

وقد ظهرت الكوميدية في أنحاء متفرقة من بلاد اليونان وربما كانت أسبق في الظهور في مدينة ميجاره وفي المدن اليونانية في صقلية ، ولكنها بلغت ذروتها في أثينه وبخاصة في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع ق . م . وكان السبب في ذلك هو وضع المجتمع الأثيني في ذلك الوقت . فأثينه كانت تمر آنذاك بفترة من التخلخل الاجتماعي الذي سببته الخسائر الاقتصادية والسياسية التي عانت منها كثيراً من جراء الحروب البلوبونيسية ، وقد وصلت هذه الخسائر إلى ذروتها ومن ثم وصل التخلخل الاجتماعي إلى ذروته في أعقاب الهزيمة الساحقة التي حاقت بأثينه في نهاية هذه الحروب عند مشارف القرن الرابع ق . م . وقد تمخض كل هذا عن عدد كبير من المفارقات والمتناقضات في حياة الأثينيين كانت موضوعاً حدا بعدد من المفكرين ، سواء في ذلك السوفسطائيون أو الفلاسفة ، للتأمل فيه بهدف التوصل إلى طرق معالجته كل بطريقته ، وكانت بالضرورة موضوعاً متجدداً للمسرحيات الكوميدية يطرح فيها الكاتب والفنان المشاكل العامة واليومية للمجتمع الأثيني بإلقاء ضوء ساخر يبرز هذه المفارقات والتناقضات عن طريق إثارة الضحك منها . ومما ساعد على وصول المسرح الكوميدي إلى قمته في هذه الفترة أن أثينه كانت قد وصلت في تلك الفترة إلى ذروة تطورها الديمقراطي الذي أتاح الفرصة الكاملة للمواطن الأثيني في التعرض لمشاكله بهدف إلقاء ضوء بناء عليها بالصورة التي تروقه .

وقد بلغ المسرح الكوميدي هذه القمة على يد أرستوفانيس **Aristophanes** (حوالي ٤٥٠ – ٣٨٥؟ ق . م) الذي لمع اسمه كشاعر مسرحي كوميدي في هذه الفترة ، كتب ما يربو على أربعين مسرحية وصلت إلينا منها ١١ مسرحية في صورتها الكاملة . وفي هذه المسرحيات يوجه هذا الشاعر المسرحي انتقاداته صريحة مرة ، مقنعة مرة ولكنها ساخرة

لاذعة دائماً ، إلى التناقضات التي زخرت بها حياة الأثينيين آنذاك . سواء في ذلك ما يتعلّق بالنظام الديمقراطي أو بالانحرافات الثقافية أو بالأفكار الاشتراكية التي سادت لبعض الوقت (وبخاصة في أعقاب الحروب البلوبونيسية وما نتج عنها من هوة اجتماعية بين قلة مثرية زادت ثراء وكثرة فقيرة زادت فقراً) . أو بالتأرجح بين اتجاهي الحرب والسلام ، أو غير ذلك . وقد أبدع أرستوفانيس في كلّ هذا فوجّه أشدّ النقد للأوضاع والشخصيات ، ولكن دائماً في فكاهة تجعله مقبولاً لدى المشاهدين . وساق كلّ موقف من مواقفه في قدرة لا تنضب على المعالجة . تظهر مرة في صورة مشهد هزلي يضجّ به الممثلون حركة وحواراً ، ومرّة في صورة نشيد يفيض عذوبة يتغنّى به المنشدون من أفراد الكورس ، وتظهر مرّة ثالثة في ردّ أو تعليق لا يتجاوز جملة واحدة أو بضع كلمات ولكنه يلخّص بطريقته الخاصّة موقفاً كاملاً بكلّ جوانبه .

ج – ازدهار الأدب المسرحي في أثينة

وتبقى في ختام الحديث كلمة سريعة تخصّ ظاهرة تستلفت النظر . مؤداها أنّ الفنّ المسرحي إذا كان قد ظهر في أكثر من منطقة من مناطق بلاد اليونان ، فإنّ أدب المسرح قد ازدهر في أثينه بوجه خاصّ ، بحيث احتلّ هذا اللون الأدبي مكانه كلون قائم بذاته جنباً إلى جنب مع الألوان الأدبية الأخرى مثل الملحمة والشعر الفردي أو الشخصي والشعر الغنائي . ولكي ندرك السبب الذي من أجله ازدهر الأدب المسرحي بالذات في أثينه أكثر من غيرها من بلاد اليونان ، بحيث أصبحت تسمية « المسرح اليوناني » تعني في المقام الأول « المسرح الأثيني » أعرض هنا ، بشكل سريع ، الظروف التي أدت إلى ازدهار الأدب بوجه عام في أثينه بحيث شكّل هذا الازدهار قفزة أدبية عبّرت عن نفسها ، كما

يحدث دائماً عندما يزدهر الأدب أو الفن في عصر معين أو في مكان معين ، باتخاذ شكل أدبي أو فني جديد . وقد كان الشكل الأدبي الجديد الذي ظهر في أثينه تعبيراً عن قفزتها الأدبية هو : المسرح[٢] .

أما عن الظروف التي أدت إلى ازدهار الأدب في أثينه فأولها يتعلق بطبيعتها الجغرافية . وفي هذا المجال نجد أن الموقع المتوسط لشبه جزيرة اتيكه (التي تشغلها أثينه وضواحيها وموانيها والأراضي المحيطة بها والتابعة لها) يسهل لسكانها الاتصال بمنطقة بويوتيه في الشمال وشبه جزيرة البلوبونيسوس (المورة الحالية) في الجنوب . كما يسهل لهم الاتصال البحري (عبر بحر ايجه والجزر الموجودة به) بالمهاجرين الأيونيين (وهم من عنصرهم) على الساحل الغربي لشبه جزيرة آسية الصغرى . وقد مكّن هذا للأدباء الأثينيين من التعرف على أساليب وطرق أدبية جديدة استطاعوا ، بالاحتكاك المستمر ، أن يستوعبوها . ومن ثم أن يدفعوا بأدبهم خطوات نحو الأمام .

أما الظرف الثاني فهو ذو طبيعة تاريخية ويرجع إلى أواسط القرن السادس حين كان يسيطر على مقاليد الأمور في أثينه الطاغية بيسستراتوس Peisistratos . لقد لجأ هذا الحاكم إلى تدعيم مركزه في أثينه وإضفاء أكبر قدر من الشرعية عليه عن طريق سلسلة من الاهتمامات بأوجه النشاط المختلفة والاقتصادية والفنية والأدبية التي عني بها وشجع المواطنين في مجالاتها . وقد لقي المجال الأدبي فعلاً قدراً كبيراً من الاهتمام والتشجيع على يديه وكان من أبرز ما ظهر في عهده ، وبتشجيع منه ، على سبيل المثال جمع وتدوين أول نص كامل للملحمتي الإلياذة والأوديسية

---

(٢) الحديث عن « الادب » المسرحي وليس عن « الفن » المسرحي ، فقد عرفت بعض المناطق اليونانية فن الكوميدية مثلا قبل ان تعرفه اثينة .

المنسوبتين إلى هوميروس بعد أن كان تداول أشعار هاتين الملحمتين يتم حتى ذلك الوقت بشكل شفهي . وقد أدّى هذا ، دون شك ، إلى ازدهار النشاط الأدبي في أثينه . ولعلّنا ندرك ، بشكل غير مباشر ، قيمة ذلك بوجه خاص على الأدب المسرحي فيما بعد إذا ذكرنا أن عدداً كبيراً من المسرحيات اليونانية كان يدور – على الأقل فيما يتعلق بالمسرح التراجيدي ، أو مسرح المأساة – حول أساطير وقصص يونانية حفظتها هاتان الملحمتان من الضياع ، الأمر الذي حدا بأحد شعراء المسرح التراجيدي الأثيني أن يقول : إننا (أي شعراء المسرح) نعيش على فتات مائدة هوميروس .

ثم يأتي الظرف الثالث والأخير : ولعله أهم هذه الظروف ، وهو الدفعة السياسية التي قادت أثينه إلى زعامة بلاد اليونان في القرن الخامس ق . م . بكل ما تبع هذه الزعامة من مركز أدبي ورخاء اقتصادي – لا يدانيها فيهما أحد في بلاد اليونان . فقد خرجت أثينه من الحروب الفارسية (٤٩٠ و ٤٨٠ ق . م) زعيمة للمدن اليونانية البحرية المطلقة على شواطئ بحر ايجه أو الموجودة في جزره . ثم أصبحت زعيمة للحلف الذي تكوّن من هذه المدن غداة هذه الحرب . ولم يلبث هذا الحلف أن تحوّل إلى امبراطورية أثينية حقيقية تدين لأثينة بالولاء وتجني أثينة من ورائها خيراً كثيراً . وفي وسط كل هذا انتعش الأدب الأثيني انتعاشاً كبيراً . وقد أدّى هذا الانتعاش – إلى جانب الطرفين السابقين – إلى تدعيم خطوات الأدباء الأثينيين على طريق الشكل الأدبي الجديد وهو الكتابة المسرحية .

٢ – المقومات المادية للمسرح اليوناني

كان هذا عن أصول المسرح وظهوره كلون من ألوان الفن والأدب ، إذا كان اليونان لم ينفردوا بمعرفته في العصور القديمة ، فقد انفردوا

بتطويره بحيث خرجوا به من دائرة الشعائر الدينية إلى فن أدبي كامل يعالج شئون المجتمع وتناقضاته من خلال المجتمع ذاته ، وليس من خلال الآلهة والدين فقط . وانتقل الآن إلى حديث آخر أعرض فيه بشكل سريع للمقوّمات التي قام عليهما فن المسرح في بلاد اليونان ، سواء منها المقوّمات المادية أو المقوّمات البشرية . ولتكن بداية الحديث عن المقومات المادية أو الأقسام التي كان ينقسم إليها مكان المسرح وبناؤه .

أ ـ الأوركستره أو ساحة الرقص

وأول هذه الأقسام هو الأوركستره Orchestra أو مكان الرقص ، وهو المساحة أو المكان الذي كان أعضاء الجوقة (أو الكورس) يؤدون فيه رقصاتهم وأناشيدهم أثناء أداء المسرحية ، وقد يبدو الكلام عن ساحة الرقص هذه غريباً في بداية حديث عن مقوّمات البناء المسرحي . ولكن يجب أن نذكر أننا نتحدث عن المسرح اليوناني وأن بداية المسرح اليوناني كانت تطور الأناشيد التي يلقيها الكورس في الاحتفالات الدينية كما مرّ بنا في مناسبة سابقة . ومن هنا فإن هذه الأناشيد كانت في بداية تطور الفن المسرحي هي أهم أجزاء المسرحية ، ومن ثم فإن الأوركسترا ، أو الساحة التي كان أعضاء الكورس يؤدون فيها هذه الأناشيد أثناء رقصاتهم كانت بالضرورة أهم قسم في المكان أو البناء المسرحي .

وقد كانت ساحة الأوركستره في البداية عبارة عن أيّ اتساع مسطح يقع عند سطح أو منحدر تل أو مجموعة تلال ، وكان شكلها عادة مستديراً . وقد كان هذا الشكل الدائري هو دون شك الشكل المثالي للمكان الذي تؤدي فيه جماعة الكورس أناشيدها ورقصاتها . ولكن مع ذلك فإن هذا الشكل الدائري يبدو أنه لم يكن أمراً لا استثناء له ، فهناك مثال لمسرح صغير في منطقة توريكوس Thorikos إلى الشمال

الشرقي من أثينه ، وفيه نجد شكل الأوركستره مربعاً تقريباً حسب الحد الذي اتخذه السفح الصخري للمرتفعات في المنطقة التي أقيم فيها المسرح .

وفي وسط ساحة الأوركستره هذه يقوم مذبح القرابين الخاص بالإله ديونيسوس Dionysos الذي كانت تقام المباريات المسرحية احتفالاً بعيده ، وفي الواقع كجزء من شعائر هذا العيد . هذا وإن أقدم آثار باقية حتى الآن لمثل هذه الساحة ، هي الأوركستره التي تشكل جزءاً من مسرح ديونيسوس في أثينه ؛ عند منحدر الأوكروبوليس . ويرجع تاريخها إلى أواسط القرن الخامس تقريباً .

وقد كانت ساحة الأوركستره كما ذكرت هي أهم قسم من أقسام المسرح اليوناني عند نشأته وفي بداية نموّه . ولكن تطور الفن المسرحي اليوناني أدّى إلى تناقص أهمية الدور الذي كانت تقوم به الجوقة (أو الكورس) في المسرحيات تدريجياً ، حتى جاء الوقت (في العصر الروماني) الذي كان ينعدم فيه هذا الدور . وقد كانت نتيجة ذلك ، من الناحية العملية ، أن وجود الأوركستره أصبح شيئاً لا لزوم له ، ومن هنا أصبحت هذه الساحة تستخدم لإضافة أعداد من المقاعد للمشاهدين في كثير من الأحوال .

ب ــ غرفة الممثلين «سكيني»

ومن الطبيعي أن نشأة الفن المسرحي ، بحيث وجد الممثلون الذين يجسّدون الأحداث التي يرويها أعضاء الكورس في أناشيدهم ، أدّى إلى ضرورة وجود مكان يستعد فيه هؤلاء الممثلون ، بتبديل ملابسهم لتناسب الأدوار التي كانوا يقومون بها في المسرحيات . وقد كان هذا المكان في بداية الأمر عبارة عن خيمة صغيرة (واسمها باليونانية سكيني Skene) تقام قريباً من رأس دائرة الأوركسترا في مواجهة المشاهدين ،

ثم توقف عند انتهاء الموسم المسرحي الذي كان يقام أثناء الاحتفالات بأعياد الإله ديونيسوس .

وبالتدريج ، وبتزايد عدد الممثلين كما أشرت في حديث سابق ، طوّر اليونانيون هذه الخيمة بحيث أصبحت مبنى من الخشب فيها عدد من الأبواب التي يدخل منها الممثلون إلى حيث يؤدون أدوارهم ، وإن كان هذا البناء الخشبي ، هو الآخر ، لم يكن بناء دائماً و إنما كان يزال عند انتهاء موسم المباريات المسرحية . وانتهى الأمر بعد فترة من الزمن (ربما في الربع الأخير من القرن الخامس ق . م) بأن حل محل هذا البناء الخشبي بناء حجري دائم يتسع لما يحتاجه الممثلون من تبديل ملابسهم بين مشاهد المسرحيات ويتسع كذلك لإيواء بعض الأدوات والرافعات التي بدأ القائمون على شؤون المسرح يحتاجون إليها في إخراج المسرحيات .

كذلك فإن نوعاً من التزيين كان قد بدا يظهر على واجهة هذا البناء . فعندما كان البناء لا يزال خشبياً كانت ترسم عليه بعض المؤثرات أو المناظر المعمارية . وعندما أصبح البناء حجرياً أصبح يزينه عدد من الأعمدة وتماثيل الآلهة . على أن هذا التزيين ، سواء عن طريق الرسم أو عن طريق الأعمدة والتماثيل ، يجب ألاّ ننظر إليه على أنه يعادل المناظر التي نعرفها في المسرح والتي تمثل الخلفية اللازمة لمشهد أو لمجموعة من المشاهد . وإنما كانت الرسوم أو الأعمدة أو تماثيل الآلهة في المسرح اليوناني للتزيين فحسب وليس أكثر من ذلك ، ولا علاقة لها إطلاقاً بفكرة المناظر التي نعتقد في الوقت الحاضر أنها لازمة للإيحاء بفكرة المسرحية . فاليونان كانوا ، بكل بساطة ، لا يهتمون بفكرة المناظر بالشكل الذي نهتمّ به الآن بهذه المناظر .

وقد كان هناك سببان لذلك . فمن جهة كان قسم كبير من

المسرحيات (وبخاصة مسرحيات التراجيدية أو المأساة) يدور حول أساطير وقصص فولكلورية معروفة لجمهور المشاهدين بحيث كان الوضع الطبيعي أن يذهب هؤلاء المشاهدون وهم على علم مسبق بفكرة المسرحية وقصتها والمكان أو الأمكنة التي دارت فيها أحداثها ، ويصبح كل ما ينتظرون هو في حقيقة الأمر كيفية إخراج هذه الفكرة أو مسرحتها ، والقيمة أو وجهة النظر التي يريد مؤلف المسرحية أن يؤكد عليها ويثبتها من خلال الأسطورة أو القصة الفولكلورية التي اتخذها موضوعاً لمسرحيته ، ثم المستوى الأدبي للغة الشاعر المسرحي (وكان هذا من الأمور التي اهتم اليونان بها إلى حد كبير ، يدلنا على ذلك ما نعرفه عنهم من حفظ مقاطع كثيرة ، قصيرة أو طويلة من عدد كبير من هذه المسرحيات واستشهادهم بها في مناسبات كثيرة) ثم أخيراً ، بطبيعة الحال ، أداء الممثلين للمسرحية .

ومن جهة أخرى فإن الشعراء المسرحيين اليونان كانوا يستعيضون عن هذه المناظر ، إلى حد كبير ، بما يذكرونه في صلب المسرحية من جمل أو سطور تعطي فكرة عن المكان الذي تدور فيه الأحداث أو المواقف . فكان يكفي مثلاً أن يقول أحد أشخاص المسرحية : « ها أنذا لا زلت قابعاً في مكاني على مدار السنة على سطح قصر آل أتريوس .. انتظاراً لشارة المشعل التي ستأتي بالأخبار من طروادة »[٣] لنعرف أن الأحداث ستدور في هذا القصر أو حوله على أي حال . أو يقول آخر « لقد أتيت إليكم لأتتلمذ في معهد الفكر التابع لكم »[٤] لنعرف ، مع إشارة إلى اسم سقراط بعد سطرين ، أن الخلفية المكانية للحدث هي المكان الذي كان هذا الفيلسوف يجتمع فيه بتلاميذه ، وهكذا .

(٣) Aeschylos : Agamemnon, 3- 8.

(٤) Aristophanes : Nephelae, 41 - 2.

ج — «خشبة» المسرح

الحديث عن ظهور الممثلين ثم تزايد عددهم من واحد إلى ثلاثة يستتبع بالضرورة الحديث عن المكان أو المساحة التي يؤدون عليها أدوارهم أو ما نسميه بلغة العصر الحاضر «خشبة المسرح». ووجود مثل هذا المكان أمر يبدو من الناحية المنطقية ضرورياً بعد أن لم يعد دور الكورس هو الدور الأول والأخير أو الدور الذي يطغى على كل ما عداه في المسرحية. وفي الواقع فقد وجد في المسارح التي يرجع بناؤها إلى القرنين الرابع والثالث ق . م . مكان مرتفع يؤدي عليه الممثلون أدوارهم، مبنيّ من الحجر. ويصل ارتفاعه إلى نحو ثلاثة أمتار أو أكثر من ذلك بقليل — تدل على ذلك أبنية المسارح اليونانية التي لا تزال بقاياها موجودة حتى الآن : وفيها نجد هذا المكان المرتفع موجوداً عند طرف الأوركستره أمام غرفة الممثلين في مواجهة مكان المشاهدين.

على أن هناك نقطة أثارت كثيراً من اختلاف الرأي تتعلق بجانب من هذا الموضوع. هذه النقطة هي أن الاثار المتبقية من مسارح القرن الخامس ق . م لا تكفي لأن نستنتج منها وجود هذا المكان المرتفع ليؤدي عليه الممثلون أدوارهم. وقد أدّى هذا الوضع إلى انقسام الرأي حول وجود أو عدم وجود هذا الجزء من أجزاء المسرح (خشبة المسرح) في المسارح التي بنيت في القرن الخامس ق . م ، وكان الرأي السائد منذ أواسط القرن الماضي حتى السنوات الأخيرة هو أنه لم يوجد في مسارح القرن الخامس ق . م مكان مرتفع يؤدي عليه الممثلون أدوارهم ، وبالتالي فإن الممثلين كانوا يقومون بأدوارهم هذه في مساحة الأوركستره على نفس المستوى مع أفراد الكورس.

ولكن مع ذلك فإن هناك بعض الشواهد والقرائن أو الملابسات التي

تجعلنا لا نستبعد وجود « خشبة مسرح » في مسارح القرن الخامس ق . م رغم أن ما تبقى من الآثار لا يعطينا الدليل العملي الملموس على ذلك . وأول هذه الشواهد والقرائن أو الملابسات هي أن الكتّاب القدماء الذين تكلموا عن المسرح اليوناني وتفاصيل بنائه كلّهم أشاروا إلى وجود « خشبة المسرح » في القرن الخامس ق. م. ومع ذلك فإنّه يجب علينا ، في هذا المجال ، أن ندخل في اعتبارنا أن هؤلاء الكتّاب لم يكونوا معاصرين للقرن الخامس ق . م . (وهو القرن الذي شهد ازدهار الفن المسرحي في بلاد اليونان) وإنما عاشوا وكتبوا كتاباتهم هذه في فترة لاحقة ، وهكذا لم يكتبوا عن شيء شاهدوه بأنفسهم . ومن هنا قد يكونون على حق فيما وصفوه ، ولكن من جهة أخرى قد يكونون متأثرين بما كان سائداً في عصرهم (وقد رأينا أن المسارح اليونانية كان لها « خشبة مسرح » ابتداء من القرن الرابع ق . م) ، أو بروايات غير مؤكدة عما كان سائداً في القرن الخامس ق . م .

ولكن إذا كانت كتابات الكتّاب القدماء لا تعطينا شيئاً مؤكّداً في هذا الصدد ، فإنّ هناك شواهد وقرائن أخرى تجعل وجود خشبة المسرح » في القرن الخامس ق . م . أمراً وارداً . ومن بين هذه الشواهد والقرائن أن عدداً غير قليل من المسرحيات اليونانية التي وصلت إلينا تستلزم وجود « خشبة مسرح » ، وهو أمر نستطيع استنتاجه بسهولة من الحوار والمواقف الموجودة في المسرحيات والتي تشير في كثير من سطورها إلى أن الممثل كان يؤدي دوره في المسرحية في مكان أكثر ارتفاعاً من ساحة الأوركستره حيث كان أفراد الكورس يؤدون رقصاتهم وأناشيدهم[٥] . كذلك فإن وجود خشبة مسرح مرتفعة عن الأوركستره

---

(٥) على سبيل المثال : « اوديبوس الحاكم » للشاعر سوفوكليس ، حين يتجمع شعب طيبة امام قصر اوديبوس يبدو لنا من كلامهم اليه (طالبين عونه وحكمته في ان يضع حدا ←

كان لا يتعارض إطلاقاً مع اتجاه أو مواقف المسرحيات المعروضة ومن ثم فليس هناك ما يضطرّنا إلى أن ننفي إمكانية وجود خشبة مسرح في القرن الخامس ق . م على نسق ما أمكن أن نتحقق من وجوده بعد ذلك في القرنين الرابع والثالث ق . م .

وفي ضوء هذه الاعتبارات، فسأكتفي بأن أقول إن بناء حجرياً مرتفعاً « خشبة مسرح » يؤدي عليه الممثلون أدوارهم قد وجد فعلاً في المسارح اليونانية التي بنيت في القرنين الرابع والثالث ق . م أما في القرن الخامس فلا يوجد دليل ماديّ على ذلك ، ولكن من الجهة الأخرى لا يعني هذا نفي هذا الوجود ، ولنا ان نكون على هذا الرأي أو ذاك ؛ وإن كنت أميل إلى افتراض وجود « خشبة مسرح » على ارتفاع قليل (وليكن متراً) في القرن الخامس ق. م لها عدد من الدرجات تصل بينها وبين ساحة الأوركستره ؛ تماماً كما كانت خشبة المسرح في القرنين الرابع والثالث ق . م تتصل بالأوركستره بعدد من الدرجات .

د ـ مدرجات المشاهدين

أما القسم الأكبر من المسرح فكان يشغله المكان الذي يجلس فيه المشاهدون . وقد كانت البداية الطبيعية لمكان المشاهدين هو منحدر التل



لامهم) انه يقف في مكان مرتفع بحيث يستطيعون جميعا (ممثلين في الكورس) ان يروه ومن ثم يوجهوا حديثهم اليه . والشيء ذاته يبدو واضحا من حديثه اليهم ؛ اذ لا بد أن يكون واقفا في مكان مرتفع حتى يستطيع ان يراهم جميعا حتى يكون لحديثه اليهم الوقع المطلوب ، وهو أمر يؤكده انتقاؤه لشيخ من بينهم ليخصه بالحديث ، اذ أن المكان المرتفع يسهل على اوديبوس رؤية هذا الشيخ بوضوح ومن ثم سرعة انتقائه لتوجيه الحديث اليه .

كذلك يبدو من مسرحية « الضارعات » للشاعر ايسخيلوس ، ان بنات داناؤس (والكورس هنا يمثلهن) حين يستجرن بملك ارجوس ، انما يضرعن الى شخص يقف في مكان أعلى من المكان الذي يجتمعن فيه .

أو مجموعة التلال التي تحيط بساحة الأوركستره . هناك كان يجلس المشاهدون ليشاهدوا عرض المسرحيات في بداية الفترة التي شهدت هذه العروض ، وبالتدريج بدأت الأمور تتطور بعض الشيء فأصبحت هناك مقاعد خشبية جماعية تقام على هذه المنحدرات المحيطة بالأوركستره . وانتهى الأمر في القرن الخامس ببناء مدرجات من الحجر على هيئة المدرجات التي نجدها في الوقت الحالي في الملاعب الرياضية ، وهي مدرجات لا يزال عدد كبير منها باقياً حتى اليوم في آثار المسارح اليونانية القديمة . وهذه المدرجات كانت تحيط بالقسم الأكبر من الساحة الدائرية (الأوركستره) بحيث تقترب إلى حد ما من « خشبة المسرح » ، لا يفصلها عنه إلا مسافتان : واحدة من اليمين وواحدة من اليسار ، هما الفتحتان اللتان يدخل منهما أفراد الكورس إلى ساحة الأوركستره. أمّا عن المدرجات نفسها فكانت ، كما ذكرت ، تمثل الجزء الأكبر من الدائرة وكانت تخترقها من أسفل إلى أعلى عدة ممرات على مسافات متساوية يستخدمها المشاهدون في الوصول إلى أماكنهم أو عند مغادرة المسرح بعد انتهاء عرض المسرحية .

هذا ويجب علينا ألاّ نرتبط بمفهوم الوقت الحاضر في تقديم عدد المشاهدين الذين تتسع لهم هذه المدرجات . ففي الوقت الحاضر هناك مسارح لا تتسع لأكثر من مائة مشاهد أو مائتين ، وربما زاد اتساع المسرح بحيث يستوعب خمسمائة مشاهد أو ألف ، ولكنه لا يزيد كثيراً ، في أغلب المسارح ، عن هذا العدد . أما في المسارح اليونانية فقد كانت مدرجات المشاهدين تتسع لعدة آلاف . ففي أثينه مثلاً يتسع مسرح هيرودوس اتيكوس Herodos Attikos لعشرة آلاف من المشاهدين وفي مسرح ابيداوروس Epidauros (في شبه جزيرة البلوبونيسوس) يتسع المسرح الذي لايزال قائماً هناك لأربعة عشر ألفاً

من المشاهدين ، وقد وصل عدد المشاهدين في بعض الأحيان (عندما عرضت بعض المسرحيات الكلاسيكية عليه في السنوات الأخيرة) إلى عشرين ألفاً . والمسرح اليوناني الذي لا يزال قائماً حتى الآن في إفسوس Ephesos (على الساحـــل الغربي لآسيه الصغرى) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً والمسرح اليوناني الموجود في اسبندوس Aspendos (وكانت مستعمرة يونانية على الساحل الجنوبي لآسيه الصغرى) يتسع لاثنين وثلاثين ألفاً[٦] .

والسبب في ذلك واضح ، وهو أنه بينما نذهب نحن إلى المسرح في الوقت الحاضر للترفيه أو للتثقيف ، فإنّ المباريات المسرحية عنـــد اليونان كانت جزءاً أساسياً من احتفال ديني يشهده كل المواطنين ، وهي مباريات لا تستمر إلا بضعة أيام ولا تعرض فيه كل مسرحية إلا مرة واحدة . وهكذا كان لا بد لمكان المشاهدين أن يتسع لهذه الآلاف التي تشكل في الحقيقة كلّ عدد المواطنين أو ما يقرب من كلّ عدد المواطنين في المدينة الواحدة . وهكذا كان طبيعياً أن يؤخذ هذا العدد في الاعتبار عند بناء المسرح .

وتبقى في نهاية الحديث عن مدرجات المشاهدين نقطة واحدة ، هي كيفية تمكن هذا العدد الكبير من المشاهدين من سماع حوار المسرحية وأناشيدها . ذلك أن المساحة والارتفاع اللذين تشغلهما هذه المدرجات هما بالضرورة كبيران ، هذا بينما لم تكن هناك في العصر القديم أية أدوات لتكبير الصوت . وهنا أود أن أقول أن هذه المدرجات كانت

---

(٦) زار كاتب هذه الدراسة المسارح الموجودة في هذه المدن الاربعة واول شيء استرعى نظره هو ضخامتها واتساعها كما شهد عددا من المسرحيات الكلاسيكية (القديمة) تمثل على مسرح هيرودوس اتيكوس (في اثينة) ومسرح ابيداوروس . وقد وصل جمهور المشاهدين فيها الى الاعداد المذكورة .

تبنى في حضن تل أو مجموعة تلال تقع عادة في وضع يشكل الجزء الأكبر من الدائرة بحيث يصبح تردد الصوت فيه واضحاً إلى حد كبير . والذي يذهب إلى أيّ من المسارح التي ذكرتها من لحظات يستطيع أن يشاهد بنفسه تجربة مذهلة تثبت ذلك : فالمشاهد يستطيع أن يجلس في أعلى مدرج في المسرح ومع ذلك يمكنه ان يستمع بوضوح إلى صوت ورقة يمزقها شخص يقف في ساحة الأوركسترة ، كما يستطيع من مكانه هذا أن يميز بوضوح بين صوت قطعتين مختلفتين من العملة (في الحجم أو نوع المعدن) يسقطهما شخص على أرض الأوركسترة[7] .

٣ ـ المقوّمات البشرية للمسرح اليوناني

بعد الحديث عن المقوّمات المادية للمسرح ، والتي رأينا أنها تتكوّن من الأوركسترة وغرفة الممثلين « خشبة المسرح » ومدرجات المشاهدين ، أنتقل الآن إلى الحديث عن نوع آخر من المقوّمات ـ وهذه هي المقوّمات البشرية التي تتكون من الكورس أو الجوقة ، والممثلين والمشاهدين .

ا ـ الكورس أو الجوقة

ابتدأ الكورس في المسرحية اليونانية كأهم مقوّم بشري لها . وكان هذا أمراً طبيعياً ، فالفن المسرحي ، كما رأينا في مناسبة سابقة ، ابتدأ بهذه المجموعة من الراقصين والمنشدين ، تروي قصص الآلهة والأبطال والأساطير في أعياد الإله ديونيسوس . وكان هدفه ، حين ظهر ، مجرد تجسيد لهذه القصص والأساطير التي يؤديها أفراد الكورس . بعبارة أخرى لم يكن هدف الفن المسرحي في البداية هو التمثيل في حدّ ذاته . وإنما كان التمثيل عاملاً مساعداً هدفه إضفاء جوّ من الواقعية والتشويق

(٧) مشاهدة شخصية في مسرحي ابيداوروس وافسوس .

على الأناشيد التي يلقيها الكورس . وهكذا كان من الطبيعي . في ضوء هذا الاعتبار . أن يظل الكورس محتفظاً بالمكان الأول في المسرحية . ولكن بالتدريج بدأ الأمر يتطور ويأخذ شكلاً جديداً . فبدأ دور الكورس يقل تدريجياً ، بينما أخذ دور الممثل تزداد قيمته تدرجياً . وقد ابتدأ هذا التطور منذ أوائل القرن الخامس . حتى إذا وصل إلى نهايته في القرن الثالث تقريباً كان دور الكورس قد اختفى نهائياً أو أصبح مجرّد شكل أو لازمة مسرحية لا موضوع لها في البناء الدرامي للمسرحية اطلاقاً .

ونحن نستطيع أن نتتبع هذا التطور الذي انحدر فيه دور الكورس في اتجاهين أو خطين رئيسيين . فمن الناحية الكمية نجد أن الجزء المخصص للكورس من المسرحية بدأ يضمحل تدريجياً . ونحن نستطيع أن نحس ذلك ابتداء من أواسط عهد الشاعر ايسخيلوس. ففي مسرحية «الضارعات»، وهي أقدم المسرحيات التي خلفها لنا هذا الشاعر . نجد أن دور الكورس يشغل ثلاثة أخماس سطور المسرحية أو أكثر من ذلك بقليل ، أما في المسرحيات الأخرى التي جاءت بعدها من الناحية الزمنية (باستثناء مسرحية بروميثيوس في الأغلال) فإن دور الكورس لا يتعدّى في المتوسط نصف المسرحية . وتقلّ السطور المخصصة للكورس عن ذلك في مسرحيات سوفوكليس فنجدها تصل إلى ربع سطور المسرحية في مسرحيتي « إياس أو أجاكس » و « أنتيجوني » بينما تصل إلى السبع في مسرحيتي « الكترا و « فيليوكتيتيس » . فإذا وصلنا إلى مسرحيات يوريبيديس وجدنا دور الكورس يتدرج من ربع المسرحية كما في مسرحيتي « عابدات باخوس » و « الكستيس » حتى تصل إلى التسع فحسب في مسرحية « أوريستيس » .

فإذا تركنا الناحية الكمية جانباً وانتقلنا إلى الناحية النوعية نجد كذلك اضمحلالاً في الدور الذي كان يقوم به الكورس من حيث اتصال هذا

الدور بعقدة أو حبكة أو موضوع المسرحية . ففي المسرحيات التراجيدية الأولى . مثل مسرحية « الضارعات » التي كتبها إيسخيلوس . نجسد المسرحية كلها تدور حول مصير هؤلاء الفتيات اللاجئات يمثلهن الكورس . أما الممثلون والحوادث التي تتعلق بهم فيأتون في مرتبة قليلة الأهمية إلى حد بعيد . والشيء ذاته نجده في مسرحية « الصافحات » للشاعر ذاته ، حيث تدور المسرحية كلها تقريباً حول موقف آلهات العقاب أو القصاص اللاتي يمثلن الكورس واللاتي يردن الانتقام من أوريستيس لأنه قتل أمه كليتمنسترا .

ولكن حتى في أعمال إيسخيلوس نفسه فإن المسرحيات الأخرى نجد فيها أن دور الكورس لم يعد مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بالمسرحية — وهو أمر نحسه كذلك في المسرحيات التي كتبها الشاعران سوفوكليس ويوريبيديس (وهما يأتيان بعد إيسخيلوس من حيث الترتيب الزمني) . وإنما يتحول الكورس الآن في الواقع إلى مجموعة « تشهد » أحداث المسرحية في شيء من الاهتمام والتجاوب تعبر عنه بإلقاء مجموعة من الأناشيد وأداء عدد من الرقصات المناسبة . بحيث يتراجع دور الكورس من عنصر أساسي في حبكة المسرحية إلى عامل مساعد في إبراز المغزى الأخلاقي أو الاجتماعي لأحداث المسرحية واتجاهاتها .

ثم نجد تطوراً جديداً في نفس الاتجاه في المسرحيات المتأخرة للشاعر يوريبيديس . إذ هنا نجد أن دور الكورس يفقد حتى عنصر الاهتمام بأحداث المسرحية والتعليق عليها ، ليتحول إلى مجرد مجموعة تنشد أناشيد تتناول فيها بعض الأساطير التي لا علاقة لها بموضوع المسرحية أو أحداثها إلا من بعيد . كذلك نجد أن الوضع القديم الذي كان فيه الممثلون والكورس يتبادلان الحوار والحديث قد قل إلى حد كبير وأصبح الحوار أساساً بين الممثلين وبعضهم بينما لم يعد الكورس طرفاً إلا في مناسبات

قليلة أو حتى نادرة . وإلى جانب ذلك ، وفي نفس الاتجاه ، نجد أن قدراً كبيرا من الأداء الغنائي ينتقل من الكورس (الذي يؤدي دوره في ساحة الأوركستره) إلى الممثلين (الذين يؤدون دورهم فوق « خشبة » المسرح) .وهكذا تقلص عدد الأغاني الثنائية المتبادلة بين الكورس والممثل أو الممثلين وقلّ عدد سطورها ، بينما حلت محلها الثنائيات الغنائية بين الممثلين وبعضهم .

وهكذا استمرّ وضع الكورس في الاضمحلال من حيث أهميته ، حتى إذا جاء عهد الشاعر أجاثون Agathon وجدناه يطرح جانباً اي ادعاء أو تظاهر بالربط بين الكورس والمسرحية ، وينحدر بدور الكورس إلى مجرد مجموعة تقدم أناشيد لا علاقة لها بالمسرحية في الفترات التي تقع بين أشواط المسرحية أو ما نسميه في الوقت الحاضر فصول المسرحية[8] . فإذا كان عهد أرسطو (الثلث الأخير من القرن الرابع ق.م) كان هذا الوضع قد أصبح هو الوضع السائد المتعارف عليه فيما يخص دور الكورس في المسرحيات .

هذا . وما ينطبق على المسرحيات التراجيدية (أو مسرحيات المأساة) ينطبق كذلك على المسرحيات الكوميدية (مسرحيات الملهاة) . وهكذا نجد المسرحيات التسعة الأولى لأرستوفانيس (من بين المسرحيات الإحدى

(٨) اجاثون شاعر مسرحي أثيني حصل على جائزته الأولى في المباراة المسرحية في ٤١٦ ق.م. كما يشير الى ذلك افلاطون في محاورته « المادبة » (Symposeon, 198 a) وقد كان اجاثون اول شاعر مسرحي تراجيدي يخترع بشخصياته في احدى مسرحياته ولا يأخذها من الأساطير اليونانية كما كانت العادة عند شعراء التراجيدية كما يشير الى ذلك ارسطو في كتاب عن « الشعر » (Poetika, 9) . عن وضعه للكورس في هذا الوضع الثانوي راجع ارسطو ، نفس الكتاب (فقرة ١٢) . هذا ولم يتبق لنا من أعمال هذا الشاعر الا أربعون سطرا .

عشرة التي وصلت إلينا من مسرحياته الأربعين) وهي المسرحيات التي كتبها في أواخر القرن الخامس ق . م ، يظهر فيها دور الكورس بوضوح سواء من حيث القسم المخصص له في المسرحية (أعني عدد السطور) أو من حيث الارتباط العضوي بينه وبين حبكة المسرحية . أما في المسرحية العاشرة وهي مسرحية « النساء في المجلس الشعبي » Ekklesiazusae التي كتبها في أوائل القرن الرابع ق . م (٣٩٢ ق . م) فنلحظ تغيراً كبيراً . إذ نجد أن دور الكورس قد تقلص ليقتصر على إنشاد ثلاثة أو أربعة أناشيد قصيرة ليس لها أكثر من علاقة جانبية بالمسرحية (هي في الحقيقة مجرد تعليق على الأحداث يمكن الاستغناء عنه دون أن يؤثر ذلك في المسرحية على الاطلاق) . أما في المسرحية التالية وهي « بلوتوس » Plutos (أو إله الثروة) التي كتبها في ٣٨٨ ق . م أي بعد « النساء في المجلس الشعبي » بأربع سنوات فنحن نجد عدد السطور المخصصة للكورس لا يزيد عن أربعين سطراً ينشدها بين أشواط الحوار ، وهي لا علاقة لها بموضوع المسرحية إطلاقاً . وإذا كان الكورس قد ظل موجوداً في عصر أرسطو الذي خصص القسم الأساسي من كتابه (الشعر) عن الشعر المسرحي ، وفي عصر الشاعر الكوميدي ميناندروس Menandros بعد ذلك ، فإن هذا الدور لم يكن له هدف أكثر من إنشاد بعض الأناشيد بين فصول المسرحيات .

ب ـ الممثلون

عرفنا في مناسبة سابقة أن أناشيد الكورس كانت هي الأساس في الاحتفالات بأعياد «الديونيسيه » Dionysia وهي أعياد الإله ديونيسوس ، ثم تطوّر الأمر في أواسط القرن السادس ق . م حين أدخل ثسبيس فكرة الممثل الذي يتقمص دور الشخصيات التي يرد ذكرها في أثناء الإنشاد . كما عرفنا أنّ الشاعر المسرحي ايسخيلوس قد زاد هذا العدد إلى اثنين

بينما وصل عدد إلى ثلاثة ممثلين في مسرحيات سوفوكليس ، وهي زيادة قفزت بالمسرحية اليونانية إلى نضجها من حيث الحبكة الدرامية الحقيقية ، إذ أصبح في إمكان الشاعر المسرحي أن يقدم مسرحية ناضجة يستطيع أن يتحرك فيها بقدر كبير من الليونة والسهولة ، فقد أصبح بالامكان أن يشترك هؤلاء الممثلين الثلاث في حوار في مشهد واحد ، إلى جانب الكورس الذي كان يشكل ، بطريقة أو بأخرى ، طرفاً رابعاً . وقد ظلّ هذا العدد ، على الأرجح ، كما هو لم يزد إطلاقاً في خلال المراحل التي مرّ بهـا المسرح اليوناني بعد ذلك . وإذا كانت بعض المسرحيات توحي بغير ذلك ، مثل مسرحية « أوديب في كولونوس » لسوفوكليس التي توحي بأن أربعة ممثلين قد اشتركوا فيها ، أو مسرحية برلمان النساء لأرستوفانيس التي توحي بأن عدداً كبيراً من الممثلين قد اشترك فيها . فإن التدقيق العلمي في هذه المسرحيات لا يلبث أن يوضح لنا أنها كانت لا تحتاج في الحقيقة لأكثر من ثلاثة ممثلين .

وهنا . نرى من الخير أن نقف وقفة بسيطة ، عند هذا العدد من الممثلين الذي التزم به المسرح اليوناني . فمن جهة لم يكن معنى هذا وجود ثلاثة أدوار (أدوار لثلاثة شخصيات) فحسب في كل مسرحية ، إذ لم يكن هناك أي تحديد لعدد الأدوار أو الشخصيات التي يقوم بها هؤلاء الممثلون الثلاث . وكان الأمر بسيطاً كل البساطة ، فالممثلون اليونان كانوا يستخدمون الأقنعة التي يضعونها على وجوههم ، ومن ثم فإن الممثل الواحد كان يستطيع أن يقوم بعدة أدوار (بأدوار عدة شخصيات) في المسرحية الواحدة .

كذلك فإن هؤلاء الممثلين الثلاث كانوا هم الذين يقومون بالأدوار الرئيسية والتي تقوم بالحوار الأساسي في المسرحية وكانوا هم وحدهم الذين يوصفون بأنهم « ممثلون » . ولكن هذا لم يمنع من وجود أشخاص

آخرين لا يحملون هذه التسمية.. ويقومون بدور الشخصيات الثانوية التي تلقى سطراً أو سطرين من حين آخر في المسرحية. كما لم يمنع من وجود عدد من الشخصيات الصامتة التي يكون ظهورها على المسرح لازماً في سياق أحداث أو مواقف المسرحية. ولكن دون أن يشتركوا في الحوار. ومثل هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يؤدون أدواراً ثانوية أو صامتة لم يكن هناك أي تحديد لعددهم.

وقد نتج تحديد عدد الممثلين عن نفس الفكرة التي سبق أن أشرت اليها، وهي أن المسرح عند اليونان لم يكن سوى تجسيد لأناشيد يقوم بها الكورس في البداية، بل لقد كانت القصص أو الأساطير التي تدور حولها المسرحيات في العصر الذهبي للتراجيدية، معروفة للمشاهدين قبل أن يدخلوا المسرح لمشاهدتها كمسرحية، وبالتالي فإن دور الممثل ظل في ذهن المشاهد اليوناني مجرد مجسد للاحداث والمواقف التي يعرفها المواطن اليوناني مسبقا ويذهب لمشاهدتها كجزء من الاحتفالات الدينية السنوية ومن ثم لم يكن المشاهد اليوناني بحاجة إلى عدد كبير من الممثلين لـكي يلقوا الضوء على جوانب المسرحية وتفصيلاتها. (٩)

وقد كانت هناك بالضرورة نتائج سلبية لتحديد عدد الممثلين، أهمها

---

(٩) هذا الحكم لا ينطبق، بطبيعة الحال، على المسرحيات الكوميدية التي كانت موضوعاتها تؤخذ من تناقضات المجتمع الذي يعيش فيه الشاعر فعلاً. ولكن مع ذلك فقد التزمت العروض المسرحية الكوميدية بنفس عدد الممثلين الثلاث. وهناك عدة أسباب يمكن أن تقدم في هذا الصدد: أولها أن الشاعر المسرحي الكوميدي كان يأخذ محور المسرحية من المشاكل التي يعيشها مجتمعه فعلا. ومن ثم فهي من هذه الزاوية معروفة سلفا للمشاهدين (كما هو في حالة الأساطير في المسرحية التراجيدية). كذلك فان اليونان كانوا، كما سنرى، قد اتقنوا التعبير المسرحي من خلال ثلاثة ممثلين فحسب فلم يشعروا بحاجة الى زيادة عددهم. وأخيرا، وليس آخرا، فان الفكرة الأساسية التي ابتدأت بالممثل كمجرد مجسد لشيء أساسي وهو أناشيد الكورس، يبدو أنها ظلت مسيطرة على الأذهان اليونانيين، كتقليد، حتى بعد أن تراجع دور الكورس الى المرتبة الثانوية بعد الممثل.

أن التأثير أو الانطباع الواقعي الذي نستطيع أن نحصل عليه الآن من المسرحيات التي يدور فيها الحوار بين عدد كبير من الممثلين لم يكن موجودا في المسرحية اليونانية . كذلك فإن عدداً من المواقف الضعيفة كان لا بد أن يوجد نتيجة لهذا التجديد. فمن الطبيعي أن بعض المواقف كانت تستلزم وجود ممثل رابع يمثل شخصية رئيسية كان لا بد ان تشترك في الحوار في نفس المشهد ، ولكن التزام المسرح اليوناني بثلاثة ممثلين فحسب كان يقف عقبة في سبيل ذلك .

ولكن مع هذا فان قلة عدد الممثلين كانت له مزايا كثيرة.ففي المقام الأول نجد أنه ، إذا كانت زيادة عدد الممثلين إلى ثلاثة قد أتاحت الفرصة لسهولة الحركة المسرحية وسرعتها ، فإن عدم زيادة المشتركين في الحوار في المشهد الواحد عن هذا العدد قد جعل هذا الحوار يمتاز بالتركيز ، ومن ثم بالوضوح والبساطة — وهو أمر يصبح مناسبا إلى حد كبير في المسرحيات التراجيدية بوجه خاص وهي مسرحيات لا يمكن أن تحتفظ بجديتها أو بإيقاعها المأساوي إذا ضاع التأثير المطلوب نتيجة لتداخل مكثف في الحوار أو لسرعة لاهثة في حركته . ومثل هذا الأمر لا بد أن ينتج عن اشتراك عدد كبير من الممثلين في الحوار في المشهد الواحد.

كذلك فان تحديد عدد الممثلين الرئيسيين بهذا العدد القليل الذي لا يتجاوز ثلاثة كان معناه في الحقيقة أن المجتمع اليوناني كان بامكانه أن يختار من كانت له قدرات تمثيلية عظيمة فعلا ، دون أن يضطر إلى قبول قدرات متوسطة أو ضعيفة ، كما يحدث حين يكون عدد الممثلين المطلوبين كبيرا .وقد كانت مثل هذه القدرات التمثيلية العظيمة لازمة فعلا في المسرح اليوناني . ذلك أن المساحة الواسعة للمسرح التي كانت تتسع لعشرين أو ثلاثين ألفاً (أو أكثر أحياناً) من المشاهدين ، كانت تتطلب

مثل هذه القدرات الفذة من الممثلين الذين كانوا لا بدّ أن يتمتعوا بموهبة كبيرة في إبراز مدلول حركاتهم في هذه المساحة الواسعة وأمام هذا العدد الهائل (الذي يصبح معه حجم الممثل بالنسبة للمشاهدين الجالسين في الصفوف العليا من المدرجات لا يزيد عن حجم الإصبع) وفي إعطاء أصواتهم النبرة القوية الواضحة المعبّرة عن الانفعال بالحدث أو الموقف.

وقد كان الممثلون فعلاً يمرون بفترة تدريب جادة ومكثفة إلى حد كبير، وبخاصة في تدريب أصواتهم على الطبقات والتأثيرات المتعددة والمختلفة. فالممثل الواحد كان عليه، كما عرفنا، أن يقوم في المسرحية الواحدة بعدة أدوار لشخصيات مختلفة، بعضها لأشخاص من الشباب. وبعضها لأشخاص من المسنّين، وبعضها من الرجال، وبعضها من النساء، وبعضها من طبقات ارستقراطية أو نبيلة والأخرى تمثل الطبقات الشعبية وهكذا. كذلك فإن المساحة الواسعة للمسرح، إلى جانب وجود الأقنعة على وجوه الممثلين[10]، لا تجعل في إمكان الممثل أن يعبر بحركات وجهه عن انفعالاته. ومن ثم فإن الصوت (إلى جانب حركة الجسم إلى حد ما) كان هو الوسيلة الرئيسية لإبراز الانفعال الذي يريد الممثل أن يوصله إلى جمهور المشاهدين.

[10] رأينا في مناسبة سابقة (انظر اعلاه في هذا الباب) أن أحد فوائد (او في الواقع ضرورات) استخدام القناع هي أن الممثل الواحد كان يقوم بعدد من الادوار. ولكن القناع كان له استخدام اساسي آخر. فالأبعاد الضخمة للمسرح لم تكن تسمح للقسم الأكبر من المشاهدين برؤية التعابير على وجه الممثل (أو حتى رؤية الوجه نفسه بوضوح)، ومن ثم فقد كان القناع بحجمه الذي يزيد من حجم الممثل، وبألوانه الواضحة (والصارخة أحيانا) وبالتعبير المرسوم عليه، يبين طبيعة الممثل (نبيل، ذكي، شرير، ساذج ... الخ).

ج — المشاهدون

وأنهي هذا الحديث بكلمة سريعة عن جمهور المشاهدين في المسرح اليوناني . وفي هذا الصدد فإن المشاهدين للمسرحيات اليونانية كانوا يختلفون عن المشاهدين للمسرحيات في العصر الحديث في أمر أساسي . ففي العصر الحديث يذهب المشاهد ليشاهد المسرحية التي تروقه في أيّ وقت من أوقات السنة بهدف الترفيه أو المتعة الذهنية أو التثقيف في بعض الأحيان ، وينتهي الأمر عند هذا . أما عند اليونان فقد كان الأمر مختلفاً إلى حد بعيد . فقد كانت العروض المسرحية اليونانية في حقيقتها مباريات مسرحية بين الشعراء المسرحيين وبعضهم ، وكذلك بين الممثلين وبعضهم ، وهذه كانت تشكل جزءاً من احتفالات دينية ، هي الاحتفالات بأعياد الإله ديونيسوس ، التي تستغرق موسماً لا يزيد عن عدة أيام في السنة كلها . وكان من حق كل المواطنين (ومن واجبهم) أن يحضروا هذه المباريات المسرحية ، وكانوا بالفعل حريصين على هذا الحضور .

وقد كان معنى هذا أن جمهور المواطنين بالكامل تقريباً كانوا يحضرون هذه المسرحيات . وكانت الدولة تضع هذا في اعتبارها بشكل واضح . فكانت تغلق المصالح والمحاكم حتى يتمكن المواطنون من الحضور ، كما كانت تفرج عن المسجونين في أيام الاحتفالات حتى يستطيعوا هم الآخرون أن يشاهدوا هذه الاحتفالات بما فيها من المسرحيات . كذلك كانت الدولة تتكفل بشكل مباشر بدفع تكاليف الممثلين وبدفع جوائز الفائزين من المتبارين سواء من الشعراء المسرحيين أو من الممثلين ، بينما سنت الدولة القوانين التي كان الأغنياء بمقتضاها يتكفلون بدفع التكاليف اللازمة لتدريب أعضاء الجوقات (الجوقة هي الكورس) . وفوق ذلك فقد كانت الدولة تصرف للفقراء من المواطنين

مبلغاً صغيراً يمكنهم من حضور هذه المسرحيات ، حتى لا يكون فقرهم سبباً في حرمانهم من هذه المناسبة الدينية المقدسة :

وقد كان التصرف فعلاً يسير على هذا الخط ، وهو اعتبار هذه المسرحيات جزءاً من مناسبة دينية مقدسة لا يكفي أن تخضع للقوانين العادية التي تحكم التصرف بين المواطنين في الأوقات أو المناسبات العادية . فالمسرح في أيام عرض المسرحيات كان يعتبر مكاناً مقدساً تحكمه قوانين خاصة وصارمة . وفي هذا الصدد فإن لدينا ، على سبيل المثال ، حالة حكم فيها بالإعدام على شخص اسمه كتسكليس Ktesikles لمجرّد أنّه اعتدى في أثناء عرض المسرحيات بالضرب على خصم شخصي له . كذلك كان حكم الإعدام ينفذ على من يطرد شخصاً من المشاهدين من مكان يجلس فيه حتّى ولو كان يجلس خطأً في غير مكانه .

على أن هذا الجو المقدس الذي كان يحيط بالعروض المسرحية لم يكن معناه أن المشاهدين كانوا يجلسون في خشوع وكأن على رؤوسهم الطير ، إذا جاز لي أن استخدم هذا التعبير . وإنما كان هؤلاء يبدون استحسانهم أو استهجانهم للمسرحيات والمشاهد التي يشاهدونها . وقد كانوا يبدون ذلك في كثير من الصراحة والحيوية. ففي حالة المشاهد التي تعجبهم من المسرحيات كثيراً كانوا يعبّرون عن إعجابهم بالتصفيق أو بالأصوات أو بطلبات الاستعادة . وفي حالة استهجانهم لمسرحية أو مشهد أو نشيد في مسرحية كانوا يعبرون عن ذلك بدق كعوبهم على جوانب المدرجات التي يجلسون عليها أو بالتصفير وفي بعض الأحيان بقذف الشاعر أو الممثلين بوابل من الحجارة ، وكثيراً ما كانوا يصرّون حين لا تعجبهم المسرحية اطلاقاً بأن يوقف عرضها قبل ان تنتهي مشاهدها حتّى ولو كانت في أول أو ثاني مشهد من هذه المشاهد .

وقد كان هذا الاستهجان يتمّ لأكثر من سبب . ومن بين الأسباب

الرئيسية سببان : الأول سبب فني صرف يتصل بمدى الإبداع الفني للشاعر أو مدى نجاح الممثل في أداء دوره حركة أو إلقاء — فإذا قلّ نصيب الشاعر أو الممثل من هذا الإبداع ، كان ذلك سبباً مباشراً في إظهار جمهور المشاهدين لاستهجانهم بالطرق المختلفة التي تتدرج من الفتور في استقبال المشهد ، إلى ضحكات السخرية ، حتى تصل في النهاية إلى قذف الممثلين والشاعر بالحجارة وطلب سحب العرض المسرحي كما أسلفت . أما السبب الآخر فهو أن يكون في المشهد تعريض حاد بالعقائد . وحقيقة إن اليونانيين كانوا غير متزمتين فيما يخص المساس الطفيف بالعقائد أو التصرفات الدينية إذا كان هذا يخدم فكرة أو فكاهة تأتي عرضاً في المسرحية . ولكن المشاهدين كانوا يثورون فعلاً إذا اعتقدوا أن هناك مساساً حاداً بعقائدهم الدينية أو بالأخلاقيات التي يعتنقونها . ولدينا مثالين عن حالتين في هذا المجال : إحداهما حدثت مع الشاعر التراجيدي ايسخيلوس ، حيث اعتقد المشاهدون أنه يمس العقيدة الدينية بشكل حقيقي . فاحتج المشاهدون بشكل يبدو أنه كان على قدر كبير من الخشونة مما اضطرّ الشاعر أن يجري ويحتمي بمذبح الإله ديونيسوس (المذبح كان ارتفاعاً صغيراً يقوم في وسط ساحة الأوركسترا) ثم يوضح للمشاهدين أنه لم يكن يعني شيئاً مما اعتقدوا أنه يعنيه . والشيء ذاته حدث مع الشاعر التراجيدي يوريبيديس في مسألة مشابهة ولكنها تمس ، أو اعتقد المشاهدون أنها تمس ، الجانب الأخلاقي ، واضطر الشاعر أن يشرح للمشاهدين أنه لم يقصد شيئاً من ذلك قبل أن يسمحوا للعرض بأن يستمرّ .

هذا . ولم يكن الاستحسان أو الاستهجان هو كل ما كان يصدر عن المشاهدين ، فقد كانوا إلى جانب ذلك على قدر كبير من الوعي . لقد كانوا يحفظون عن ظهر قلب مقاطع طويلة وكثيرة من المسرحيات

التي كانت تعرض ، وكانوا يقبلون على قراءتها بصفة مستمرة بعد أن يتم عرضها . ونحن نستنتج ذلك من أن عدداً من المسرحيات التي كتبت في وقت متأخر كانت تشير إلى مقاطع من مسرحيات سابقة يعرضها الشاعر في وضع له مغزى في مشهد أو أكثر من مشاهد مسرحيته . ومثل هذه المقاطع كان لا يمكن أن يكون لها أيّ وقع لدى المشاهدين إذا لم يكونوا على علم سابق بها ، وبخاصة إذا كانت سطوراً أو مقطوعات جادة تستخدم ، على سبيل السخرية ، في موضع خفيف في مسرحية كوميدية .

وقد كان هذا الوعي من ناحية ، وارتباطه بالمناسبة الدينية التي كان اليونانيون ينفعلون بها فعلاً من ناحية أخرى ، هو الذي يجعل المشاهدين يحتملون الجلوس على المدرجات الحجرية ليشاهدوا مسرحية بعد أخرى طوال اليوم من شروق الشمس حتى غروبها ، يوماً بعد يوم ، حتى تنتهي الأيام المخصصة للمباريات المسرحية — وهي التي كانت تجعلهم كذلك يحتملون العدد الهائل من المسرحيات التي كانت تعرض عليهم في هذه المباريات دون ملل ، بل والمشاركة فيها بشكل حيوي استحساناً أو استهجاناً على نحو ما مرّ بنا منذ قليل .

الباب التاسع

الفكر السياسي اليوناني

تمهيد

قبل أن أتحدث عمّا أنجزه اليونان في مجال الفكر السياسي أودّ أن أشير إلى نقطة أو نقطتين . وفي هذا الصدد ربما كان من الخير أن أبدأ بالتمييز بين الفكر السياسي والنظام السياسي منعاً للالتباس . فالنظام السياسي هو النظام القائم في المجتمع فعلاً بكلّ مؤسساته التي تسير أمور المجتمع بموجبها سواء أكانت هذه هيئات تنفيذية أو مجالس تشريعية أو بيتاً ملكياً حاكماً أو وضعاً رئاسياً أو غير ذلك ، بكل ما يستتبعه هذا من قوانين مكتوبة أو متعارف عليها تحدّد الحقوق والواجبات وطرق التصرّف حتى يسير جهاز الحكم في طريقه المرسوم له . أما الفكر السياسي فهو الفكر الذي يتعرض للنظام السياسي القائم ، اتفاقاً أو اختلافاً معه ، أو يتحدث عن النظام السياسي الذي ينبغي أن يكون ، وهنا يكون الحديث عادة عن الأسس النظرية أو المبادئ أو الأركان التي يقوم عليها أو ينبغي أن يقوم عليها هذا النظام أو ذاك . كذلك ليس من اللازم أو من الوارد في كلّ الأحوال أن يتخذ الفكر السياسي شكل النظريات المتبلورة الكاملة التي تعرض كلّ شيء وتحلّل كلّ شيء . وإنما قد يكون هذا الفكر

اتجاهاً أو موقفاً نستنتجه بشكل مباشر أو غير مباشر من مقال أو نقش أو قصيدة أو مسرحية أو أسطورة أو أغنية أو أية صورة أخرى من صور التعبير طالما كان هذا الاتجاه أو الموقف يتصل بنظام أو تكوين سياسي موجود فعلاً أو احتمالاً أو تمنياً ، وبغض النظر عن الطريقة التي تظهر بها صورة التعبير عن هذا الفكر .

وفي مجال الفكر السياسي تميّز اليونان عن غيرهم من الشعوب القديمة سواء من حيث القدر أو الكمية التي خلفها لنا المجتمع اليوناني من هذا الفكر ، أو من حيث كسر النطاق الديني الذي أحاط بهذا الفكر في المجتمعات القديمة الأخرى وما يتصل بذلك من مثاليات ثابتة ، إلى معالجة المقومات الفعلية أو الواقعية المتطورة التي يقوم عليها أو ينبغي أن يقوم عليها بناء المجتمع أو الدولة . وقد أدّى إلى هذه النتيجة عدد من الظروف بعضها يتصل بالمجتمع اليوناني وبعضها يتصل بالمجتمعات الأخرى التي سبقته أو عاصرته على مسرح التاريخ .

ففي حال هذه المجتمعات الأخرى ، نجد أن الاستقرار الاقتصادى وتركّز مورد الإنتاج الرئيسي في يد طبقة واحدة (هي الطبقة الحاكمة) أدى إلى تضخم سلطة الدولة على حساب حرية الفرد . كذلك في المجتمعات البدوية التي دفعتها ظروفها المعيشية العسيرة إلى التنقل المستمر في أغلب الأحوال سعيا وراء الرزق ، تضخمت حرية الفرد على حساب مفهوم الدولة ، وهكذا لم يكن هناك ، في كلتا الحالين ، مجال لما يمكن أن نسميه « الحوار » بين الدولة ممثلة في الطبقة الحاكمة ، والفرد ممثلاً في الطبقة المحكومة — وهو مجال الفكر السياسي . أما المجتمع اليوناني ، فإنّ الظروف التي مرّ بها في تطوّره فتحت الباب على مصراعيه أمام هذا «الحوار» ، الأمر الذي أدى إلى ظهور الفكر السياسي وتطوّره بشكل مطّرد. فالمجتمع اليوناني ، دون أن يصل إلى حدّ الإعسار الذي عرفته المجتمعات البدوية ، لم يعرف في عمومه الاستقرار الاقتصادى الكامل الذي تسيطر فيه طبقة واحدة على

مورد الإنتاج الرئيسي بصفة مستمرة أو على الأقل لفترات طويلة، وإنما توزّعت فيه موارد الإنتاج بين أكثر من طبقة وبشكل متتابع . ومن ثم لم يكن هناك الفرصة الكاملة لتضخم سلطة الدولة ممثلة في طبقة واحدة على حساب الطبقات الأخرى ، وإنما كان المجال مفتوحا للمساومة الاجتماعية بين الطبقات الحاكمة والمحكومة ولإعادة التوازن بينها كلما عنّت متغيرات جديدة ، ومن ثم للأفكار التي تحدد العلاقة بين الفرد والدولة .

كذلك أدّت ظروف المدن اليونانية إلى تعاقب نظم الحكم فيها في كثير من السرعة وكثير من التلاحق كما رأينا في حديث سابق ، فقد تعاقبت على أغلب هذه المدن خمس نظم في ثلاثة قرون (الثاني إلى الخامس) . وكانت سرعة التغير في بعض الأحيان بالدرجة التي يعاصر فيها المواطن أكثر من نظام بينما يسمع من شاهد عيان من الجيل السابق له عن نظام آخر على الأقلّ ، كما أدّى الاتصال التجاريّ النشط عن طريق التوسع والتجارة إلى أن يحتك اليوناني بأكثر من جهة وأن يرى ، نتيجة لذلك،أكثر من نظام لنظم الحكم التي عرفها أو سمع عنها .

وقد كان لذلك كلّه أثره في تفكير اليونان ، إذ كان من الطبيعي تحت هذه الظروف أن يقارن الأثيني بين هذه النظم وأن يناقشها مع غيره وبخاصّة أن وضع هذه المدن الصغيرة كان يسمح بسهولة الاحتكاك المباشر المستمر بين المواطنين . وهكذا تهيأت الظروف التي أباحت للوعي اليوناني الجماعي أن ينمو وأن ينضج ، ومن ثم للفكر السياسي أن ينمو وأن ينضج ، وهو الذي يدور أساسا حول التوازن بين الفرد والدولة .

١ ــ مرحلة التكوين

المرحلة الأولى من مراحل الفكر السياسي عند اليونان ، نستطيع أن

نطلق عليها اسم مرحلة التكوين ، على أساس أن الأفكار التي شهدتها هذه المرحلة تتصل بالمقومات أو الأركان الأساسية للنظام الذي ينبغي أن يسود المجتمع اليوناني، وهو ما يمكن أن نسميه بالتكوين الهيكلي للدولة. وقد كان الفكر السياسي اليوناني في هذه المرحلة يدور داخل هذا التكوين العام دون أن يتجاوزه إلى تحديد الوسائل التي يمكن أن يطبّق من خلالها، أو إلى أية تفصيلات تناقش الايجابيات والسلبيات المتصلة بهذه الوسائل.

١ ـ هوميروس والمجتمع المنظم

وأول أفكار تتعلق بهذا التكوين الهيكلي أو هذه المقومات الأساسية للدولة نجدها بين سطور ملحمتي الإلياذة والأدوديسية المنسوبتين إلى هوميروس ، أول شعراء الملاحم عند اليونان . ولكي ندرك أبعاد هذه الأفكار أستعيد بشكل سريع الأحوال السائدة في المجتمع اليوناني في الفترة التي شهدت نظم هاتين الملحمتين . وهي أواسط القرن التاسع ق . م .في تلك المرحلة كان المجتمع اليوناني يمر بمرحلة انتقال أساسية في تكوينه . فقوة النظام الملكي كانت تتراجع بعض الشيء وقوة الطبقة الأرستقراطية من أصحاب الأراضي الزراعية والرعوية كانت تتزايد بعض الشيء بحيث نستطيع أن نقول إنّ الطرفين كانا في طريقهما إلى نوع من التعادل في اقتسام السيطرة على مقدرات الأمور في المجتمع . ولكن مع ذلك فإنّ هذا التعادل لم يكن قد تمّ واتفق عليه ، وإنما كان لا يزال مثار شدّ وجذب قد يصل أحيانا إلى الصراع السافر بين هذين الطرفين: هذا بينما كانت طبقة العامة لاتزال بعيدة عن الاشتراك في تصريف الأمور. كذلك فإن المجتمع اليوناني آنذاك كان مجموعة من التجمعات القبلية أو السكانية في طريقها نحو التكتلّ الذي اتخذ في النهاية شكل المدن اليونانية التي أصبحت لكلّ منها صفة الدول شكلا ومضمونا ، ولكنه لم يكن قد وصل بعد إلى نهاية هذا الشوط . وفي ضوء هذا الوضع نكون في

الحقيقة بصدد مجتمع يبحث عن كيان مستقر واضح المعالم ، ومن ثم تصبح تطلعات هذا المجتمع تطلعات تدور حول تحقيق المقومات الهيكلية أو الأساسية لنظام مستقر .

وقد جاءت الأفكار السياسية التي نستطيع أن نستنتجها من الملحمتين المنسوبتين إلى هوميروس معبرة في الواقع عن هذه التطلعات . وفي حدود هذه الافكار تدور الإشارات التي وردت في هاتين الملحمتين حول أربعة أركان أو مقومات. وأحد هذه المقومات هو المقوم السياسي ، وفي هذا الصدد نستنتج من أشعار هوميروس ، وهي أشعار تعكس تطلعات المجتمع اليوناني آنذاك ، إن هذا المجتمع لم يكن يتطلع إلى إحداث تغيير يحقق وضعا سياسيا جديدا ، وإنما إلى الوصول إلى نوع من الاستقرار الذي يحقق السلام الاجتماعي في حدود الوضع السياسي القائم فعلا آنذاك . وهنا نجد هوميروس يقول على لسان أوديسيوس . ملك إثاكه Ithaka ، إن الملوك « لهم عزتهم التي يساندها الإله زيوس » (1) وحين ينشب الصراع المسلح بين أوديسيوس وبين الأرستقراطيين نجد الشاعر يصور الإلهه أثينه وهي تبتهل إلى أبيها زيوس ، كبير الآلهه ، أن يضع حدًا للقتال وضراوته ومرارته حتى « ينتشر الوفاق والسلام في ربوع إثاكه » (2) . والشاعر يشير في مكان آخر إلى الوسيلة المتحضرة التي تحقق الوفاق والسلام المنشودين — هذه الوسيلة هي مناقشة الأمور في الاجتماعات التي تعقد في ساحة المدينة . أما عن طبقة العامة فوضع أفرادها هو أن يحضروا هذه المناقشات دون أن يشتركوا فيها بالرأي أو النقد ، وإنما هو حضور صامت لا يتعدى مراقبه سير الأمور عن كثب .

---

(1) Iliados : II, 196-8.

(2) Odysseia : XXIV, 473 - 6.

والمقوم الثاني اللازم لقيام مجتمع مستقر منظم ، حسبما نرى في شعر هوميروس ، هو الاقتصاد المنظم الذي يقوم على أساس ثابت تظهر فيه موارد من الزراعة والرعي بشكل أساسي (إلى جانب قدر ضئيل من التجارة والصناعة لتغطى حاجات المجتمع . ومن خلال عرض الشاعر للتفاصيل المتعلقة بهذين الموردين نشعر أننا بصدد أمر يقوم على شيء كثير من المعرفة والدقة والعمل المنظم ؛ وهو يبرز هذا الاقتصاد المنظم على أنه الأمر اللائق بالمجتمعات المتحضرة ويبدو هذا المعنى واضحا حين يتحدث الشاعر ، على لسان أوديسيوس ، حديثا فيه كثير من الزراية عن قبيلة همجية تخيلها في ملحمة الأوديسية هي قبيلة الكيكاوبيس Kyklopes التي كان أفرادها يعتمدون في الحصول على حاجاتهم اليومية على ما يجمعونه من ثمار النباتات البرية فحسب [٢] .

هذا عن المقوم الاقتصادى للمجتمع المنظم . أما عن المقوم الثالث ، فهو يخص الجانب الدفاعي والشاعر يشير إلى هذا المقوم ضمنا أثناء وصفه للمدن التي عرض لها في ملحميته . حقيقة إن استعمال الشاعر للفظة مدينة Polis لا يعطى معنى الدولة ، وهو المعنى الذي اكتسبته هذه الكلمة في الفترة التالية للعصر الهوميرى (عصر هوميروس) والذي أصبح فيما بعد علما على نظام الدولة في بلاد اليونان ، وحقيقة إن هذا الاستعمال الذي يبرزه الشاعر لا يبتعد بوصف المدينة كثيرا عن المعنى المكاني الصرف للمدينة ، وهو المعنى الذي تصبح فيه المدينة مكانا للسكنى مثل أية مدينة بالمفهوم الشائع — ولكنا مع ذلك نلمح بين الصفات التي يربطها هوميروس بالمدينة التي يتعرض لذكرها صفة تظهر بشكل مستمر كأنها لازمة لا يمكن الاستغناء عنها . أن هذه المدن تذكر بمعنى أماكن للإقامة فحسب ،

---

(٢) Od. : IX, 105 - 15.

إلا أنها ليست أماكن عادية كتلك التي تقوم عليها التجمعات القبلية والسكانية قبل أن تتحد في هيئة مدن ، والتي كثيرا ما كانت تتعرض للإغارة أو الهجوم من جيرانها دون أن يكون لها من وسائل الدفاع غير سواعد أبناء هذه التجمعات . وإنما تقع المدن الهوميرية دائما في مكان محصن يقوم عادة على مرتفع من الأرض ، ويحيط بها سور تتخذه وسيلة للدفاع ضد أي مغير . (٤)

كذلك فإن المدينة ، كما تظهر في أشعار هوميروس ، ليست مكانا مفتوحا ، وإنما بها حصن فوق أعلى مكان فيها وتزيد من تحصينها جدران عريضة تحميها من أي هجوم ، ذات أبواب لا يستطيع أن يفتحها إلا أهلها من الداخل . ولعل خير ما يمثل لنا مناعة هذه الجدران هو أن الآخيين (الاسم الذي أطلقه هوميروس على اليونان) لم يستطيعوا أن يخترقوا جدران طرواده بسلاحهم وحده . وإنما اضطروا إلى الخدعة التي تجسدت في صورة حصان طرواده الأسطوري . وهكذا يسترعي المقوم الدفاعي انتباه الشاعر في وقت بدأ اليونان فيه يحسون بلزوم هذا المقوم لقيام المجتمع الجديد ، وإن لم يظهر بشكل تحليلي وبصورة ناضجة كأحد العناصر التي تقوم عليها فكرة الدولة .

ثم يأتي المقوم الرابع للمجتمع المنظم كما نستخلصه من ملحمتي الإلياذة والأوديسية ، وهو الروابط الاجتماعية المنظمة التي يفترض وجودها بين أفراد المجتمع المتحضر سواء اتخذت هذه الروابط شكل قوانين موضوعة : أو تنظيم عائلي أو تقاليد ترعاها الآلهة وتفرض احترامها على الجميع . وهنا يتحدث الشاعر عن أوديسيوس وقد جلس مع ملك

---

(٤) عن المكان المرتفع : IL. : VI, 291 - 4.

عن الحصن الموجود في قمة المرتفع والسور الذي يحيط بالمدينة IL. : XXII, 168 - 69, 172.

إحدى الجزر التي قذفت به الأمواج على شاطئها ، فيصوّر لنا الملك وهو يسأل أوديسيوس عن مغامراته في ألفاظ تنمّ عن فكر الشاعر فيما يخصّ هذا المقوم وضرورته للمجتمع المتحضّر . حيث يسأل الملك ضيفه « هل التقيت ، فيمن التقيت بهم ، بقبائل همجية لا تعرف النظام أو القانون ، أم كان من حظّك أن تلقى أقواماً طيبين يعطفون على الغريب ويخشون الله ؟ »(٥)

هذه هي العناصر التي تظهر في ثنايا شعر هوميروس . وجميعها تشير إلى مقومات المجتمع المنظم كما يراها ويحسّ بها الشاعر . وفي الواقع كما كان يراها ويحسّ بها اليونان الذين كانوا يستمعون إلى أشعار هوميروس ويتغنون ويطربون لها — وهي في الوقت نفسه مقومات أساسية لا بدّ من توفّرها في أية دولة . ومن ثم فأعتقد أنني لا أجاوز الصواب كثيراً إذا رأيت فيما ورد في هذه الأشعار من إشارات بداية لتبلور مفهوم الدولة عند اليونان . ولعلّه لا يكون من الإطالة الخارجة في هذا الصدد أن أنقل منظراً من مناظر الأوديسية يتعلق بقبيلة الكيكلوبيس التي أسلفت الإشارة إليها ، وفي هذا المنظر يحاول الشاعر أن يلفت الأنظار إلى ابتعاد هذه القبيلة عن الحضارة ، مبرزاً بذلك ، عن طريق المقارنة بعض مقومات المجتمع المنظم . والكلام هنا على لسان أوديسيوس :

« ثم وصلنا إلى أرض الكيكلوبيس . وهم قوم قساة جفاة لم تشرق عليهم شمس الحضارة ، فهم لا يجهدون أنفسهم في حرث الأرض أو إنبات الزرع ، وإنما يعتمدون في ذلك على ما ترمي به المقادير في طريقهم . وكل ما يحتاجونه من محاصيل هو من النوع البرّي الذي ينمو وحده ، دون أن يبذروا له حبّاً أو يفلحوا له أرضاً . والكيكلوبيس ليست لديهم ساحات يجتمعون فيها للمناقشة والتشاور في الأمور . كذلك ليست لديهم

(٥) Od. : VIII, 575 - 6.

قوانين موضوعة أو تقاليد ثابتة . وإنما يعيشون في كهوف جوفاء في ذرا الجبال حيث يتصرّف كل منهم كما يروق له في أولاده وزوجاته وحيث لا يرعون حرمة الجوار »(٦)

ب – هزيودوس والمجتمع الطيّب

المجتمع المنظم ، إذن ، كان هو المحور الأساسي الذي يدور حوله مفهوم الدولة في الفكر السياسي اليوناني في أواسط القرن التاسع ق. م. كما نستنتج ذلك من المشاهد التي تضمنتها ملحمتا الإلياذة والأوديسية المنسوبتان إلى هوميروس مجرّد مجتمع منظم له أركان ثابتة مستقرّة . سياسياً واقتصادياً ودفاعياً واجتماعياً يصلح هيكلاً أو تكويناً للدولة المنشودة . ولكن المجتمع اليوناني الذي ظهر فيه هذا الفكر ما لبث أن شهد تطورات جديدة غيّرت من أبعاده بعض الشيء ؛ وأدى هذا التغيير ، بالضرورة ، إلى تطوّر في مفهوم الدولة كما ينبغي أن تكون – وهو أمر نستنتجه من الملحمتين المنسوبتين إلى الشاعر اليوناني هزيودوس Hesiodos وهما ملحمة « الأعمال والأيام » Erga kai Hemera وملحمة « سلالة الآلهة » Theogonia .

ويمكننا أن نضع الفترة التي ظهرت فيها هاتان الملحمتان بعد عصر هوميروس بقرن أو أقلّ . أي خلال النصف الأول من القرن الثامن ق. م. في هذه الفترة كان الصراع بين النظام الملكي والطبقة الأرستقراطية قد انتهى لصالح هذه الطبقة ، وهكذا حلت الحكومات الأرستقراطية محل الحكومات الملكية في بلاد اليونان . وقد استطاعت هذه الطبقة الجديدة أن تسيطر سيطرة تامة على المجتمع فقد كان أفرادها هم أصحاب

---

(٦) راجع حاشية (٣) اعلاه

الامتدادات الواسعة من الأراضي الزراعية والرعوية التي تشكّل مورد الإنتاج الرئيسي في المجتمع اليوناني . كذلك كانوا . بحكم وضعهم هذا ، هم القادرين على امتلاك الخيل في وقت كانت فيه فصائل الفرسان هي العامل الحاسم في القتال (في وقت كان فيه هذا القتال لا يزيد في أغلب الأحوال عن غارات متبادلة بين المدن) ومن ثمّ كانوا أصحاب السيطرة العسكرية إلى جانب السيطرة الاقتصادية كما مرّ بنا في حديث سابق .

وحقيقة إنّ المجتمع اليوناني شهد في عصر الحكم الأرستقراطي استكمال تكوين الدويلات اليونانية بحيث أصبحت كلمة مدينة Polis حين تذكر لاتشير إلى المفهوم العمراني فحسب . وإنما تشير أولاً وفوق كل شيء إلى مفهوم الدولة . ولكن مع ذلك فإنّ استكمال التكوين السياسي للدويلات اليونانية لم يؤدّ إلى الاستقرار أو السلام الاجتماعي المنشود في المجتمع اليوناني . فالطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، بعد أن أصبحت تملك شرعية الحكم إلى جانب السيطرة على المجتمع اليوناني اقتصادياً وعسكرياً ، بدأت تسيء استخدام هذه السيطرة فتوجهها إلى خدمة مصالحها على حساب مصالح طبقة العامّة . ويعبّر هزيودوس عن هذا الوضع (في أحد جوانبه على الأقلّ) حين يتحدث عن الأحكام القضائية التي كان القضاة الأرستقراطيون لا يتوخّون فيها العدالة وإنّما يصدرونها لصالح من يدفع أعلى ثمن .

من جهة أخرى كان هناك تطوّر مقابل من جانب طبقة العامّة بحيث أصبحت تملك صوتاً ، مهما كان ضعيفاً . في مجال المساومة الاجتماعية مع الطبقة الأرستقراطية . هذا التطوّر هو التحسنّ النسبي للوضع الاقتصادي لهذه الطبقة . وفي هذا الصدد نجد أن الملكية الخاصة للأراضي زادت بين أفراد العامّة عما كانت عليه في عصر هوميروس . قبل ذلك بأقل من

قرن . فبينما كان الهدف الأعلى لأحد رعاة الملك أوديسيوس ، كما يذكر لنا هوميروس في ملحمة الأوديسية ، هو أن يمنحه الملك قطعة من الأرض ، يذكر هزيودوس أن أباه ، وهو من طبقة العامّة الذين اعتبرهم الشاعر من المسحوقين ، كان يملك قطعة من الأرض تكفي لأن يورّثها للشاعر ولأخيه[٧] . كذلك تشير سطور ملحمة « الأعمال والأيام » مكررا بما يفيد أن طبقة العامة في المجتمع اليوناني آنذاك كانت قد بدأت تتجه إلى العمل في مجال التجارة البحرية كمرد إنتاج جديد أو إضافي أو على الأقل كمخرج من الضيق الذي تعاني منه في مجال العمل الزراعي .[٨]

وفي ضوء هذه الظروف نجد أن المجتمع اليوناني الذي كان نظام دولة المدينة قد استقرّ فيه واستكمل بناءه ، لم يعد مثله الأعلى الذي يعبّر عنه من خلال الفكر السياسي هو قيام مجتمع منظّم له مقومات الدولة (وقد كان هذا هو محور الفكر السياسي في عصر هوميروس) فإنه قد وصل إلى ذلك فعلاً . وإنما أصبح هذا المثل الأعلى يتخطّى هدف المجتمع المنظم إلى هدف آخر هو « المجتمع الطيب » . والدعامة الأولى لهذا المجتمع الطيب الذي يؤدي إلى السلام الاجتماعي هي « العمل » ، العمل الذي يبذل فيه جهد حقيقي . فإنّ هذا العمل هو الذي يؤدّي إلى الازدهار سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع . وفي هذا الصدد نجد هزيودوس ينصح أخاه برسيس Perses في سطور ملحمة

---

(٧) عن حالة الراعي عند اوديسيوس : Od. : XIV, 56 - 66.
عن حالة والد الشاعر هزيودوس : Hesiodos : Erga Kai Hemera, 37 - 9, 636 (وما بعدها)

(٨) رغم التحفظات التي يبديها هزيودوس حول العمل في البحر وما يحيط بذلك من أخطار ، الا انه يتحدث عن تفاصيل العمل في التجارة البحرية حديث العارف بأدق تفاصيلها ، وهو بذلك يعكس بالضرورة معلومات كانت موجودة في المجتمع الذي يعيش فيه .
عن التحفظات راجع : Hesiodos : Op. Cit., 648, 667 - 8.
عن المعلومات : Ibid. : 618 - 94.

الأعمال والأيام « إذا كنت تصبو إلى الثروة فطريقك إلى تحقيق ذلك هو أن تنكبّ على العمل ثم العمل »[٩] ؛ وفي مكان آخر من الملحمة ذاتها يحضّه أن « يشمّر ليبذر ، ويشمّر ليفلح الأرض ، ويشمّر ليحصد» إذا أراد أن يحصل على كلّ ثمار الآلهة ديميتر Demeter (آلهة الأرض) في موسمها المناسب ، ثم يستمرّ بعد ذلك ليصف الجهد المبذول هو الذي « يؤدي بالعمل إلى نتيجته المرجوّة ، بينما تجد الذي يؤجّل عمله في صراع دائم مع الخراب »[١٠]. أمّا عن قيمة العمل بالنسبة للمجتمع ككلّ فإنّ الشاعر يذكر عنه أنّه الطريق التي وضعتها الآلهة بيننا وبين الخير ، وأن هذه الطريق « طويلة وتتجه صعوداً (يقصد شاقة) » و « يغطيها عرق الجبين » وهي « وعرة في البداية ولكنها سهلة سويّة حين يصل المرء إلى القمّة »[١١] .

ولكن العمل ، بكلّ ما يبذل فيه من جهد ، لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجته المرجوة إذا كانت العلاقة بين الطبقات لا ترتكز على مقوّم سليم — وهذا المقوم السليم هو العدالة . وهنا يجدر بنا أن نتوقف لحظة عند هذه القيمة أو هذا الركن الثاني من أركان « المجتمع الطيب » الذي كان يشكل المثل الأعلى لمفهوم الدولة في المجتمع اليوناني في عصر هزيودوس . إنّ هذه العدالة ليست عدالة يكفلها الدستور في موادّه كتشريعات واضحة مازمة . فإنّ مثل هذه العدالة المقننّة التي يلزم بها الدستور لم تكن تجول بخلد طبقة العامّة آنذاك ؛ فهذه الطبقة لم تكن تسيطر بعد على وسائل الانتاج في المجتمع اليوناني بالقدر الذي يمكنها من المساومة الاجتماعية بشكل قويّ إزاء الطبقة الأرستقراطية

(٩) Ibid. : 381 - 2.
(١٠) Ibid. : 407 - 14.
(١١) Ibid : 289 - 92.

الحاكمة . ومن هنا كانت العدالة التي ينادون بها ، والتي تنعكس في أشعار هزيودوس ، هي من نوع المفهوم العام غير المفصل الذي يقوم على الأساس الوحيد الممكن الذي يمكن أن تصبو إليه طبقة العامّة في وضعهم آنذاك . وهو الأساس الأخلاقي . وفي الواقع فإننا في ضوء هذا الاعتبار وحده ، نستطيع أن نقدّر بشكل كامل كلّ ما يظهر في أشعار هزيودوس من حضّ على العدالة التي شكلت عنده هدفا دعا إليه بأكثر من وسيلة .

وإحدى هذه الطرق التي عمد إليها هي أن يذكر البؤس الذي كان يعانيه الرجل العادي (من طبقة العامة) الذي يعمل تحت ظروف مرهقة مضنية . فلاحاً لحقله أو راعيا لغنمه عند سفح الجبل ، ويصف في هذا المجال أحد هؤلاء العامة ، وهو والده وهو يعيش في ضيعة بائسة . « جوّها قارس في الشتاء . قائظ في الصيف وسيء في كلّ الأحوال » (١٢) . وإلى جانب هذه الطريقة يعمد إلى طريقة ثانية في جذب الانتباه إلى مقوم العدالة الذي يجب أن يسود المجتمع . فنجده يشجب الجيل الذي يعاصره كجيل بائس كانت نتيجة تصرّفاته أن أصبحت « القوّة هي الحق » . وهو جيل سوف يتركه الإله آيدوس Aidos (الذي يمثل شعور الخجل الذي يمنع المرء من الإقدام على العمل الخاطيء) كما ستتركه الإلهة نيميسيس Nemesis (التي تمثل استنكار وصول الأشرار إلى ازدهار لايستحقونه) لكي يعيش في دوامة البؤس والضياع .

أما الطريقة الثالثة التي يصوّر بها ما يريد أن يوصله إلى سامعيه من ضرورة العدالة كركن للمجتمع الطيبّ . فهي طريقة غير مباشرة

---

(١٢) Ibid. : 639;

يقدم من خلالها "مثل الصقر والكروان الذي يذكر أنه يحكيه « للأمراء (يقصد أفراد الطبقة الأرستقراطية) الذين يفهمون » . لقد أنشب الصقر مخالبه في جسم الكروان وطاربه ، فلما احتج الكروان على ذلك وسط معاناته التي لا تملك حولا ولا طولا قال له الصقر « إنه لمعتوه ذلك الذي يحاول أن يقف وفي وجه القوي . . . فهو إلى جانب ما يتحمله من عار سيعاني كذلك من الألم » (١٣) . ثم يستمر هزيودوس ، في محاولة للوصول إلى هدفه ليبين لنا أن من يعتقد أن التجبر يسود دائما لا بد أن يكون معتوها كذلك . فان «العدالة» Dike سوف تنتصر على التجبر Hybris في نهاية الشوط ، وإن روح العدالة إذا دُفِعَ بها في طرق معوجة ، سوف تطارد المدينة وسكانها وتجلب العاقبة الوخيمة « لأولئك الذين لم يتبعوا الطريق السوية في تعاملهم معها » (١٤) .

وأخيراً ، فان هزيودوس يردد في أشعاره الأفكار التي كانت سائدة في المجتمع اليوناني في عصره حول فكرة العدالة التي يجب أن تشكل الأساس الأخلاقي للتعامل بين الطبقات . حين يضع القضية في إطار آلهي مقدّس « إن العدالة العذراء » هكذا يقول هزيودوس «هي ابنة زيوس (كبير الآلهة) الذي تمجده وتحترمه الآلهة جميعا . وهي أخت لإلهة السلام التي تنشر الازدهار حيث لا يريد الناس ظهورهم لما هو عادل . . . وإن زيوس الذي يرى كل شيء ويفهم كل شيء سيرى كيف سيتعامل أهل المدينة مع العدالة . وهو لن يشن الحرب القاسية على من يسير في طريق العدالة ، ولكن من يمارسون التجبر لن يفلتوا من عقابه . . . إن هؤلاء سيصيبهم الجوع والوباء . ويهلك

(١٣) Ibid. : 202 - 12.
(١٤) Ibid. : 213 - 24.

رجالهم ونعقم نساؤهم وتتقلص أعداد بيوتهم . وسيحطم (الإلهة زيوس) جيشهم الكبير وجدران مدينتهم ، وسفنهم في البحر»[١٥].

وهكذا يتبع هزيودوس كل الطرق ليبرز قيمة العدالة كركن آخر ، إلى جانب قيمة العمل ، في قيام « المجتمع الطيب » كمثل أعلى يدور حوله الفكر السياسي عند اليونان في الوقت الذي نظمت فيه ملحمتي « الأعمال والأيام » و « سلالة الآلهة » في النصف الأول من القرن الثامن ق . م . وبهذا تكون الأفكار التي تضمنتها الملحمتان المنسوبتان إلى هزيودوس فيما يخص مفهوم الدولة هي استمرار من حيث انتهت تلك، تضمنتها ملحمتا الألياذة والأوديسية المنسوبتين إلى هوميروس حول مقومات « المجتمع المنظم » ، وتكون بذلك هاتان المجموعتان من شعر الملاحم هما سجل الفكر السياسي اليوناني في مرحلة التكوين .

٢ — مرحلة التحديد

رأينا أن المرحلة الأولى التي شهدت ظهور الفكر السياسي عند اليونان كانت مرحلة تدور فيها الافكار والتطلعات حول التكوين الهيكلي ، أو المقومات العامة للدولة ولكنها لم تكن قد وصلت بعد إلى تحديد الاتجاه أو الصورة التي تتخذها هذه المقومات. وكان السبب في ذلك هو أن المجتمع اليوناني كان لا يزال في الشوط الذي شهد البدايات الأولى لظهور دولة المدينة ككيان سياسي . ولكن الفترة التي تلت عصر هزيودوس شهدت تحولا كبيراً في المجتمع اليوناني ترك أثره على الفكر السياسي ، فبدأ المفكرون يتجهون نحو قدر متزايد من التحديد

---

(١٥) Ibid. : 238 - 47.

لنوعية القيم التي يطرحونها كمقومات للدولة أو للمجتمع في ظل التغيرات الجديدة .

١ ـ سولون والمجتمع المتوازن

وقد كانت نقطة الانطلاق في التطور الجديد هي حركة التوسع التي اندفع إليها المجتمع اليوناني منذ القرن الثامن ق . م . وهي حركة واكبها ازدهار تجارى متزايد على نحو ما ذكرت في حديث سابق . وكانت نتيجة ذلك ظهور طبقة صاعدة من التجار تسيطر على هذا المورد من موارد الإنتاج (بينما كانت الطبقة الأرستقراطية لاتزال تسيطر على الأراضي الزراعية والرعوية) . ولكن هذا التطور الجديد كان يحمل بذور تطور آخر. فازدهار التجارة كان يعني إلى جانب ظهور طبقة التجار ، ظهور وعي طبقة العامة بدورها في المجتمع اليوناني : فهم أصحاب الحرف الذين يصنعون السلع اللازمة للتبادل التجارى ، وهم عمال الموانيء والبحارة . وهم الجنود الذي يحاربون المعارك العديدة المديدة الشرسة التي تمخضت عنها المنافسات التجارية الحادة بين المدن اليونانية على الاستئثار بالأسواق التجارية وعلى خطوط التجارة البحرية .

وقد كان الوضع المترتب على ذلك وضعا أقل ما يوصف به أنه متداخل . فالطبقة الأرستقراطية القديمة تسيطر على الأرض التي لم تعد مورد الإنتاج الرئيسي ولكنها تملك شرعية الحكم ومن ثم تسير أمور المجتمع في صالحها . وطبقة التجار تسيطر على التجارة التي أصبحت مورد الإنتاج الرئيسي ولكنها بعيدة عن الاشتراك في الحكم ومن ثم لاتستطيع الدفاع عن مصالحها المتزايدة.وطبقة العامة تملك دوراً كبيراً وفرصاً للمساومة الاجتماعية أمام الطبقتين الغنيتين ولكن وعيها لم

يصل بعد إلى ذروته حتى تستطيع أن تترجم هذه الفرص إلى حقوق تتناسب مع حجم الدور الذي تقوم به : ثلاثة أطراف كلّ منها يملك مقوما أساسيا ولكنه يفتقر إلى مقوم آخر أساسي كذلك .

وفي ضوء هذا الاعتبار لم يكن غريبا أن يتجه أحد المفكرين الذين يعنيهم شئون المجتمع في الوقت ذاته إلى النظر إلى التوازن بين هذه الطبقات كمقوم أساسي يحل مشكلة الدولة التي باتت هذا الوضع المتداخل يشكل بالنسبة لها طريقا مسدودا . وقد كان هذا المفكر هو سولون الذي رأيناه في حديث سابق يضع دستورا لأثينة في أوائل القرن السادس ق . م . ولكن سولون لم يكن رجل دولة فحسب ، وإنما كان كما ذكرت مفكرا تعنيه فلسفة الحكم بقدر ما تعنيه الناحية التنفيذية لهذا الحكم ، ومن ثم فقد ترك لنا التقييم الفكري أو النظري للتشريع أو الدستور الذي وضعه لأثينة . وهو تقييم فكري ينطبق في الواقع على ما مرّ به المجتمع الأثيني وغيره من مجتمعات المدن اليونانية الأخرى في تلك الفترة.والمحور الذي يدور حوله الفكر السياسي لسولون في حل مشكلة الدولة المطروحة آنذاك هو التوازن الطبقي كما أسلفت . ولكنه في الوقت ذاته ليس توازنا حسابيا أو توازنا مطلقا ، وإنما هو توازن نسبي يراعي ظروف كلّ طبقة : بما في ذلك حاجاتها الملحة .ومقدار ما تسيطر عليه موارد الانتاج ، ومقدار وعيها بالدور تحتله في المجتمع ، هذا إلى جانب الهدف الأكبر وهو استقرار المجتمع مع عدم التفريط في كرامة طبقة لحساب طبقة أخرى .

وقد عرفنا في حديث سابق ملامح التشريع الذي قدمه سولون والذي ظهر فيه فعلا هذا التوازن النسبي بين الطبقات، ولعلّ خير ما يعبر عن القاعدة الفكرية أو النظرية التي قام عليها هذا التشريع هو أبيات من بعض القصائد التي كتبها سولون نفسه، فقد كان، إلى جانب

صفات كثيرة ، شاعرا كذلك. ففيما يخص التوازن الذي حرص عليه بين حقوق الطبقات نجده يقول : (١٦)

« لقد وفقت بين الحق والقوة حتى تكاملا
وبهذا حققت ما وعدتُ به »

وهو يرى أن هذا التوازن هو الشكل الذي يجب أن تتخذه العدالة حين يقول : (١٧)

« لقد أعطيت العامة ما فيه كفايتهم
أديت لهم حقهم دون زيادة أو نقصان
أما أولو السطوة والثروة
فلم أجعلهم يقاسون دون موجب
لقد وقفت أحمي الطرفين بدرع قويّة
فما أردت أن يكون نصر أحدهما على حساب العدالة »

أما عن نسبية هذا التوازن فنجدها في حديثه عن العامّة حيث يقول : (١٨)

« هكذا يسير الشعب مع رؤسائه في طريق الخير
بلا قهر ، وبلا حرية زائدة
فإنّ ما يزيد عن الكفاية يؤدّي إلى البطر
في أيدي من لم تتهيّأ أذهانهم لذلك »

---

(١٦) Aristoteles : Athenaion Politeia, XII, 4.
(١٧) Ibid. : XII, 1.
(١٨) Ibid. : XII, 2.

ب — إيسيخيلوس والحرية الجماعية

ولكن إذا كانت الظروف التي أحاطت بالمجتمع اليوناني في أوائل القرن السادس ق . م . قد أنتجت فكراً سياسيا يرى أنّ المثل الأعلى للدولة يكمن في التوازن بين الطبقات ، كما عبرّ عن ذلك سولـون بشكل واضح ، فإنّ هذه الظروف كانت قد تطوّرت خلال هـذا القرن حتى إذا وصلنا إلى أوائل القرن الذي يليه وهو القرن الخامس ق . م . كانت أوضاع المجتمع اليوناني قد تغيرّت كثيرا .

في ذلك الوقت كانت طبقة العامة قد بدأت تدرك دورها ووزنها في المجتمع اليوناني بشكل فيه كثير من الوعي ، وحين ثارت عـلى الحكم الأوليجركي الطبقي تعرّضت للانتكاسة التي تمثلت في العودة إلى الحكم الفردي الذي عرف عند اليونان باسم حكم الطغاة . ولكن المجتمع اليوناني استطاع في أغلب الأحوال أن يقضي على هذا الحكم الفردي وأن يصل إلى مرحلة الديمقراطية أو مرحلة الحكم الشعبي الذي تتكامل فيه كافة طبقات المجتمع في الحقوق والواجبات والذي ينتقل فيه الفصل في الأمور إلى المجالس الشعبية التي كانت تضمّ كلّ المواطنين. هذا وإذا كان المجتمع اليوناني قد استطاع أن يستخلص حريته السياسة بالقضاء على حكم الطغاة في أواخر القرن الخامس ق. م. (تمكن الأثينيون من القضاء على حكم الطاغية هيبياس في ٥٠٩ ق.م) ، وبعد ذلك بثلاثة عقود كان قد استطاع أن ينتصر في دفاعه عن هـذه الحرية في وجه القوات الفارسية التي أقدمت على غزو بلاد اليونـان (٤٩٠ و ٤٨٠ ق. م.) .

وفي ضوء هذه الظروف يصبح من الطبيعي أن يتجه الفكر السياسي اليوناني إلى اعتبار قيمة الحرية هي حجر الأساس في النظام الذي ينبغي

أن يسود المجتمع ، وإلى تحديد المعنى المقصود بهذه القيمة . ونحن نجد في الواقع أول إشارة محدّدة إلى الحرية كمقوّم سياسي في كتابات الشاعر المسرحي ايسخيلوس Aeschylos (٥٢٥ – ٤٥٦ ق. م) . ففي مسرحية « الفُرْس » Persae التي عرضت في ٤٧٢ ق . م . نجده يشير إلى الحرية كمقوم أساسي للمجتمع اليوناني . ففي الشوط الأول من هذه المسرحية نجد الملكة أتوسّه Atossa (أم الملك الفارسي) التي كانت ترافق الحملة الفارسية على بلاد اليونان مع ابنها الملك ، تسأل الجوقة التي تمثل الشيوخ الفرس عن هوية اليونانيين وأحوالهم فتقول : أيّ سيد يرعى هؤلاء القوم ؟ فتأتيها إجابة الجوقة مباشرة « إنهم ليسوا رعايا أو عبيدا لأحد . »[١٩]

ولكن ما هو كنه الحرية المقصودة هنا . هل هي الحرية الفردية التي لاقيود عليها أم ذلك النوع من الحرية الجماعية الذي يمكن أن نطلق عليه الحرية السياسية التي يتمتع بها الشعب في مجموعه ؟ إننا إذا تساءلنا عن نوع الحرية التي يقصدها الشاعر فعلينا أن نبحث عن الإجابة في خلفية المجتمع اليوناني الذي كان قد أسقط الحكم الفردي الاستبدادي وأقام مكانه الحكم الديمقراطي الذي يشترك فيه الشعب بكافة طبقاته كما مرّ بنا منذ قليل . وإذن فالحرية المقصودة هي الحرية السياسية الجماعية التي تجعل شخصية المواطن تتطابق تطابقا كلّيا مع شخصية المجتمع ، مكانا وزمانا وبشرا . وفي الواقع فإن ايسخيلوس لا يلبث أن يعطينا هذا الانطباع أو هذا التفسير لمعنى الحرية التي يقصدها في مشهد يروي فيه رسول فارسي ما حدث في معركة

---

(١٩) Aeschylos : Persae, 244.

سلاميس للملكة أتوسه فيقول ، واحديث هنا عما حدث في صفوف اليونان : [٢٠]

« وعلى فجأة سمعنا صرخة عاتية :
يا أبناء اليونان : إلى الأمام . حرّروا بلدكم
حرّروا كذلك زوجاتكم وأولادكم . والمعابد . .
التي بنيت لآلهة آبائكم . والقبور المقدسة
التي يرقد فيها الآن أسلافكم . فإن الحرب في هذه اللحظة
هي من أجلنا جميعا . ومن أجل كلّ شيء لنا . »

والشاعر يعود إلى الحديث عن الحرية، كقيمة: أو مقوم أساسي في المجتمع ، في مسرحية « الضارعات » أو « المستجيرات » Hikedites التي عرضت في فترة سابقة لمسرحية «الفرس» فيبرز هذه القيمة بمعناها السياسي الذي يتمثل في الحكم الشعبي الجماعي ويظهر لنا هذا المعنى بوضوح في المشهد الذي تتقدّم فيه بنات داناؤس Danaos لاجئات من مصر إلى مدينة أرجوس ومستجيرات بملكها لكي يحميهن من أبناء عمهنّ إيجبتوس Aegyptos (الملك المصري) الذين يريدون الزواج منهن قسرا . وهنا يجد الملك نفسه في وضع حرج إذا أقدم على إجارتهنّ . إذ قد يتسبب ذلك في حرب مع مصر يترتب عليه أذى لشعب أرجوس فيذكر في صراحة « إني لن أقدم على أيّ وعد قبل أن أتناقش مع جميع المواطنين » . [٢١] وحين تجيبه جوقة بنات داناؤس قائلات : إنك أنت المدينة ، وأنت الشعب . وإنّ إيماءة واحدة منك بالموافقة كافية بإن تنهي هذا الأمر « يدخل معهنّ في حوار طويل ولكنه يؤكد موقفه في النهاية فيقول : [٢٢]

(٢٠) Ibid. : 403 - 8.
(٢١) Aeschylos : Hikedites, 362 - 3.
(٢٢) Ibid. : 391 - 5.

إنّ الحكم (في هذه المسألة) أمر عسير ، فلا تتخذوني حكماً
ولكن . كما قلت من قبل ، فاني لن أفعل شيئا
إلاّ بموافقة الشعب ، رغم ما لديّ من سلطات .
حتى لا يقول الشعب إذا حدث ما لا تحمد عقباه
« لقد كرمت الغرباء ، ولكنك أنزلت الخراب بالمدينة »

ج – هيرودوتوس وحرية الكلمة

الحرية السياسية أو الحرية الجماعية . إذن . اعتبرها ايسخيلوس حجر الأساس في بناء الدولة أو المجتمع المنظم ، وكان يردد دون شك أفكار الديمقراطية أو الحكم الشعبي الذي عرفته أثينه وعدد من المدن اليونانية مع إطلالة القرن الخامس ق. م . وقد تعمق هذا الحكم الشعبي خلال العقود التالية من هذا القرن عن طريق الممارسة المستمرة التي تسمح بالرأي وبالرأي الآخر في المدن التي انتشر فيها هذا النوع من الحكم . كذلك واكب هذه الفترة، وبخاصة في أواسط القرن، انتشار محسوس للثقافة التي عرفت حرية الكلمة في ظلّ هذا الحكم الشعبي – ومن ثم شاعت آنذاك المقارنة بين أنظمة الحكم المختلفة. وكان في هذه المقارنات مجال واسع للفكر السياسي الذي يظهر بشكل مباشر أو غير مباشر في كتابات المثقفين في تعليق على هذا النوع من الحكم أو ذاك يكون بمثابة تعبير عن الاتجاه العام فيما يخص مقومات الدولة في المجتمع اليوناني في تلك الفترة .

ومن بين المثقفين الذين عرفتهم تلك الفترة هيرودتوس Herodotos (حوالى ٤٨٥ – ٤٢٥ ق. م.) ، الذي كان مواطنا من هاليكارناسوس (إحدى المدن اليونانية الآسيوية) ولكنه اضطر أن يغادر مدينته أمام تعسف الطاغية الذي كان يحكمها . وفي أثناء تجواله

تردد عدة مرات على أثينة التي كانت المركز الأول للحركة الثقافية في العالم اليوناني في ذلك الوقت. وفي أواسط القرن كتب هيرودوتوس دراسته « التواريخ » Historiae (٢٣) مضمنا إياها كل ما حصل عليه من معلومات عن تاريخ وأحوال الشعوب التي امتدت معرفته إليها في أثناء رحلاته العديدة في العالم المتحضر المعروف آنذاك. ورغم أن دراسته كانت تدور أساسا في مجال التاريخ إلا أنها تضمنت ، بشكل غير مباشر ، أفكاره عن الدولة ومقوماتها .

وعلى سبيل المثال فنحن نجده يضع على لسان ثلاث شخصيات فارسية حديثا مقارنا عن الميزات والعيوب التي تنطوي عليها طرق الحكم الثلاثة : الحكم الفردي وحكم الأقلية والحكم الشعبي . (٢٤) وأول هؤلاء المتحدثين يرى أن نظام الحكم الفردى نظام سيء، ويرد ذلك إلى سببين : أحدهما أن الحاكم المطلق بإمكانه أن يفعل ما يحلو له ولكنه غير مسئول أمام أحد عما يفعل، والسبب الثاني هو أن هذا الحاكم المطلق مهما كانت اتجاهاته الطيبه ، فهو لابد أن يكتسب طريقة في النظر إلى الأشياء تختلف عن طريقة الرجل العادي. فهو من جهة يصيبه الغرور بسبب ما في يده من سلطة وثروة ، ومن جهة أخرى يصيبه الشك في تصرف المحيطين به ، فهم إذا عارضوا ما يقدم عليه بسبب غروره أثار ذلك غضبه . وإذا وافقوه عليه شك في ولائهم ،

(٢٣) كلمه Historiae اليونانية جمع كلمة Historia . والمعنى الحرفي لهذه الكلمة الاخيرة هو : التحقيق بهدف التوصل الى المعلومات الصحيحة . وقد اقترح علي الصديق الأستاذ الدكتور مصطفى العبادي ، استاذ الدراسات الأوروبية القديمة بجامعة الاسكندرية ، ان اسميها « البحث » بمعنى البحث العلمي ، وهي تسمية فيها الاختصار الذي يجمع بين الوقع والعصرية . ثم اصبحت الكلمة بعد ذلك ، بالممارسة ، تعني : التاريخ .

(٢٤) Herodotos : Historiae, 80 - 2.

وهذا الوضع يؤديّ به في النهاية إلى تصرّفات غير متزنة وغير مأمونة ويصبح أصحاب الشخصيات الجادّة النظيفة محلّ كراهيته وتخوّفه ويستمر المتحدث فيذكر أن خير نظام هو ذلك الذي يكون فيه تصريف الأمور في يد الشعب to plethos . أي المواطنين جميعا . فأعضاء الجهاز الحاكم يختارون بالاقتراع من بين هؤلاء المواطنين وحين يتركون مناصبهم لا بدّ أن يقدموا حسابا للشعب عن أعمالهم . كما تصبح القرارات التي تتخذ في تصريف الأمور خاضعة لإرادة الشعب.

والمتحدث الثاني يوافق المتحدث الأول على رأيه في مساوىءالحكم الفردي،ولكنه يرى أن التجبر الذي تتصف به تصرفات الحاكم المطلق قد تتصف به كذلك تصرّفات الحكومات الشعبية . فإنّ الجماهير العريضة تفتقر . عادة . إلى المعرفة والثقافة . ولما كانت هاتان الصفتان لا تتوفران إلاّ لدى قلّة من الشعب . فيصبح خير حكم هو حكم هذه القلّة التي تمثل نخبة الشعب ، إذ سيكون أفراد هذه النخبة هم أصحاب الرأي السديد . أمّا المتحدث الثالث فإنه يرى أنّ كلّ نوع من أنواع الحكم الثلاث قد يغلب فيه الجانب الخير أو الجانب السيء، ولكن مع ذلك فإنّ الحكم الفردي . إذا كان خيرًا ، يصبح خير هذه الأنواع . فالأقليات الحاكمة . في رأيه ، يتفشى بين أفرادها عادة الصراع على السلطة . أمّا نظام الحكم الشعبي فإنّه ينتهي عادة بأن تصبح الأمور في يد مجموعات لا تمثل خيرة الشعب ، بينمايستطيع الحاكم المطلق أن يتفادى ،بسلطته، كلّ ما ينجم عن هاتين الحالتين.

وبصرف النظر عن نصيب هذا الحوار من الصحّة التاريخية ، إلاّ أن هيرودوتوس يعرض من خلاله ، دون شك ، الأفكار السياسية التي كانت سائدة في عصره . والتي كانت في حدّ ذاتها نتيجة لتفتح الأذهان الذي واكب ازدهار الحركة الثقافية . ورغم أنّ المؤرخ الكبير

لا يقحم رأيه مباشرة في الأفكار التي ينسبها إلى هؤلاء المتحدثين الثلاث . إلا أن الاتجاه الذي يسير فيه فكره السياسي يبدو واضحاً طوال الوقت .. فهو حين يروي موقف المتحدث الأول من الحكم الشعبي الذي يضع تصريف الأمور في يد المواطنين جميعا يقول – على لسان المتحدث – إن هذا الوضع يصدق عليه وصف « المساواة، هذه اللفظة الجميلة »[25]. وهذا الوصف يتفق في الواقع مع اتجاهاته التي نستطيع أن نستنتجها من حياته أو من طريقة كتابته ، فهو يمقت نظام الحكم الفردي من واقع تجربته الشخصية (وقد سبق أن رأينا كيف اضطر إلى الفرار من مدينته نتيجة للحكم الفردي المستبد الذي كان يسودها) . كذلك فنحن نجده يسهب ويفيض في كل مناسبة يدور فيها الحديث عن سقوط الحكام الفرديين وبين المصير السيء الذي آلوا إليه . وهو لا يترك كلمة « المساواة » تمضي بمعناها العام دون تحديد يبين ما نقصده منها وهنا نجده يبرز في حديثه بوضوح تام أن المساواة التي يقصدها هي المساواة في فرصة التعبير أو حرية الكلمة isegoria ، بل أن يصل في طريقة استخدامه لهذه الكلمة إلى الحد الذي يجعلها فيه تعني « نقيض الاستبداد » ، وهكذا يكون المقوم الأساسي للدولة عند هيرودوتوس هو المساواة . هذا بينما تعني المساواة في المقام الأول : حرية الكلمة .

د – الدولة بين المواطن والدستور

هكذا كان مفهوم الحرية مجالا للمناقشة بصفته مقوّماً أساسيا من مقومات الدولة . فالحرية عند ايسخيلوس هي الحرية السياسية أو الجماعية . بينما يتجسد مضمونها الرئيسي عند هوميروس في حرية

(٢٥) kalliston ounoma isonomie (Ibid. : 80).

الكلمة . على أن النصف الثاني من القرن الخامس شهد نقاش قيمتين أخريين في مجال الفكر السياسي . هما المواطن من جهة . ودستور المدينة أو الدولة من جهة أخرى. وقد كان الحديث عن القيمة الأولى « وهي المواطن » نتيجة مباشرة لفكرة دعا إليها جماعة من المفكرين الذين احترفوا التعليم في تلك الفترة هم السوفسطائيون Sophistai (المعنى الحرفي للكلمة اليونانية هو : المتخصصون) . كان أشهرهم بروتاجوراس Protagoras . والفكرة التي دعا إليها هؤلاء هي أن الإنسان هو مقياس كلّ شيء في الوجود . ومن ناحية الفكر السياسي يصبح معنى هذا أن المواطن هو مركز الدولة ، ومن ثمفليس هناك نظام سياسي طيب بالطبيعة أو سيء بالطبيعة ، فالمواطن هو الذي يضع النظام والمواطن هو مقياس الحكم عليه .

وفي ضوء هذه الفكرة يرى بروتاجوراس أن النظام الطيب يتوقف بالضرورة على المواطن الطيب الذي يصبح في هذه الحال هو المقوّم الأساسي للدولة . ورغم أن الاستعداد موجود بالطبيعة لدى كلّ المواطنين لكي يكونوا مواطنين طيبين . إلا أن هذا الاستعداد وحده لايكفي وإنما لا بدّ من تنميته عن طريق تعليم المواطن بغرض الحصول على الخبرة السياسية politike techne وعلى الكفاءة اللازمة للمواطن politike arete . حتى يصبح مواطنا متميزا وتصبح هناك ، نتيجة لذلك . نخبة من المواطنين تستطيع أن تخدم الدولةوتقدم لها المشورة اللازمة في المجالات التي تحتاج إليها . (٢٦)

---

(٢٦) Platon : Protagoras, 323 a . عن تفصيل لآراء بروتاجوراس في هذا الصدد راجع :

Platon : Theaetetos, 152, 167 c - 168 b, 171 - 2; Protagoras, 309 - 329 b.

ولكن هذا الاتجاه الذي يجعل كلّ قيمة في الدولة نسبياً ، يتوقف على المواطن . الذي جعله السوفسطائيون مركزا لكلّ شيء ومن ثم المقوّم الأساسي للدولة قابله ، من الجانب الآخر ، نوع من الفكر السياسي نادى بأن المقوم الأساسي الثابت في الدولة هو الدستور ، وإن هذا الدستور أو النظام يجب احترامه والالتزام به مهما كان نوعه طالما ارتضاه المواطن لنفسه في البداية ، وكان صاحب هذا الاتجاه في الفكر السياسي هو سقراط Sokrates . ورغم أنّ الفيلسوف الكبير لم يترك لنا شيئا مكتوبا في هذا الصدد . إلاّ أننا نعرف عن موقفه هذا من بعض المحاورات التي تركها لنا تلميذه أفلاطون Platon ؛ ومن كتابات تلميذ آخر له هو كسينوفون Xenophon .[٢٧]

وفي إحدى هذه المحاورات نعرف أنه عندما حكم مجلس الشعب الأثيني على سقراط بالاعدام (عن طريق شرب السّم) لأنه « أفسد عقول الشباب » اقترح عليه كريتون Kriton . أحد تلاميذه ، أن يفر من المدينة تفاديا لتنفيذ الحكم . وهنا يجيب سقراط على هذا الاقتراح بأن يسأل نفسه : أليست أثينه هي التي أنبتته وفيها شبّ وتثقف؟ ألم يكن أمامه سبعون عاما كان في مقدوره دائما في خلالها ، إذا لم ترقه قوانينها . أن يتركها ليعيش في ظل قوانين دولة أخرى كإسبرطه أو كريت مثلا ؟ لقد وجّه سقراط إلى نفسه هذه الأسئلة في صراحة ، ووجد الجواب عليها واضحا . لقد اختار لنفسه النظام الديمقراطي الأثيني . أو على الأقل رضي بهذا النظام عن إدراك واضح ليس فيه غموض أو سوء فهم ، وعليه الآن أن يخضع لقوانين هذا

---

(٢٧) على وجه الخصوص ما كتبه افلاطون في محاورة « كريتون » Kriton ومحاورة « الدفاع » Apologia ، وما عرضه كسينوفون في مقالته « دفاع سقراط » Apologia Sokratous .

النظام حتّى لو طالبته هذه القوانين . كما تطالبه الآن .أن يدفع حياته ثمنا لذلك. ثم يستطرد سقراط في ردّه على تلميذه ليذكره ما يعتقد أنه سيحدث لوفرّ من أثينه . وكيف ستستقبله مدينة ميجاره Megara أو مدينة طيبه Thebae بالعدوان إذا لجأ إلى إحداهما . لأنه خارق للقوانين وهادم للدساتير . وإذا أراد أن يتفادى هاتين المدينتين فهل سيترك كلّ الدول « التي تسودها الحكومات المنظمة » وهي الصورة العليا للمجتمع الإنساني (٢٨) »

٣ ــ مرحلة التفصيل

ثم تأتي . أخيرا . بعد مرحلتي التكوين والتحديد التي مرّ بهما الفكر السياسي عند اليونان ، إلى المرحلة الثالثة من تطوّره ؛ وهي المرحلة التي لم يعد فيها المفكرون يكتفون بتلمس الهيكل أو التكوين العام للدولة أو بتحديد مقوّمات هذا التكوين العام ، وإنما أخذوا يقدمون التفاصيل العملية التي ترتبط بتطبيق مفهوم الدولة كما يتصوره كلّ منهم . وقد واكبت هذه المرحلة القرن الرابع ق . م . الذي سبق أن رأيناه يشكل فترة من التخلخل بالنسبة لنظام دولة المدينة انتهت بانهيار هذا النظام في مضمونه ، حتّى وإن بقي شكله قائما ، في الثلث الأخير من هذا القرن . وفي ضوء هذا الاعتبار كان من الطبيعي أن يقدم عدد من المفكرين اليونان على تقليب الرأي فيما يخصّ المفهوم المثالي لنظام الدولة وطريقة تنفيذ أو تطبيق هذا المفهوم على واقع المجتمع اليوناني . بعد أن أصبح الفكر السياسي الآن يشكل ضرورة عملية في محاولة (أثبت الزمن أنها محاولة يائسة) لتفادى تخلخل هذا المجتمع وإعادة الاستقرار إليه بشكل من الأشكال .

---

(٢٨) Platon : Kriton, 52 e (وما بعدها)

١ – كسينوفون ومقومات الحاكم المثالي

ومن بين المفكرين الذين أقدموا على هذه المحاولة كسينوفون Xenophon (حوالى ٤٣٠ – حوالى ٣٥٤ ق . م .) الذي رأيناه في مناسبة سابقة يشترك في ٤٠١ – ٤٠٠ ق . م في قيادة وتنظيم فرقة من الجنود المرتزقة اليونانيين قوامها عشرة آلاف جندي أثناء مسيرة طويلة من وادي الرافدين إلى البحر الأسود ثم بعد ذلك إلى بلاد اليونان في أوروبه . وقد كان كسينوفون ، إلى جانب ذلك على قدر من الثقافة دفعه إلى الاهتمام بالكتابة في عدد من الموضوعات كان من بينها كتابات في التاريخ وفي بعض المسائل السياسية أو المتعلقة بالاقتصاد السياسي . وإن كان لم يلتزم بالتعمق اللازم في بعض هذه الكتابات. وإذا كان اهتمامه بالكتابة التاريخية والسياسية قد جعلسه يبدى آراءه بشكل مباشر أو غير مباشر في المسائل المتعلقة بشكل الدولة ومقومات الحكم . إلا أن الذي أثر في هذه الآراء بشكل ظاهر هو صفتــه العسكرية في المقام الأول . فالحملة التي اشترك في تنظيم عودتها مــن وادي الرافدين كانت رحلتها شاقة (ويائسة في بعض مراحلها)، وفي أثناء الدور القيادي الذي قام به استخدم قدراته في السيطرة على الجنود عن طريق الاقناع في أثناء المواقف الصعبة التي مروا بها وعرف عــن كثب القيمة العملية لهذه القدرات . ومن هنا فليس من المستغرب أن نجده ينظر إلى مشكلة الحكم على أنها مسألة تتعلق بالقدرة على اشاعة النظام في الدولة والمحافظة عليه . أو أن نجده ينظر إلى المواطن الصالح نظرته إلى الجندي أو الرجل العسكري المنضبط . وهو يعبر عن هذه الآراء بشكل واضح في دراستين : الأولى تحت عنوان « تنشئة قورش » Kyropaedia وقد تحدث فيها عن شخصية الملك الفارسي قورش الأول مؤسس الامبراطورية الفارسية ، الذي اتخذه الكاتب مثلا أعلى

للحاكم . والدراسة الثانية تحت عنوان « نظام اللاكيدايمونيين » Lakedaemonion Politeia وفيها تحدث عن النظام السياسي لاسبرطه والتنظيم الاجتماعي والتربوي لتنشئة المواطنين الذين وجد الكاتب فيهم مثالا للمواطنين الصالحين أيام كانوا لا يزالون متمسكين بتعاليم نظامهم الذي وضعه المشرع ليكورجوس Lykourgos .

والنظام المثالي للدولة في رأى كسينوفون يقوم على قاعدة من المواطنين الذين يتبعون ، على مستوى المجتمع بأكمله ، نظاما أخلاقيا صارما ينمّي فيهم صفات الرجولة أو المروءة kalokagathia التي وصلت باسبرطه في أيامها الأولى إلى ما يمكن أن تصل إليه الدولة القوية المنظمة(٢٩) . ومن الطبيعي أن القلة فقط هم الذين سيصلون إلى تحقيق هذه الصفات : ولكن مع ذلك فالمواطنون جميعا يجب أن يتخذوا منها هدفا لهم .

على أنّ الجانب الأساسي الذي نشعر أنّه يستأثر باهتمام الكاتب هو قيادة هؤلاء المواطنين . وفي هذا الصدد فإنّه يرى أن يكون نظام الحكم فرديا تتركز فيه السلطات في يد حاكم واحد يكون له على المواطنين حقّ الطّاعة . ولكن التوصّل إلى هذا الحقّ لا يكون عن طريق استخدام القوة أو إشاعة الخوف : فالرجال ليسوا مثل قطعان الغنم التي لم يعرف عنها أنها تمرّدت أو ثارت يوما على راعيها أو حتى اعتصمت بالإضراب وامتنعت عن الرعي ، وإنما يقاد الرجال ولا يساقون . ولما كان من طبيعة هؤلاء ألاّ يستمروا على الولاء والطاعة إلى غير

---

(٢٩) Xenophon : Lakedaimonion Politeia, VIII - X

نهاية ، فإن قيادتهم والحصول على طاعتهم يتوقف على ما للحاكم من هيبة وشخصية قوية وقدرة على الإقناع .

وهناك في الواقع عدد من مقومات الشخصية القوية التي يجب أن يتمتع بها الحاكم ، كما أن هناك بعض العوامل المساعدة للحاكم حتى مع شخصيته القوية . ومن هذه المقومات العمل الجاد الدائب وتحقيق الانجازات بشكل مستمر وبخاصة في بعض الجوانب مثل الجوانب العسكرية . ومن بينها كذلك أن يكون الحاكم وطنيا وكريما وأن يأخذ نفسه بالحزم والنظام الصارم وأن يقدر مواقف الآخرين ومصالحهم ، فإن هذه الصفات من شأنها أن تجعل منه قدوة للجميع ، وبذلك يستطيع أن يستقطب ولاء المواطنين ، ومن ثم يحصل على طاعتهم . أما عن العوامل المساعدة التي من شأنها أن تساند الحاكم فهناك مظهريات الحكم التي تحيط الحاكم بهالة من الرهبة ومن ثم تسهم في تسيير الأمور بالنسبة لقيادته ولكن هذه المظهريات يجب ألا تحتل حيزا أكبر من حجمها الطبيعي الذي يجب أن يكون ثانويا بالمقارنة مع الشخصية الحقيقية للحاكم . ثم هناك مساعدو الحاكم ، وهم أهل الثقة بالنسبة له وهؤلاء تكون صفاتهم أقرب ما تكون إلى صفاته ومن ثم يصبحون « أعين الحاكم وآذانه »(٣٠)

ب ــ أفلاطون بين دولة التخصص ودولة القانون

وقد كان أفلاطون Platon ، الفيلسوف الأثيني الكبير (حوالى ٤٢٩ ــ ٣٤٧ ق . م .) ، أحد الذين قدموا تصوراتهم فيما يتعلق بمشكلة الحكم في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها . ولعله كان أغزرهم إسهاما في هذا الجانب من جوانب الفكر السياسي . والاتجاه

(٣٠) Kyropaedia : I, 1, 2, 6, 7 - 24; VII, 5, 58 - 6; VIII, 1.2.3, 1 - 14.

الذي يظهر في الحلول أو التصوّرات التي قدّمها اتجاه معاكس في مجمله للنظام الديمقراطي أو الشعبي الذي لا يجب تبنّيه إلاّ عند الضرورة الملحة ، ذلك أن الطبقة الشعبية ، في رأيه ، «تشكل أكثر الطبقات عددا وأقوى هذه الطبقات عندما تجتمع في مجلسها الشعبي . وهي على استعداد لأن تتبع زعماءها طالما قدّموا إليها قسما مما يستطيعون أن يسلبوه من أملاك الأغنياء . » ومن الوارد أن يكون أحد الأسباب التي دفعت بأفلاطون إلى هذا الاتجاه خلفيته الأسرية الأرستقراطية التي نشأ فيها أفلاطون ، ولكن مرحلة الضياع التي كان يمرّ بها المجتمع الأثيني بعد هزيمة أثينه أمام اسبرطه في نهاية الحروب البلوبونيسية كانت دون شكّ هي السبب الرئيسي الذي دعا المفكر الكبير (كما دعا غيره في الواقع من المثقفين) إلى طرح مشكلة الدولة برّمتها . ولما كان النظام الديمقراطي هو الذي كان سائدا قبل الهزيمة وبعدها (فيما عدا شهور قليلة من الحكم الأوليجركي بعد الهزيمة لا تدخل في الحساب على المستوى الجدّي) فقد كان أيّ حل مثالي لمشكلة الدولة يجب أن يتخطى العيبين أو المأخذين الرئيسيين على نظام الحكم الشعبي كما كان يطبّق في أثينه آنذاك . وأحد هذين المأخذين : هو أن هذا الحكم لم يكن يستلزم من المسؤلين أية معرفة مسبقة بالمهام التي توكل إليهم . وإنمّا كان المسرّغ أو المؤهل الوحيد المطلوب هو حقّ المواطنة : سواء في ذلك شغل وظائف الدولة أو عضوية مجلس الشورى أو مجلس الشعب . أما المأخذ الثاني فكان تغيير القوانين بشكل دائم في ظلّ المناورات التي كان يقوم بها في مجلس الشعب عدد من الزعماء الغوغائيين الذين انتشروا في أثينه في ذلك الوقت .

ومن هذا المنطلق نستطيع في الحقيقة أن نقيّم الحلول التي قدمها أفلاطون في مجال الحديث عن النظام المثالي للحكم . وهي حلول نجدها في الواقع في كثير من دراساته التي اتخذت شكل محاورات . ولكنه

ضمنها بشكل خاص ثلاثا من بين هذه المحاورات هي : الدولة المثالية Politeia أو « الجمهورية » حسب تسميتها الشائعة ، ورجل الدولة Politikos ، والقوانين Nomoi ; والمقوم الأساسي للدولة ، كما يقدّمه أفلاطون في محاورة « الدولة المثالية » التي كتبها بين عامي ٣٨٠ و ٣٧٠ ق . م . هو التخصص عن طريق التثقيف ، وهنا يحدثنا عن نظام مثالي يمرّ فيه أبناء المجتمع بعدّة مراحل من التثقيف المتدرج تصاعديا ، تبدأ منذ نعومة أظفارهم ، فالذين يتوقفون عند نهاية المرحلة الأولى يصبحون من طبقة العمال وأصحاب الحرف الذين يقومون بتوفير الضرورات المادية للمجتمع ، والذين يتخطون هذه المرحلة يمرون بمرحلة تثقيفية أخرى من يتوقف عند نهايتها يصبح ضمن المحاربين الذين يدافعون عن المجتمع ، بينما يواصل من يتخطى هذه المرحلة ، المرحلة الثانية ، دراسته لكي يصبح من مجموعة الفلاسفة أوالمثقفين المتخصصّين الذين تقع على عاتقهم شئون الحكم في الدولة ، وهم نخبة ممن يحبون المعرفة يتم إعدادهم عن طريق دراسات مفصّلة ومطوّلة تسمح بانتقاء أكثر المواطنين قدرة على المعرفة والعمل الجماعي.(٣١) وحين يعود أفلاطون لطرح المشكلة مرة أخرى في محاورة « رجل الدولة » التي كتبها بعد محاورة « الدولة المثالية » بفترة تتراوح بين ١٠ و ١٥ عاما ، نجد قدرا من التغيير في نظرته إلى المشكلة . فبعد أن كان الحكم المثالي في محاورة « الدولة المثالية » هو حكم الأقلية المتخصصة ، نجد أفلاطون يتأرجح في محاورة « رجل الدولة » بين حكم الفرد وحكم الجماعة ، وبين مبدأ التخصّص ومبدأ الخضوع للقانون . فهو يميل الآن إلى حكم الفرد المتخصص الذي يمارس تصريف أمور الدولة على هدي من تخصصه فحسب، دون أن يتقيد بمسئولية أمام

(٣١) Platon : Politeia, 375 - 465.

الشعب أو بقوانين لا يمكن خرقها أو تخطيها . فإذا لم يتوفر التخصّص تحلّ محلّه سيادة القانون ويصبح ترتيب نظم الحكم ، تنازليا ، في هذه الحال هو الحكم الفردي ثم حكم الأقلية ثم الحكم الشعبي (٣٢) .

أما في محاورة « القوانين » وهي آخر ما كتبه أفلاطون فإننا نجد تغييرا جذريا في نظرته إلى مشكلة الدولة يظهر في جانبين : فمن جهة نجده يتخلّى عن النظرة التي يفضل فيها نظاما على آخر ويميل الآن إلى تبني نظاما مختلطا تظهر فيه عناصر من النظم الثلاث (الحكم الفردي وحكم الأقلية والحكم الشعبي) ، ومن جهة أخرى نجده يعطي المكان الأول في الدولة للقانون . وفي الواقع فإنّ مقوّم « القانون » الآن يظهر في كلّ جانب من جوانب الدولة .فهناك مجلس شعبي ومجلس للشورى لغرض إصدار القوانين ، وهناك هيئة من ٣٧ عضوا لحماية القوانين . وهناك هيئة أخرى ومجلس آخر لمراجعة هذه القوانين. كذلك تظهر العناية في هذه المحاورة بالقوانين كمقوم أساسي للدولة في المجموعة الهائلة من اللوائح والبنود التفصيلية تعطيّ كلّ جانب من جوانب الحياة العامّة والخاصّة وفي اضافة مقدمة للقوانين تفيد بأن تنفيذ القوانين ينبغي أن ينطلق من مبدأ الإقناع وليس من مبدأ الأمر وحده (٣٣) .

ج — أرسطو ومقوم الطبقة المتوسطة

وأختم الحديث في هذه المرحلة التفصيلية من الفكر السياسي عند اليونان بإشارة سريعة إلى آراء أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق. م.) فيما يتعلق بالمقوم الأمثل للدولة ، فقد كان أرسطو هو آخر المفكرين العظام الذين تناولوا هذا الموضوع قبل أن ينحسر عصر دولة المدينة الذي يمثل

---

(٣٢) Platon : Politikos, 268 c - 276; 291 c - 303 d; 303 d - 305 e.

(٣٣) Platon : Nomoi, 663, 714 - 15, 716 - 18, 828 - 31, 852 - 7, 693, 701, 718 - 723, 822 - 3.

الحضارة اليونانية في جوهرها . لقد كان أرسطو تلميذا لأفلاطون ، تتلمذ عليه وعاصره في معهد اللوقيون Lykeon في أثينه لمدة عشرين عاما ، ولكنه مع ذلك كان يختلف عنه في طريقة تفكيره لأنه كان يختلف عنه في ظروفه. فبينما كان أفلاطون من أسرة أرستقراطية يأنف من رجل الشارع ويميل إلى المسائل النظرية وحياة الفكر المجرّدة، كان أرسطو ينتمي إلى أسرة متوسطة وإن كان هو وأبوه من قبله قد عملا في خدمة البيت المالك المقدوني . وكان نتيجة لانتمائه هذا يحتك بكافة الطبقات ، فقد عمل هو (كما عمل أبوه من قبله) في خدمة البيت المالك المقدوني على سبيل المثال ، ولكنه كان إلى جانب ذلك يختلط برجل الشارع ويحترم الرأي العام . أما في تدريبه الفكري أو حياته الفكرية ، فقد عكف بشكل كبير على المسائل العلمية العملية . وهكذا، بينما كانت نزعة أفلاطون تتجه نحو التفكير المثالي ، كان أرسطو عمليا في تفكره حتى حين يتناول بالبحث مسائل نظرية بطبيعتها . وهكذا إذا كان تجاهل الموجود والتفكير في نظم مثالية هو قسم أساسي من فلسفة السياسة ، فإنّ القسم الآخر المعادل في رأي أرسطو هو حسّ الممكن ، أو الإحساس بما هو واقع وموجود فعلا وتحسينه والمحافظة عليه .

وعلى هدي من هذا الاتجاه العملي عند أرسطو نستمع إلى رأيه في مشكلة الدولة والمقوم الأمثل الذي يصلح أساسا لها . وهنا يبدأ بتقسيم النظم عموما إلى ثلاثة أنواع : الحكم الفردي وحكم الأقلية والحكم الشعبي.(٣٤) وليس هناك واحد من هذه النظم الثلاث أحسن أو أصلح من غيره ، وإنما يكون كلّ منها صالحاً إذا تمت ممارسته بشكل معني

---

(٣٤) Aristoteles : Politika, III, 1279

وسيئا إذا تمت ممارسته بشكل آخر ، وهكذا تكون هناك ثلاثة أنواع صالحة من النظم تقابلها ثلاثة أنواع سيئة . على أن هذا التقسيم نظري بحت ، فالنظام الصالح أو النظام الأحسن لا يمكن أن يكون مطلقا وإنما هو ما يناسب ، من الناحية العملية ، المجتمع الذي يوضع من أجله ، سواء من حيث الظروف المادية لهذا المجتمع أو من حيث ظروفه التاريخية التي يمرّ بها . وفي ضوء هذا الاعتبار فإنّ اختيار النظام الأصلح أو الأمثل لا يكون بين واحد من النظم الثلاث المطروحة وإنما بين عديد من النظم يشكل كلاً منهـا تداخلا بنسب متفاوته بين عناصر من هذه النظم الثلاث جميعا . فقد يكون هناك نظام يجمع بين الطريقة الديمقراطية (الشعبية) في إدارة القضاء، وبين طريقة حكم الأقلية في شغل مناصبه التنفيذية وبين طريقة الحكم الفردي في جانب ثالث من جوانبه وهكذا حسبما يناسب المجتمع الذي يوجد فيه هذا النظام كما أسلفت (٣٥) . وحيث أنه لا يمكن أن نتتبع كلّ هـذه الحالات من جهة أو تحديد حالة منها على أنها أصلحها أو أحسنها بشكل قاطع من جهة أخرى ، فإن الشيء الممكن والعملي المتبقي أمامنا هو أن نحدد النظام الأحسن في عمومه (في المتوسط العام) بمعنى النظام الذي ينتظر أن يعمل ، نسبيا ، على أحسن وجه ممكن من الناحية العملية التطبيقية .

وضمن هذه الحدود النسبية العامة ، فإن النظام الذي يشكل توازنا بين العناصر الموجودة في النظم الثلاث التقليدية (الفردي والأقلية والشعبي) يكون هو خير النظم جميعا، فهو يشكل حلا وسطا بين نقيضين متطرفين ، والوسط يمثل الخير دائما على أساس أن الفضيلة (وهـي خير) تمثل وسطا بين نقيضين متطرفين كلاهما رذيلة (والرذيلة شر). (٣٦)

---

(٣٥) Ibid. : III, 1281 - 88, 1290 - 1294 b, 1317 a - 1321 a.

(٣٦) Aristoteles : Ethikon Eudemion, II, 10 : 28, III, 1:1.

والاحتمال الأكبر ، في هذه الحال ، هو أنّ النظام الطيب أو الصالح يوجد في الدولات التي تضم طبقة متوسطة كبيرة العدد ، بمعنى أن يكون عدد أفرادها أكبر من عدد الطبقتين الأخريين (الأغنياء والفقراء) مجتمعين ، أو على الأقل أكبر من كلّ من هاتين الطبقتين على حده . والسبب الذي يقدمه أرسطو لهذا الاحتمال هو أنّ الاغنياء يشيع بينهم الصلف أو التجبر وعدم الانصياع للقانون ، كما أن الفقراء يشيع بينهم الشعور بالمرارة (إزاء الطبقة الغنية) ومن ثم يميلون إلى الجريمة، أما أفراد الطبقة المتوسطة فإنهم راضون عن حياتهم عادة ، إذ أنهم لايطمعون في ثروة الأغنياء ولا يثيرون حسد الفقراء : ومن ثم فإنّ هذه الطبقة تمثل عنصر الاستقرار في الدولة وتدعو إليه وتعمل على وضع حدّ للتصرفات المتطرفة التي قد تقدم عليها الطبقتان المتناقضتان بالطبيعة ، وهما طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء . (٣٧)

وفي الواقع فإنّ هذا التصوّر الذي يدعو إليه أرسطو لم يكن غريبا عن أذهان اليونان بشكل كامل ، وإن لم يكن موضع تطبيق دائما . وفي هذا الصدد يذكر لنا المفكر الكبير أنّ ظهور طبقة متوسطة قوية في مجتمعات دول المدينة كان أمرا نادر الحدوث : وإنما كان المعتاد أن تظهر في هذه المجتمعات إمّا حكومات أقلية أو حكومات شعبية ، أمّا المثل الوحيد الذي ظهر فيه نظام يقوم على الطبقة المتوسط الكبيرة فكان في إحدى المدن اليونانية الكبيرة حين تقدم الشعب إلى أحد المشرعين مقنعين إياه أن يضع دستورا في هذا الاتجاه (٣٨) . كذلك

(٣٧) Politika : IV, 1295 a - 1296 a.

(٣٨) رغم أن ارسطو لا يحدد الدولة ولا اسم المشرّع الا ان المثال الوحيد الذي ينطبق عليه هذا الحديث لا بد ان يكون أثينة والمشرّع سولون (Aristoteles : Ath. Pol. V) راجع النظام الاثيني في الباب الخاص بأثينة واسبرطة في هذه الدراسة .

نحن نجد هذا التصوّر موجودا في بعض الكتابات الأدبية اليونانية كما هو الحال ، على سبيل المثال ، في مسرحية الصافحات Eumenides التي كتبها إيسخيلوس (في ٤٥٨ ق. م.)؛ أو في مسرحية الضارعات Hikedites التي كتبها يوريبيدس Eurypides (حوالي ٤٢٠ ق.م.)[٣٩].

على أنّ أرسطو لا يحدّد لنا إذا ما كان وجود الطبقة المتوسطة الكبيرة ، بتأثيرها القوي ، هو الذي يؤدي إلى قيام نظام أو دستور متوازن ، أو أنّ تشريع مثل هذا النظام أو الدستور هو الذي يؤدّي إلى وجود هذه الطبقة بحجمها الكبير المطلوب ،وإنما يتحدث أرسطو على أساس أنّ الأمرين متلازمين فحسب ويرى في هذا شيئا طبيعيا لا يدعو إلى التساؤل . على أيّ الأحوال فإن صفة الالتزام بالقانون التي يراها أرسطو من الخصائص التقليدية للطبقة المتوسطة تجعله على يقين من أن النظام الذي يقوم على أساس من وجود هذه الطبقة ستكون له صفة الاستقرار ، وهي الصفة التي يهدف إليها أيّ نظام . ولا يبدي أرسطو أيّ تخوف من أن تسعى الطبقة المتوسطة ، إذا أصبحت هي الطبقة الكبرى في المجتمع ، سيكون همها الوحيد هو السعي لما فيه مصلحتها فحسب كما يحدث عادة في حال الطبقتين الأخريين بل على العكس من ذلك يزعم أن الدولة التي يسودها الدستور المعتدل أو المتوازن « هي وحدها التي لا يحدث فيها انقسام ، إذ حيثما تسود الطبقة الوسطى ، يكون احتمال التناحر الطبقي والتمزق الدستوري احتمالا ضئيلا »[٤٠] .

---

(٣٩) Aeschylos : Eumenides, 526 (وما بعدها)
Euripides: Hikedites, 238 - 45
(٤٠) Politika : 1296 a.

الباب العاشر

الفــن اليونــاني

تمهيد

إذا كان لنا أن نعبّر عن شخصية الفنّ اليوناني في كلمة واحــدة، تمييزا له عن الفنّ الذي عرفته حضارات الشرق الأدنى القديم بشكل عام، فإننا نستطيع ان نقول إنّه فنّ إنساني أو فنّ دنيوي . وهذه الصفة تظلّ صادقة على هذا الفنّ حتّى وهو يعالج مواضيع متعلقة بالآلهة وبالدين. ففي هذه المواضيع ، وفي الواقع في ايّ موضوع آخر نجد الفنّ اليونــاني يتخذ الإنسان محوراً أساسيا يدور حوله ، يعنى بحاجاته ويعالج رغبــاته وتطلعاته ويصوّر أدقّ تفاصيل جسمه وحركاته ويبرز كلّ المشاعر التي يمكن أن تعتمل في صدره

ودون أن أدخل في تفاصيل تخرج بهذه الملاحظة العارضة عن هدفها الرئيسي لتحولها إلى مقارنة شاملة بين الفنّ اليوناني وفنّ الشرق الأدنى القديم أودّ أن أشير في هذا الصدد إلى مثال أو مثالين لأبيّن ما قصدت إليه. فبينما نجد أن أضخم آثار في مصر القديمة ، بنيت بهدف أساسي هو تخليد الملوك ، جسدا وروحا ، حتّى تستمر حياتهم في العالم الآخـــر ، وبينما نجد بوابة عشتار (في بابل) ، أروع آثار وادي الرافدين شيّدت

تمجيدا للالهه إنانا (عشتار) ، نجد أن أضخم الآثار اليونانية على الإطلاق هي المسارح التي رأيناها في حديث سابق تتسع لعشرين أو ثلاثين ألفا من المشاهدين الذين حولوا العمل المسرحي من مناسبة دينية من حيث الأصل والشكل ، إلى مناسبة دنيوية من حيث المحتوى والممارسة ، يتعاملون من خلالها مع الفنّ والمجتمع والسياسة والقيم السائدة والمشاكل اليومية. كذلك بينما أظهر الفنّان القديم بعض آلهة وملوك مصر ووادى الرافدين في أشكال غيبية أسطورية تختلط فيها أعضاء البشر والحيوان والطير ، كما أبرزهم في صورة فوق المستوى الإنساني ، نجد الفنّ اليوناني يظهر الآلهة اليونانية في تفاصيل بشرية لا تزيد في جمالها أو قوتّها عمّا يظهره هـذا الفنّ في تفاصيل البشر . بل إن الفنّان اليوناني أظهر هذه الآلهة أحيانـا وهي تمثل نقاط الضعف التي عرفها المجتمع اليوناني رجالا ونساء .

فإذا انتقلنا إلى جانب آخر من جوانب هذه الملاحظة نجد أنّ التماثيل التي خلفتها لنا حضارة مصر ووادي الرافدين، على سبيل المثال ، تمثل في مجموعها تماثيل رصينة تظهر عليها الجدية دائما وأن الصفة الغالبة عليها هي تلك الصفة التي تتخـذ من الإنسان رمزا لشيء آخر ، فالجسم لا تظهر فيه الليونة أو الحركة الدقيقة، والوجه لا تظهر عليه التعابير ، والملبس إمـا إزار يغطي النصف الأسفل من الجسم أو رداء كاملا يلتصق به التصاقـا كاملا مستويا ، بينما عمد الفنّان اليوناني بمجرد أن انفصل الفنّ اليوناني عن المؤثرات الخارجية ، إلى أن يجعل من تماثيله صورة حية للإنسـان في ذاته بتفاصيل جسمه وحركته وتعبيرات وجهه في أدق ما يمكن أن تبرزه هذه التفاصيل. اما عن الملبس فنجد الفنان إما يظهر الجسم عاريا عريا تاما حتى يبرز ما فيه من جمال ، أو يعتني بالملبس عناية فائقة سواء في التصاقه بالجسم حيث يكون هذا الالتصاق طبيعيا وابتعاده عنه وتهدّله حيث

يكون ذلك طبيعيا بحيث يبرز الحوار بين الجسم والرداء حتى يظهر عنصر الإنسان في إحدى حالاته .

وأخيرا ، وليس آخرا ، فحتى حين يعالج الفنان المقبرة التي تضم جثة الإنسان ، نجد الصور المنحوتة أو المرسومة على جدران المقبرة نجد الفنان المصري يجعل من صوره على جدران المقبرة الداخلية مناظر يعتقد أنها تمثل ما يحتاج إليه صاحب المقبرة في حياته الأخرى من غذاء وكساء ومسكن واحتياجات للضرورات اليومية والترفيهية . اما الفنان اليوناني فهو يبرز خارج المقبرة منظرا لوضع أو موقف كان يتمتع به أو تتمتع به صاحب المقبرة أو صاحبتها ، كأن يكون موقف بطولة أو أمومة أو رعاية زوجية أو متعة بالتأمل في شيء يحبه أو تحبه أو غير ذلك من المواقف أو الأوضاع التي تدور حول الإنسان في ذاته وليس في علاقته مع العالم الآخر والقوى المسيطرة عليه .

١ ــ تخطيط المدن والعمارة

ا ــ تخطيط المدن

ولتكن بداية حديثنا عن تخطيط المدن اليونانية . وفي هذا المجال فإن التخطيط الهندسي المنظم الذي تتقاطع فيه الطرق طولا وعرضا في زوايا قائمة وتوجد فيه الساحات بشكل منتظم عند تقاطعات الطرق الرئيسية، قد شاع في المدن اليونانية التي أسست في الممالك المتأغرقة (الهلنستية) التي قامت على أثر تقسيم امبراطورية الاسكندر في بداية القرن الثالث ق.م.ــ فإن مثل هذا التخطيط الهندسي المنظم كان شيئا نادرا في المدن اليونانية حتى نهاية العصر الكلاسيكي الذي انتهى في أواخر القرن الرابع ق.م. ، بينما كان الوضع الأساسي الشائع هو نمو تطوري غير منتظم تمتد فيه

المدينة أو تتزايد تفاصيلها الداخلية بشكل عضوي حسبما تقضي الظروف ، أو حسبما يوجد مجال لهذا النمو اتساعا أو تفصيلا .

وفي هذا الصدد فقد كانت الجدران التي تسوّر المدينة قوية ولكنها لم تتخذ شكلا هندسيا منتظما سواء أكان هذا الشكل دائريا أو مضلعا ، بل ان البوابات الموجودة في هذه الجدران لم تكن تقابل رؤوس الطرق الرئيسية في المدينة في أغلب الأحوال (كما كان الحال في مدن العصور الوسطى على سبيل المثال) . بل إن الأجوره agora ، أو ساحة المدينة التي كانت تشكل (إلى جانب وظيفتها في التعامل التجاري اليومي) العصب السياسي للمدينة حيث يجتمع المجلس التشريعي الذي يضم كل المواطنين ، نجدها في بلد مثل أثينه (التي كانت من أكبر المدن اليونانية) لا تتعدى مساحتها ١ : ٢٥ من الكيلومتر المربع ،لتبدأ حوافها بعد ذلك في نوع من الفوضى الظاهرة بسبب المباني والتماثيل والألواح التذكارية التي كان يزج بها حيثما وجد مكان لإقامتها .

أما الطرق فكانت أبعد ما تكوْن عن الاستقامة كما كانت جوانبها مثالا للازدحام غير المتناسق.ولنأخذ مثالا على هذا الطريق المقدسة التي كانت تقود إلى معبد الإله أبوللون في مدينة دلفي (قرب وسط الشاطىء الشمالي لخليج كورنثه) . لقد كانت هذه الطريق متعرجة تحف بها المباني والتماثيل التي نحتت وأقيمت تقدمة للإله في تزاحم يزداد قرنا بعد قرن ،ينهار بعضها بالتقادم ويهدم البعض الآخر حين يصبح آيلا للسقوط.[1]

---

(١) يظهر هذا الزحام بشكل واضح من وصف الكاتب اليوناني باوزانياس في كتابه « وصف بلاد اليونان » لهذه الطريق كما رآها في القرن الثاني الميلادي (Pausanias ; X, 15 ; 1) حين يتحدث عما كان يحف بها فيقول « والتمثال المذهب الذي يمثل فريني Phryne (وهي محظية شهيرة) من صنع براكسيتيليس =

على أن هذا ليس معناه أن التخطيط المنتظم لم يكن شيئاً غير معروف بالمرة عند اليونان حتى نهاية العصر الكلاسيكي ، فقد وجدت أمثلة لمدن عرفت مثل هذا التخطيط . ومثال ذلك مدينة أولينثوس Olynthos التي تقع على الشاطىء الشمالي لبحر إيجه ، فقد تعمّرت هذه المدينة في

النصف الثاني من القرن الخامس ق.م. على أساس من تخطيط هندسي منتظم . ولكن مثل هذه المدن كانت تشكل امثلة نادرة . كذلك فإن بعض المستوطنات اليونانية ، بخارج بلاد اليونان الأصلية ، كانت تتبع هذا التخطيط المنظم مثل مدينة سميرنه Smyrna (أزمير الحالية على الشاطىء الغربي لآسيه الصغرى) ومثل بعض المستوطنات اليونانية في القسم الغربي للبحر المتوسط . ولكن هذا لم يكن يمثل الاتجاه السائد في المدن اليونانية ، من جهة ، ومن جهة أخرى فإننا لا نستطيع أن نتخذ منه نموذجا لنمو المدينة اليونانية ، فالمستوطنة الصغيرة التي كان يقيمها اليونان بالضرورة على أرض بكر خالية كان من السهل أن يتجهوا في تخطيطهم لها إلى النظام الهندسي . هذا وقد وجد من بين المهندسين اليونان الذين ينتمون إلى العصر الكلاسيكي من تبنى فكرة التخطيط الهندسي بشكل واضح ، مثل هبوداموس Hippodamos (من مواطني ميليتوس على الشاطىء الغربي لآسيه الصغرى) الذي ظهر في أواسط القرن الخامس ق.م.

= Praxyteles (مثال شهير من القرن الرابع ق. م.) وقد كان هذا التمثال تقدمة الى الاله ابوللون من فريني نفسها . وبعد ذلك تمثالان للاله ابوللون ، أحدهما قدّمه اهل مدينة ايبداوروس Epidauros التي تقع في منطقة أرجوس مما حصلوا عليه من غنائم فارسية (يقصد اثناء الحروب الفارسية) والآخر مقدم من مدينة ميجاره Megara تخليدا لانتصارهم قرب نيسايه Nisaea على مدينة اثينة . و (تمثال) الثور قدّمه اهل مدينة بلاتايه Plataea في المناسبة التي انتصروا فيها مع بقية اليونان على (القائد الفارسي) ماردونيوس Mardonios بن جوبرياس Gobryas ، ثم هناك بعد ذلك تمثالان آخران للاله ابوللون ... ".

وقد أعطى هذا المهندس الفرصة لكي يطبق تصوره التخطيطي الهندسي في ميناء بيرايوس Piraeos (أهم موانيء أثينه) ، وربما في أماكن أخرى كذلك . ولكن ما أنجزه هيوداموس كان شيئا قليلا ، كما كان شيئا جديدا على التصوّر اليوناني الذي ألفه اليونان وتعايشوا معه فيما يخصّ تخطيط المدن ، وهو تخطيط ظل بعيدا عن التنظيم الهندسي المحدّد في عمومه حتى نهاية العصر الكلاسيكي وقيام العصر المتأغرق .

وفي الحديث عن سبب هذا الاتجاه العام الذي سار فيه نمو المدن اليونانية والذي ابتعد فيه بشكل ملحوظ عن التخطيط الهندسي المنظم يذكر لنا أرسطو أنّ هذا السبب كان عسكريا . فالتعرجات والتداخلات التي كانت السمة الواضحة لطرق المدينة كانت في رأيه تجعل الامر يختلط على الغزاة ، سواء في اقتحامهم للمدينة عند قدومهم أو في محاولة الخروج منها إذا اضطروا إلى ذلك [٢] . وربما كان هذا التفسير واردا في حالة بوابات جدران المدينة التي أسلفت أنها لم تكن تواجه رؤوس الطرقات الرئيسية داخلها على أساس أن إقامة جدران المدينة أمر دفاعي في المقام الأول ومن ثمّ فإن تحديد مكان البوابات في هذه الجدران يدخل تحت هذه الصفة.على أني أتصوّر أن رأى أرسطو فيما يخص عدم التخطيط الهندسي المنظم للمدينة اليونانية أقرب لمحاولة التنظير لممارسة كانت قائمة فعلا ، منه إلى إعطاء سبب أقدم عليه اليونان بإرادتهم لينتهي شكل المدينة اليونانية إلى ما انتهى إليه .

وفي رأيي أن السبب الطبيعي والمنطقي لعدم وجود تخطيط هندسي منظم لهذه المدن حتى نهاية العصر الكلاسيكي يكمن في أمرين: أحدهما يتعلق بظهور دول المدينة ، وقد رأينا في حديث سابق أنّ كلّ مدينة

---

(٢) Aristoteles : Politika; 1330 B.

كانت في اصلها مجموعة قبائل وتجمعات سكانية كلّ منها منفصل عن الآخر قبل أن يتحدوا ليصبحوا كيانا سياسيا واحدا اتخذ شكل المدينـــة الدولة ، وفي هذه الحال فالتصوّر الوحيد الوارد هو أن كلّ قبيلـــة أو تجمع سكاني كانت له طرقاته الخاصّة به دون أن يكون هناك أيّ تنسيق مع القبائل والتجمعات السكانية الأخرى، ومن ثم فإن قيام المدينة لكيان سياسي موحدّ كان في حقيقته ربطا بين مجموعة من الوحدات المختلفة التخطيط ، وبقي على ذلك في خطوطه العامّة حتى في أثناء اتساع المدينة . والأمر الثاني هو أن أرض بلاد اليونان ليست أرضا سوية سهلة وإنمـــا أرض وعرة في الأغلبية الساحقة من مناطقها . وهذه الوعورة هي الـــتي تحدّد ، بالضرورة : المسارات التي تمثّل الطرق، ومن ثم جاءت هـــذه المسارات أو الطرق غير مستقيمة ، فقد كانت تتبع حدود التكوينـــات الصخرية المتعرجة بطبيعتها. وقد كان هذا على عكس ما حدث في مـــدن العصر المتأغرق التي كانت لها ظروف موانية لم تتوفّر للمدن اليونانية قبل ذلك العصر . فمن جهة أنشئت كلّ مدينة من مدن العصر المتأغرق كوحدة متكاملة من البداية ومن ثم كان المجال مفتوحا للتخطيط الهندسي . ومن جهة أخرى أن هذه المدن أسست في ممالك جديدة غنية وقام عـــلى تأسيسها ملوك في يدهم كلّ إمكانيات التخطيط التي تتيحها السلطة المركزية التي أصبحت سمة العصر . ومن جهة ثالثة فقد كان التنافس على أشده بين هؤلاء الملوك في كلّ شيء ، بما في ذلك تخطيط المدن بوجه خاص، وهكذا كان من الأمور الطبيعية أن يصل التخطيط المنظم إلى أقصى درجة ممكنة ، وأخيرا وليس آخرا فإن فكرة هذا التخطيط الهندسي التي نادى بها هيوداموس في أواسط القرن الخامس ، والتي كانـــت لا تزال « جديدة » على العالم اليوناني ، كما يحدثنا أرسطو [٣] ، في

(٣) راجع الحاشية السابقة

أواسط القرن الرابع ، كانت تخطت مرحلة الاستيعاب عندما جـاء العصر المتأغرق .

ب ـ العمارة

هذا عن تخطيط المدن في بلاد اليونان حتى نهاية العصر الكلاسيكي وقد رأيناه يتطور تطورا عفويا في اتجاهه الأساسي . فإذا انتقلنـا إلى المعمار أو فنّ العماره ، وجدنا الأمر على عكس ذلك فقد كان هذا الفنّ مجالا ظهر فيه التخطيط والتنظيم والإبداع إلى حدّ كبير بحيـث اكتسب شخصيته الخاصّة المتطوّرة بمجرّد أن استوعب مرحلته الأولى التي تتامذ فيها على يد حضارات الشرق الأدنى القديم . وأودّ أن أبادر هنا لأذكر أن الذي اقصده في مجال هذا الحديث هو المباني أو المنشآت العامّة فحسب ، أما المباني الخاصّة ، مثل المنازل ، فقد كانت تبنى في أغلب الأحوال من مواد بداثية هي الخشب واللبن (قوالب الطين المجفف ولم يكن مجالها يتسع لطرز فنية تعرف التطوّر وتسعى نحو الإبداع ، وهو أمر يبدو أنه بقي على ما كان عليه حتى فترة متأخرة ، إذ نجد أشارة إليه في كتابات المؤرخ بلوتارخوس Plutarchos في نهاية القرن الأول الميلادي (٤) ، بل إنّ الزائر لبعض الجزر اليونانية الموجودة في بحـر إيجه يجد أن هذه الطريقة لا تزال متبعة في بناء بعض المنازل حتى الآن كما في جزيرة ميكونوس على سبيل المثال (٥) .

وقد بدأ استخدام الحجر في بناء القصور والمباني العامة منذ العصر

---

(٤) الاشارة موجودة في :

Cary, M. and Haarhoff, T.J. ; Life and Thought in the Greek and Roman World (London, New york, 1961), p. 219

(٥) مشاهدة شخصية للباحث .

المبكّر . ففي مدينة ميكيني (شمال شرقي شبه جزيرة البلوبونيسوس) مثلا لا نزال نرى بوابة الأسود (القرن ١٣ ق.م.) وبقايا القصر الملكي والمبني المعروف باسم خزينة أجاممنون قائمة حتّى الآن ، كما لا تزال آثار قصر نسطور في مدينة بيلوس (جنوبي شبه الجزيرة) قائمة كذلك ، وكلّها من الحجر وكلّها تعود إلى حضارة العصر الميكيني . كما نسمع عن قصور أخرى في ملحمة الأوديسية المنسوبة إلى هوميروس يشير الشاعر إلى عظمتها بأوصاف مثل « الذي بني بمهارة » أو « ذي الأسقف المرتفعة » (٦) وهي أوصاف لم يكن الشاعر ليخصص الإشارة إليها لو كانت مبنية من الخشب والطين كبقية المباني العادية . ومعروف أن الأوديسية تغطيّ أشعارها فترة تمتد بين الربع الأول من القرن الثاني عشر إلى أواسط القرن التاسع ق.م. وعلى أيّ الأحوال فإذا كانت المنشآت العامة التي بنيت بالحجر لا تظهر آثارها لفترة بعد نهاية العصر الميكني (١١٠٠ق.م.) ربما نتيجة للغزو الدّوري الذي اجتاح بلاد اليونان طوال القرن الحادى عشر وما قد يكون صحب ذلك من دمار أوعدم استقرار ؛ فاننا نعود لنرى الاتجاه بشكل مطرد منذ القرن الثامن ق.م. وإن كانت بداياته متردّده ، كما يظهر من معبد الالهة هيره Hera في مدينة أوليمبيه (شمال غربي البلوبونيسوس) الذي يرجع إلى القرن السابع ق.م. والذي يدخل في بنائه الخشب والحجر غير المشذب. فإذا وصلنا إلى بدايات القرن السادس ق.م. وجدنا ان الاتجاه قد استقر وظهر استخدام القطع الحجرية الكبيرة المشذبة في المباني العامّة. كما

---

(٦) Homeros ; Odysseia, VII, 81,85 . واذا كان هوميروس يصف ثاني هذين القصرين بأن جدران غرفه مصنوعة من البرونز وعتبته مصنوعة من الفضة ... الخ ، فان الوصف الذي كان يقدمه الشاعر في هذه الحالة كان لملك يحكم جزيرة تصوّر الشاعر وجودها ، ومن لم يكون هذا الوصف مجرد دليل على ما يمكن ان تبلغه عظمة البناء ــ وهو أمر يفترض وجود ابنية على مستوى مرتفع من الاتقان .

هو الحال في معبد الإله أبوللون في كورنثه الذي يرجع إلى أواسط هذا القرن .

وقد دفعت هذه الظاهرة ، وهي ارتباط بداية استعمال الكتل الحجرية الكبيرة المشذبة بالقرن السادس في العمارة اليونانية بالقرن السادس ، دفعت هذه الظاهرة بعض مؤرخي الحضارة اليونانية إلى القول بأن اليونان تعلموا هذا النوع من فنّ العمارة في مصر وهو أمر قد يكون وارداً إذا أدخلنا في اعتبارنا أن جاليات يونانية كانت تقيم في مصر في هذه الفترة في مدينة نقراطيس (نقراش الحالية) Naukrates في شمالي مصر وبخاصة في عهد الملك المصري بسمتيك الثاني (٥٩٣ــ ٥٨٨) الذي شجعهم على الإقامة في مصر للاستعانة بهم كجنود مرتزقة . كما قد يكون الأمر تطوّرا محليا طبيعيا في بلاد اليونان الغنية بالثروة الحجرية . وسواء أكان هذا أو ذاك فإنّ الأمر الثابت هو أن اليونان نقلوا أساس فنهّم المعمارى من مصر . فقد اتبعوا بشكل يكاد يكون تاما النظام المعماري المصري في استخدام نظام القوائم (التي تحلّ محلّ الجدران لحمل السقف في بعض أجزاء المبنى) ونظام العارضات (العارضة هي الحجر المستعرض فوق فتحة الباب لتحمل ثقل البناء الذي يقوم فوق هذه الفتحه) وكلا النظامين امتاز به فنّ العمارة المصري منذ عصر بناة الأهرام (الألف الثالثة ق . م.) كما كرّسوا هذا النقل حين اتخذت القوائم عندهم شكل الأعمدة كعنصر أساسي في المبنى ، وهو عنصر تميزت به العمارة المصرية على مدى التاريخ المصري القديم .

على أن الفنّ المعماري اليوناني اختلف عن نظيره في مصر في عدد من الجوانب . فالمباني اليونانية العامّة لم تتبع الأبعاد الشاسعة الضخمة التي تظهر في المباني العامة في مصر، كما يظهر مثلا من مقارنة معبد الكرنك

في الأقصر (في صعيد مصر) ومعبد البارثينون (في أثينه) . كما أنها لم تتبع التخطيط المصري المركب الكثير التفصيل . وأحد أسباب ذلك ، في حالة المعابد التي تشكل القسم الأغلب من المباني العامة المتبقية على الأقل ، أن المعابد في بلاد اليونان لم تكن تخدم نفس الغرض الذي كانت تخدمه المعابد المصرية . ففي مصر كانت المعابد مكانا للعبادة يجب أن يتسع لأعداد كبيرة من المتعبدين للإله ، كما كان الارتفاع الشاهق مطلوب من الناحية النفسية ليوحي لهؤلاء المتعبدين أثناء صلواتهم بعظمة الإله وغموضه والفرق الشاسع بينه وبينهم . أما عند اليونان فإن المعابد لم تكن تتم بداخلها صلوات المتعبدين ، وإنما كان المعبد بكل بساطة بيتا للإله أو الإلهة ينظر إليه أبناء المدينة من الخارج فحسب (بينمايؤدون صلواتهم ويمارسون طقوسهم في أماكن أخرى) ومن هنا كان الأمر الوارد هو أن يكون حجم المعبد صغيرا نسبيا حتى يستطيع الناظر إليهأن يستوعب أبعاده في بساطة مباشرة . كذلك اتجه اليونان في استخدام الأعمدة لتخدم هدفا عمليا محضا ؛ فالعامود كان لايخدم أكثر من الهدف من إقامته . بمعنى أن حجمه كان يقف عند الحد الذي يجعله كافيا لتحمل الثقل الذي يجب من الناحية المعمارية ، أن يتحمله ، دون أن يزيد هذا الحجم أو أن يزيد عدد الأعمدة ليتخطى تحمل الثقل المقام عليها لأي اعتبار آخر .

وقد أسلفت أن أهم الآثار المعمارية اليونانية وأكثرها هي المعابد. وفي هذه المعابد ظهرت شخصية الفن المعماري اليوناني من حيث الإضافات الجديدة التي زادتها على التأثير المصري . وهذه الإضافات نتجمع في الواجهة الأمامية للمعبد والتي كان يظهر فيها ، فوق المستطيل الأملس architrave الذي يرتكز مباشرة على رؤوس الأعمدة ، مستطيل آخر ينقسم إلى مربعات metopoi تفصل بين كل منها ثلاثة

خطوط مستقيمة triglyphai منحوته في الحجر ، ثم يعلو هـــذا المستطيل ليتوج المعبد كلّه مثلث pediment زاوية الرأس فيه شديدة الانفراج وزاويتا القاعدة شديدتا الحدّة . وقد كانت هذه الواجهة هي العلامة المميزة التي أصبحت علما على الفنّ المعماري اليوناني ليس من حيث شكلها الخارجي فحسب ، وإنما من حيث المناظر التي كانت تنفّذ بالنحت البارز أو المستدير (المجسدّ)في المربعات وفي مثلث الواجهة (الجمالون) ،وهي مناظر كانت تستوحي في كثير من الأحيان أساطير اليونان ومعتقداتهم وأعيادهم . ويبدو واضحا أن الواجهة ، أو على الأقل المثلث الذي يتوجها من أصل يوناني إذا نظرنا إليه على أنه تطوّر من واجهة بدائية تعلو « بوّابة الأسود » في مدينة ميكيني فوق عارضة الباب مباشرة (القرن ١٣ ق.م.)، وإن كانت هذه الأخيرة لا تعلو الجدار كلّه وإنما تعلو الباب فحسب . كما أنها لا تقف كنهاية في حدّ ذاتها للجدار وإنما كحلية ضمن امتداد الجدار حتى يصل إلى نهايته العلوية مع رأس المثلث ، كما أن الزوايا الثلاثة للمثلث متساوية على خلاف ما تطوّرت إليه بعـــد ذلك . ولكنها مع ذلك تقدم المعطيات الأولية لنظام الواجهة اليونانية كما يبدو فيها عنصر أساسي من عناصر الواجهة وهو النحت البارز الـــذي يعلوها والذي يمثل أسدين متقابلين يحرسان عامودا يقوم بينهما .

وقد كان العنصر البارز في المعبد اليوناني هو الأعمدة . فهذه المعابد كان يتقدّم الجدار الأمامي لكل منها مدخل مفتوح مسقوف portico يرتكز على عدد من الاعمدة ، كما كان يدور حول جدرانها في أغلب الأحوال صف من الأعمدة colonnade ، ومن هنا فقد كان الطراز الذي تتبعه هذه الأعمده يشكل الملمح الأساسي للمعبد . وفي هذاالصدد كانت هناك ثلاث طرز للأعمدة : الطراز الأول هو الطراز الدوري الذي ينتهي فيه أعلى العامود برأس مربع لا زخرف فيه ، وقد كان

أقدم الطرز التي ظهرت في المعابد اليونانية . ورغم التشابه الواضح الذي يصل إلى درجة التطابق مع طراز الأعمدة التي تشكل المدخل إلى هرم الملك المصري زوسر في سقارة (قرب الجيزة في مصر) فإنّ عددا من مؤرخي الحضارة اليونانية يرون أنّه ربما كان تطورا من أصل يوناني محلّي ، وهو أمر وارد إذا أدخلنا في اعتبارنا أن هذا الطراز هو أبسط الطرز . والطراز الثاني هو الطراز الأيوني الذي يمتدّ فيه رأس العامود من الناحيتين في شكل التواء نهايته ملتفّة بقدر متساوٍ من كلّ من الناحيتين. أما النوع الثالث فهو الطراز الكورنثي الذي يتحلى فيه رأس العامود بنحت مفصل من أوراق نبات الأكانثوس Akanthos (نبات شائك) وهذا الطراز هو تطوّر مباشر من الأعمدة المصرية التي يحلّي رؤوسها نحت مفصل لسعف النخيل .

وتبقى في نهاية الحديث عن العمارة اليونانية ملحوظة عن الشكل العام الذي اتخذته المباني العامة عند اليونان . لقد كانت في أغلبيتها الساحقة مستطيلة الشكل . ولكن مع ذلك فقد كانت هناك أمثلة من البناء الدائري في بعض المعابد الصغيرة مثل المحراب الصغير tholos الموجود في مدينة دلفي على المدرّج (الجبَل) الأسفل المعروف باسم مرمريه Marmaria قبل الصعود إلى معبد الإله أبوللّون ، ومثل محراب آخر موجود في معبد الإله أسكليبيوس Asklepios في مدينة ابيداوروس Epidaurus (في شبه جزيرة البلوبونيسوس) . على أنّ أبرز أنواع العمارة اليونانية المستديرة هي دون شكّ المسارح التي رأيناها في أكثر من مناسبة سابقة تتسع لأعداد غفيرة من المشاهدين تزيد في بعض الأحيان عن ثلاثين ألف مشاهد ، ومن بين أكبرها مسرح ابيداوروس الذي يتسع لأربعة وعشرين ألف مشاهد ومسرح إفسوس Ephesos ومسرح أسبندوس Aspendos (المدينتان على ساحل آسيه الصغرى) اللذين يتسع أولهما

لخمسة وعشرين ألف مشاهد والثاني لاثنين وثلاثين ألف مشاهد على التوالى .

٢ ـ النحت

قبل الحديث عن فنّ النحت عند اليونان أودّ أن أذكر أنّ قدرا كبيرا من التماثيل اليونانية التي نعرف عنها من كتابات المؤرخين اليونان والرومان الذين تعرّضوا لذكرها أو لوصفها في هذه الكتابات، لم تصل إلينا، فإلى جانب ماالندثر منها بفعل الزمن، سواء في ذلك التماثيل الحجرية أو البرونزية ، كانت هناك مسألة التماثيل البرونزية بالذات التي كان لا يمكن أن تظلّ قائمة في بعض أوقات الضائقة الاقتصادية التي كانت تغري بتجاهل القيمة الفنية وبصهر هذه التماثيل للانتفاع بمعدنها ربما لسك النقود أو لأغراض اقتصادية أخرى . كذلك فإنّ قدرا كبيرا من التماثيل التي بقيت فعلا حتّى كشفها المنقبون الأثريون في العصر الحديث هي نسخ رومانية للأصول اليونانية التي اندثرت ، فقد كان الرومان ، حتى في أوج سيطرتهم السياسية والعسكرية حين امتدّ توسعهم ليشمل كلّ حوض البحر المتوسط وبعض المناطق التي تليه ، يتطلعون إلى الحضارة اليونانية في كلّ أبعادها ويتخذون منها مثلا أعلى لهم [٧] . وقد كان أحد المظاهر التي اتخذتها هذا التطلع هو أنّ الفنانين الرومان قاموا ، لأسباب مختلفة ، بنحت نسخ من عديد من التماثيل اليونانية .

ويطرح هذا الوضع أمام المهتم بتاريخ الفنّ اليوناني مشكلتين : إحداهما أن عددا من هذه النسخ الرومانية لا تصل في جودتها إلى مستوى

---

(٧) كان من بين الأمور المحببة الى الاباطرة الرومان ، على سبيل المثال ، أن يطلبوا نحت تماثيل لهم وللمقربين منهم على هيئة آلهة وأبطال يونانيين .

المهارة اليونانية ومن ثمّ تفقدشيئا قليلا أو كثيرا (حسب مهارة الناسخ) من الحيوية الأصلية في التمثال . على أنّ هذه المشكلة ليست هي العقبة الأساسية ، فإن عددا غير قليل من هذه النسخ يظهر قدرا كبيرا من المهارة ، وعلى أيّ حال فإنّ الاتجاه والمضمون الأساسيان يبقيان لنا . اما المشكلة التي تشكل عقبة حقيقية فهي أنّ اتجاه الرومان نحو عمل نسخ من التماثيل اليونانية كان يخضع بالضرورة للذوق السائد في المجتمع الروماني في الفترة التي يتم فيها عمل هذه النسخ ، ومن ثمّ كان هذا الذوق بالضرورة انتقائيا .

وإذا كان هذا في حدّ ذاته لا يشكّل خسارة كبيرة إذا كان أحد الاتجاهات الفنية ممثلا في التماثيل المنسوخة مهما كان عددهاقليلا ، إلاّ أنّ الأمر تخطىّ هذا في بعض الأحيان حين تجاهل الناسخ الروماني تماثيل تمثل اتجاها بأكمله . ومن بين هذه الاتجاهات،على سبيل المثال ، الاتجاه الذي يظهر في ثلاثة تماثيل نحتهما الفنان الأثيني فيدياس Pheidias اثنان منها للإلهة أثينه والثالث للإله زيوس (كان الأولان فيمعبد البارثينون وإلى جانبه في مدينة أثينه وكان الثاني قائما في مدينة أوليمبيه) وقد كانت هذه التماثيل كما نعرف عنها من الكتاب الكلاسيكيين أومن تصوير لها على العجله من النوع الذي عرف باسم « التماثيل الذهبية العاجية » Chryselephantine لأنهما كانا مكسوّين بالذهب والعاج . على أن أهمية الاتجاه الذي يمثله هذا الاتجاه لا تكمن فيالغطاء الذهبي العاجي للتماثيل ، وإنما في ضخامتهما المبالغ فيها التي تعطينا بعدا لا توضحه تماثيل الآلهة اليونانية التي وصلت إلينا . وهذا البعد يمثل استثناء من الاتجاه الفنّي اليوناني الذي كان يتفادى الضخامة التي تتخطى الواقعية إلى المظهرية ، بقدر ما يمثل لمحة من اتجاه حاول فيه الفنان أن يبيّن مدى تعظيم هذه الإلهة وهذا الإله عن طريق تضخيمها بحيث

يصبح تبيّن ملامحهما بالنسبة للشخص العادي أمرا لايمكن تبينه بسهولة مما يضفي عليها هالة من الغموض الذي رأي الفنان أن يعبّر من خلاله عن تعالي القوى الإلهية .

ولكن مع وجود هاتين المشكلتين اللتين تعترضان المهتم بالتأريخ للفنّ اليوناني ، فإنّ ما وصل إلينا من النحت اليوناني ، سواء في ذلك النحت البارز على واجهات المعابد ، أو النحت المستدير (المجسد) أو التماثيل القائمة وحدها يجعل في مقدورنا أن نتعرف على الملامح الرئيسية لهذا الفنّ من جهة ، وأن نتتبع مراحل تطوّره من الجهة الأخرى . وفيما يخص ملامح فنّ النحت اليوناني فإنّ أولها هو العري الذي يميّزه عن نظيره في حضارات الشرق الأدنى القديم ، بحيث يمكننا أن نقول إن التماثيل العارية هي صفة اختصّ بها الفنّ اليوناني دون غيره. وقد كان هذا في الواقع انعكاساً للعادات والممارسات اليونانية منذ العصر المبكر حين كان المتبارون في الألعاب الرياضية يقومون بمبارياتهم هذه في حالة عري تامّ ، وهو أمر يشير إليه المؤرخ ثوكيديديس وغيره من المؤرخين الكلاسيكيين على أنّه يميّز بين اليونان وغير اليونانيين .(٨) وقد استمرت ممارسة الحياة الرياضية في حالة العرى بعد ذلك سواء في المباريات التي كانت تقام في الأعياد الدينية أو في أثناء التدريب في الملعب gymnaseon الذي كان يشكل عنصرا أساسيا في كلّ مدينة يونانية .

ولكن مع ذلك فقد كانت هناك بعض الحدود التي التزم بها النحت في تمثيله للأشخاص في عريهم . فقد ظلّ النحت العاري (ولنسمّه

---

(٨) الاشارة في :

Finley, M.I. : The Ancient Greeks (Pelican ed., 1966) p. 163

بهذا الإسم لسهولة التعبير) قاصرا على أشخاص الذكور لفترة امتدت أكثر من قرن كامل منذ بدأ هذا الفنّ في الظهور ، ولم يظهر نحت لامرأة عارية الا ّ في القرن الخامس ق.م. وحتى حين حدث ذلك نجد أنّه كان يتم غالبا في شيء من التحفظ الذي لا يظهر جسم المرأة بكلّ تفاصيله . والشيء ذاته اتبعه اليونان في نحتهم لأشخاص الآلهة . فالآلهة الذكور تظهر عارية كأمر معتاد ، أما الإلهات فكنّ يظهرن في رداء إلا ّ في حالة الإلهة أفروديتي التي كانت الهة الحبّ (بما في ذلك الحبّ الحسي) ومن ثم كان نحت تماثيلها في حالة العري أمرا وارداً .

والصفة الثانية أو الملمح الثاني الذي تميّز به فنّ النحت اليوناني هو التعبير الصريح في تصوير الواقع اليوناني دون أن يحاول الفنّان حتى الاختباء وراء الرمز في تصوير ما يراه أو ما يعتقده المجتمع حتى إذا كان ذلك يشير إلى انحراف مثل ميل الرجال إلى الصّبية الذي كان معروفا في المجتمع اليوناني.ولعلّ خير ما يمثل هذا المعنى هو تمثال الإله زيوس Zeus كبير الآلهة اليونان الذي اشتهر بنزواته ، وقد حمل الصبيّ جانيميديس Ganymedes ليتخذ منه ساقياً له على جبل الأوليمبوس (الذي تصوّر اليونان قمته مقرّا لآلهتم) ، وفي تكوين التمثال نجد الصبيّ يحمل ديكاً ، وهو الهدية التقليدية التي كانت تقدّم للصبيّ المحبوب عند اليونان .

ثم يأتي الملمح الثالث وهو تداخل فنّ النحت مع فنّ العمارة ليصل الأمر في بعض الأحيان إلى تكامل تام بين الفنين . وفي هذا الصدد نجد الفنّانين اليونان يملأون المساحات التي توجد في مثلث الواجهة الخارجية (الجمالون) في المعبد وفي المربعات التي تنقسم إليها العارضة المستطيلة التي تليه إلى أسفل، والعارضة الداخلية(الإفريز) frieze التي ترتكز على الأعمده

التي تتقدم جدار المعبد مباشرة ، يملأون كلّ هذه المساحات (وغيرها في بعض الأحيان) بنحت بارز أو شبه مستدير يمثل أعياد اليونانيين وأساطيرهم وآلهتهم وأبطالهم وقصصهم . وهكذا بينما بقي الطراز المعماري للمعابد والأبنية العامّة ثابتا في عمومه نجد أن هذا النوع من النحت يمثل تطوّرا مستمرا يعكس التطوّر المستمر في مفاهيم المجتمع اليوناني وتصوراته ومن ثم يبرز لنا عنصر الاستمرارية في هذا المجتمع .

هذا عن الملامح الرئيسية لفنّ النحت عند اليونان ، أما عن تطوّر هذا الفنّ فيمكن أن نتتبعه خلال ثلاث مراحل تبدأ أولاها مع بداية القرن السادس ق.م. أو قبل ذلك بقليل ويمكن أن نضع نهاية لها مع انتهاء الحروب الفارسية اليونانية في بداية العقد الثاني من القرن الخامس ق.م. وفي هذه المرحلة نجد التماثيل اليونانية تتبع نمط النحت المصري بشكل تامّ : الوقفة لا ليونة فيها، الوجه جادّ ،النظرة متجهة بشكل محدد إلى الأمام ، الذراعان ملتصقتان إلى الجانبين ، الكفان منقبضتان ، القدم اليسرى متقدمة على القدم اليمنى ،والاختلاف الوحيد هو أن التمثال اليوناني يظهر عاريا بينما يظهر التمثال المصري وحول وسطه مئزر لتغطية ما لا يحسن إظهاره من جسم الرجل .

ومع ذلك فنحن نلاحظ في حدود الخطوط الأساسية لهذا التأثير المصري الذي بقي واضحا طوال هذه الفترة ،أن الفنّان اليوناني حاول أن يتحلّل بعض الشيء من الجدية الزائدة أو الصرامة التي تميز التماثيل المصرية في نظرتها أو في وقفتها،ونحن نشهد ذلك في بعض تماثيل الشبان kouroi التي تنتمي إلى أواسط القرن السادس ق.م. حيث نجد شيئا من الليونة يبدأ في الظهور على وجه التمثال في محاولة لابراز ابتسامة خفيفة على وجه التمثال حتى إذا تعثرت هذه المحاولة في بعض الأحيان وجاءت الابتسامة مفتعلة بعض الشيء ، فإذا قاربنا نهاية هذه الفترة نجد

الليونة تظهر أوضح بعض الشيء مما وصلت إليه في أواسط القرن الخامس . فالنظرة على الوجه تبدو طبيعية أكثر ، والليونة تمتد إلى الجسم فتظهر في الوقفة التي لا تصبح الآن محمّلة بشكل كامل على ركبتين مشدودتين وإنما يبدو فيها شيء من الاسترخاء الطفيف ، وهو أمر نلاحظه في التماثيل التي ترجع إلى الفترة السابقة مباشرة لنهاية الحروب الفارسية اليونانية . ولكن مع ذلك فإنّ هذا التحلّل المبدئي من الصلابة أو الحدية الزائدة في التماثيل لم يكن يعني أن فنّ النحت اليوناني في هذه المرحلة الأولى من مراحله قد تحوّل عن الاتجاه الذي يعكس فيه الفنّان وضعا نمطيا لشخص اليوناني بوجه عام، وليس وضعا فرديا يبرز حركة بعينها أو انفعالا بعينه أو حتى شخصا بعينه .

وأودّ هنا أن أتوقف لحظة عند هذا الجانب الأخير من الوضع النمطي المثالي الذي ذكرت أنه لا يبرز شخصا بعينه لأبيّن ما أعنيه بهذا التعبير . فقد عثر المنقبون عن عدد من تماثيل الشباب بعضها يمكن التعرف على اسماء أصحابها ، إذا كان هناك نقش على قاعدة التمثال يبين اسم صاحبه على سبيل المثال ، أو كان التمثال جنائزيا بحيث يمكن هذا الظرف من التعرف على هذا الاسم بصورة أو بأخرى . ولكن من غير المعقول أن يكون أصحاب هذه التماثيل جميعا لهم نفس نسب الجسم طولا وعرضا ولهم نفس تكوين الجسم (وهو تكوين مثالي) ونفس ملامح الوجه أو أن يكونوا جميعا يمرّون بنفس المرحلة من العمر (وهي مرحلة الشباب المبكرّ) أو ألاّ يكون في جسم أو وجه أيّ منهم علامة فارقة أو شخصية واحدة تميزه عن غيره . وهكذا نستطيع أن نقول إنّ هذه التماثيل جميعا تمثلّ نمطا مثاليا ولا تمثل أشخاصا بعينهم حتى في حالة التماثيل التي نستطيع أن نتعرف على أسماء أصحابها .

وفي الواقع فإنّ هذا الاتجاه المثالي النمطي ظلّ مستمرا في المرحلة

الثانية التي مرّ بها فنّ النحت اليوناني في أثناء تطوّره، وهي المرحلة التي تمتد من نهاية الحروب الفارسية اليونانية (٤٨٠ ق.م.) حتى نهاية القرن الخامس ق.م. وإن كان النحات اليوناني قد استطاع أن يتحرّر من جانب من جوانبها . فقد بقيت النمطية المثالية في هذه المرحلة ظاهرة في جانبين هما : الابتعاد عن إبراز شخص بعينه أو انفعال بعينه ، ولكن الجانب الثالث من هذه النمطية ، وهو الابتعاد عن إبراز حركة بعينها لم يعد موجودا الآن . وفي هذا الصدد نجد فنّان القرن الخامس يسبرز حركة الجسم في أوسع مجالاتها ، وإن كنت أبادر هنا فأقول إنّ هذه الحركة، رغم تعدد جوانبها ، اتجهت نحو الجانب الرياضي بشكل ظاهر. وهكذا ظهر القسم الأكبر من أعمال الفنانين اليونان في هذه المرحلة ، سواء في التماثيل أو في النحت المستدير (المجسد) أو في النحت البارز ، وهو يبرز تفاصيل الجسم الرياضي بشكل واضح كما يبرز الأوضاع المختلفة التي تلازم أنواع الرياضة المختلفة ، سواء أكانت هذه رمي قرص أو رمي رمح أو فروسية أو غيرها .

ويجدر بنا هنا أن نقدم تفسيراً لظهور عنصر الحركة (وبخاصّة في جانبها الرياضي) في فنّ النحت في هذه المرحلة من جهة مع بقاء الاتجاه النمطي في هذا الفنّ من الجهة الأخرى . وتفسير الظاهرتين يكمن، في رأيي ، في طبيعة الفترة التي تلت الحروب الفارسية اليونانية .لقد نظر اليونان إلى هذه الحرب على أنها حرب بقاء أو فناء بالنسبة لهم وبالنسبة إلى كلّ القيم التي تسود مجتمعهم كما عبر عن ذلك بكلّ وضوح الشاعر المسرحي ايسخيلوس في مسرحية « الفرس » حين قال على لسان أحد شخصيات مسرحيته، بينما جنود اليونان يتأهبون لخوض المعركة الفاصلة ، إنّ هدف المعركة هو تحرير الأرض والزوجات والأطفال والمعابد التي بناها أجدادهم لآلهتهم مختتماً هذا النداء وملخصا له بقوله « إن المعركة

الآن هي في سبيلنا وفي سبيل كلّ ما هو لنا »[9] . وقد انتصر اليونان في هذه الحروب وكانت لذلك نتيجتان : إحداهما هي ازدياد الاهتمام بتدريب الشبّان وبخاصّة في الجانب الرياضي ،وقد اتخذ هذا الاهتمام في اثينه بالذات ، التي تزعمت اليونان لفترة طويلة بعدهذه الحروب ، جعل هذا التدريب شرطا أساسيا يمرّ به الشاب عند بلوغه سنّ الرشد قبل الحصول على المواطنة فيما كان يسمّى بنظام الإيفيبيه ephebeia . ومن هنا كان انعكاس هذا الاهتمام الرياضي في أعمال الفنانين . فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ هذه الفترة، وبخاصّة في أواسط القرن الخامس ق.م. ،قد شهدت قدرا كبيرا من الرخاءالناتج بصفةأساسية عن الازدهار التجاري الذي أمنته السيادة الأثينية على بحر إيجه . وأنّ هذا الرخاء الاقتصادي قد أنتج ازدهارا آخر في مجال الفنّ عموما ، أصبح من الممكن أن نفهم الظرف الذي أدىّ إلى الإبداع الفنّي الذي من شأنه أن يقدّم عناصر جديدة في الفنّ عموما ، وقد ظهر هذا ، فيما يخصّ فنّ النحت ، في ظهور عنصر الحركة الذي رأيناه يتمثل ، في قسم هام منه ، في الحركة الرياضية .

أما عن بقاء الاتجاه النمطي دون تغيير شامل فهو يرجع إلى الظرف نفسه ، وهو انتصار اليونان في هذه الحروب ضدّ عدوّ هائل اعتبروا زحفه على بلادهم تهديدا حاسما لهم ولحضارتهم ولأساليب حياتهم جميعا . وقد كانت إحدى النتائج الرئيسية، إن لم تكن في الواقع النتيجة الأساسية التي تجبّ ما عداها ، هو عودة الثقة إلى نفوسهم والتصاقهم بمجتمعهم وبمدنهم ومن ثم توثيق الارتباط بين الفرد والمجتمع أو الدولة التي تمثل كلّ قيمة توثيقا مضاعفا . وقد كان من الروابط الأساسية بين الأفراد وبين مدنهم الاحتفالات الدينية التي يعقدهااليونان

(٩) Aeschylos : Persae, 404 - 8

في عدد من المناسبات كلّ عام ليتقربوا لآلهة مدنهم ، كما كان الحال في أعياد الباناثينايه والديونيسيه وغيرها . وقد كانت المباريات الرياضية تمثل قسما ممّا يعرض في أثناء هذه الأعياد ، ومن ثم فقد كانت صفتها الأساسية صفة دينية . شأنها في ذلك شأن استعراضات الرقص والغناء والعروض المسرحية . ومن ثمّ فإن التماثيل التي كانت تقام للمنتصرين في هذه المباريات الرياضية كانت نوعا من الشكر من جانب مجتمع المدينة لآلهة المدينة ولم تكن تخليدا لهؤلاء المنتصرين في حدّ ذاتهم . بعبارة أخرى كانت هذه التماثيل تقام لتخليد نمط مثالى يمثل الالتحام بين المجتمع ومدينته وآلهة هذه المدينة ، وليس لتخليد شخص انتصر في مباراته على شخص آخر . وفي هذا الصدد يشير باحث معاصر إلى أنّ من الأمور ذات المغزى الكبير في هذا الصدد أنّ نفس النمط الفنيّ كان الفنان يتبعه في نحت التماثيل التي تبين الحركة الرياضية في حالة الآلهة والبشر دون أدنى تمييز بين الإثنين .

ومن بين فناني النحت الذين عرفهم القرن الخامس برز ثلاثة مثّلوا هذه المرحلة خير تمثيل . وكان أول هؤلاء من حيث الترتيب الزمني ميرون Myron (ازدهر نشاطه الفني حوالي ٤٦٠ ق.م). وهو فنان من أتيكه Attika (المنطقة التي تتوسطها مدينة أثينه) انتفع بإمكانات السهولة التي يوفرّها صبّ البرونز لكي ينتج عددا من التماثيل التي تتمثل فيها الحركة ومرونتها مثل تمثال رامي القرص الذي لا يزال حتى الآن يمثل تعبير الحركة الرياضية في خير صور هذا التعبير . والفنّان الثاني هو بوليكليتوس Polykleitos وهو فنان من مدينة أرجوس Argos (شمال غربي البلوبونيسوس) ظهر بعد ميرون وعاصره بعض الوقت . وقد اهتم اهتماما أساسيا بالنسب المثالية بين أعضاء الجسم وأظهر براعته الفنية بوجه خاصّ في التعبير عن الحركة اللينة

البطيئة كما يتضح لنا بشكل خاصّ من تمثال « حامل الرمح » الذي يظهره وهو يتقدّم في توازن جسمي كامل يجمع بين اتزان الرجولة ونضوجها من جهة وبين روح الشباب غير المثقلة من جهة أخرى. ولكن نستطيع تقدير الفارق بين هذه المرحلة الثانية من مراحل تطوّر فنّ النحت وبين المرحلة الأولى التي غلب التصلّب على تماثيلها فأفقدها حرية الحركة في أغلب الأحوال، فما علينا إلاّ أن ننظر إلى هذا التمثال حيث نجد حرية الحركة في سيقان حامل الرمح ، فوزن الجسم يرتكز على الساق اليمنى بينما يهم بالتقدّم على الساق اليسرى مرتكزا على على أصابع قدمه .

على أن فنّ النحت اليوناني في هذه المرحلة وصل إلى قمتّه في أعمال الفنّان الأثيني فيدياس Pheidias (ازدهر نشاطه الفنّي حوالى ٤٤٠ق.م.) ومدرسته (أتباع مذهبه الفنّي). ورغم أن أعظم قطعه الفنية ، وهي تماثيله المغطاة بالذهب و العاج التي تمثل الإلهة أثينه والإله زيوس قد اندثرت ، كما أشرت في مناسبة سابقة : فإنّ ما تبقى من أعمال هذا الفنان ومدرسته يعطينا فكرة عن الاتجاه الفنّي الذي تميزت به هذه الأعمال وهو اتجاه يمثل الروح التي سادت أثينه (وإلى حدّ ما عدداً كبيراً من المدن اليونانية) في عصر بركليس Perikles (الربع الثالث من القرن الخامس ق.م.) ففي ذلك الوقت كان المجتمع اليوناني بوجه عام قد نفض عن نفسه منذ وقت طويل ، التوتر الذي ساد بلاد اليونان في فترة الحروب الفارسية اليونانية ، وكان الأثينيون بوجه خاصّ قد حققوا قدرا كبيرا من النجاح في الخارج تمثل في الزعامة الأثينية من خلال الحلف الأثيني الأول (حلف ديلوس) الذي ما لبث أن تحول إلى امبراطورية أثينية ، كما مارسوا نتيجة لذلك قدرا ظاهرا من الرخاء . وقد انعكس ذلك كلّه في نوع من الزهو الممزوج

بالاعتزاز بمنجزات مدينتهم ، والثقة الكاملة في مستقبلها والرغبة العارمة في تمجيد الإلهة أثينه ، راعية هذه المدينة .

وقد انعكس كلّ ذلك في الاتجاه الذي ميز أعمال فيدياس ومدرسته ، وهو اتجاه يمكن أن نستنتجه من أحد المواضيع الرئيسية التي ظهرت في النحت المستدير على معبد البارثينون في أثينه ، وهو موضوع يظهر على العارضة الداخلية (الإفريز) frieze لهذا المعبد ويمثل أعياد الباناثينايه (الأعياد الجامعة للإلهة أثينه) . وهنا نرى استعراضا لخيرة ممثلي المدينة ، صبايا وشيوخ وعدد من الفرسان ، كما نرى الآلهة اليونانية الرئيسية مجتمعين كضيوف على الإلهة أثينه . وفي هذا الموضوع يظهر الاتجاه الفني لفيدياس في أوضح صورة ، وهو اتجاه يهتم من خلاله الفنّان باللمسات التفصيلية التي تهتم بكلّ شيء وتبدع مع ذلك في هذه التفصيلات دون أن يقتصر الاهتمام على هدف واحد لا يستطيع الفكاك منه كما كان الحال مع سابقي فيدياس في هذه المرحلة (ميرون وبوليكليتوس) — وهو اتجاه يعكس اتجاه عصر بركليس الذي أشرت إليه ، بكلّ ما فيه من رخاء ومن راحة نفسية تجعل الفنّان يشعر أن لديه وقت الدنيا بأكملها ليهتم بكلّ شيء، ويحاول أن يبرز الجمال في كلّ شيء وفي كلّ تفصيلة صغيرة من كل شيء. إنّ الفنان في هذا الموضوع الذي زيّن به العارضة الداخلية لمعبد البارثينون يهتم بالتهدلات والثنيات العضوية في الملابس الطويلة الفضفاضة التي ترتديها الإلهات، وبالحركة المرتعشة في فتحات أنوف الخيل التابعة لإله الشمس ، وبقوام الأشخاص الذين يظهرون في الاستعراض ، سواء كانوا من البشر أو الآلهة، وهو قوام تبدو فيه الصحة المتوهجة كما تبدو عليه إمارات الصحة والاسترخاء الذي لا يظهر التدريب الرياضي المكثف الذي نجده عند فنانّي الفترة السابقة من المرحلة نفسها .

هذه ، إذن، هي الاتجاهات الفنية التي ظهرت في المرحلة الثانية التي عرفها تطوّر فنّ النحت اليوناني ، وهي المرحلة التي امتدت حتى نهاية القرن الخامس ق.م. فإذا انتقلنا إلى المرحلة الثالثة ، وهي التي شغلت القرن الرابع ق.م. نجد فنانّي هذا القرن يحتفظون بالمستوى التقني الذي حققه فنانو القرن السابق (الخامس ق.م.) ولكنهم لا يزيدون عليه. ولكنهم يسيرون في اتجاه جديد يميّز أعمالهم الفنية في ردّة فعل واضحة للأحوال التي مرت بها بلاد اليونان في تلك الفترة (القرن الرابع) ، وهي أحوال تمثلت في تخلخل نظام دولة المدينة بكلّ ما كان يمثله من أوضاع اقتصادية واجتماعية وسياسية ومن أسلوب للحياة اعتز بـــه اليونان كثيرا قبل ذلك القرن . كما بينت في مناسبة سابقة . وقد كانت نتيجة ذلك تخلخلا مماثلا في ارتباط الفرد بالمجتمع والدولة ظهر في اهتمام الأفراد بأمورهم ومشاكلهم الخاصة وانصرافهم عن الاهتمام بالمجتمع وبأموره ومشاكله .

وقد انعكس هذا كلّه في أعمال الفنانين الذين ظهروا في القرن الرابع وتمثل هذا الانعكاس في معنى واحد واضح ظاهر وهو: الفردية. إنّ الفنان لم يعد الآن يقدّم عملاً نمطيا مثاليا مجرّدا يرمز إلى قيمة عامّة في المجتمع وإنما أصبح يقدّم تماثيل تظهر الملامح الشخصية لموضوعات هذه التماثيل ، كما تظهر في تعبيراتها هموم الأفــراد وعواطفهم ومشاعرهم الفردية حتى إذا كان التمثال المنحوت تمثال أحد الآلهة، كما يظهر في هذا الاتجاه عودة للاهتمام بالمرأة ، وهو اهتمام لم يكن غريبا عن الفنّ اليوناني ، ولكنه كان قد تراخى بعض الشيء في القرن الخامس ق.م.

وقد تمثل اتجاه فنّ النحت في هذه المرحلة بشكل خاصّ في ثلاثة فنانّين ، وأول هؤلاء سكوباس Skopas ، وهو من مواطني باروس

Paros (إحدى جزر مجموعة الكيكلاديس Kyklades في وسط بحر إيجه) الذي يظهر اتجاهه نحو التعبير عن العواطف الفرديةالواقعية من الأسماء التي اتخذتها بعض أعماله مثل : الحب،الحنين ، الرغبة ، وهكذا . والفنان الثاني هو براكسيتيليس Praxiteles الأثيني الذي امتازت تماثيله بإظهار الليونة البضة والجلد الناعم فيما يخص الجسم وبظهور الاستغراق في التفكير على تعبيرات الوجه . ومن أهم تماثيله تمثال للإلهة أفروديتي Aphrodite بعد أن انتهت من حمامها، وفي تعبير نظرتها يبدو هذا الاستغراق واضحا ، كما تعبر حركة يدهاعن استحياء أنثوي . أما الفنان الثالث في هذه المرحلة فهو ليسبوس Lysippos الذي يظهر في شمالي شبه جزيرة البيلوبونيسوس . وقد ظل هذا الفنان حريصا على الحركة الرياضية التي عرفتها المرحلة الثانية من المراحل التي مر خلالها فن النحت اليوناني (خلال القرن الخامس) ، ولكنه اختلف عن فناني القرن الخامس في أنه حسبما اعترف بنفسه ، [١٠] أراد أن يعبر عن « الرجال كما يظهرون للرائي » وهو تعبير مؤداه الابتعاد عن النمطية والمثالية بقدر اقترابه من الواقعية . ولعل خير ما يبرز هذا الاتجاه عندهو تمثاله المعروف باسم أبوكسيومينوس Apoxyomens وهو يمثل شابا رياضيا وتبدو عليه خفة الحركة والتوثب ، وهما صفتان يختلف فيهما عن التماثيل الرياضية التي ترجع إلى القرن الخامس والتي تميل إلى ضخامة الأعضاء وتباطؤ الحركة . على أن الصفة الأساسية التي يتصف بها هذا التمثال تكمن في نوع الوضع الذي يمثله . فهو لا يظهر في وضع يمارس فيه حركة رياضية أساسية ، كأن يرمي قرصا أو يمارس حركة فروسية على سبيل المثال ، وهي الحركات المثالية

---

(١٠) الاشارة في :

Cary and Haarhoff : op. cit., p. 228

المفترضة في الشخص الرياضي أثناء أدائه أمام الجماهير وهي– الحركات التي أبرزها فنانو القرن الخامس ق.م. ولكنه يقوم بكشط أو إزالة بقايا الشحم الذي لا يزال عالقا بجسمه بعد تدريبه ، وهي حركة تبتعد عن العلاقة بالجماهير (الذين يمثلون المجتمع)، بقدر ما تقترب من الصفة الفردية التي يهتم فيها الرياضي بنفسه فحسب .

٣ – التصوير والفنون الصغرى

ا – التصوير

وأنتقل أخيرا ، في حديث الفن ، إلى عرض سريع لما أنجزه اليونان في بعض الجوانب الفنية التي ليست لها ضخامة تخطيط المدن أو العمارة أو النحت . ولكنها تصور ، مع ذلك . جانبا من الإنجاز الحضاري لليونان يساعدنا في استكمال الخطوط العامة للمجتمع اليوناني، ولتكن بداية الحديث عن التصوير. وفي هذا المجال وصلت إلينا بعض أمثلة من صور الفريسكو (الرسم بالألوان المائية على الجص المبلل)في قصر كنوسوس (في جزيرة كريت) الذي يرجع إلى عصر الحضارة المينوية،وهي صور يظهر فيها حس اللون بشكل أنيق، كما يظهر في بعضها التأثير المصري بشكل واضح كما يتبين لنا من صورة مجموعة من النساء على جدران إحدى قاعات القصر المذكور وفيها نلمس هذا التأثير سواء في المنظر الجانبي للوجه (البروفيل) الذي اتبعه الرسامون المصريون دون الصورة المواجهة ، أو في الوقفةوحركة الأيدى [١١] . ولكن على أي الأحوال فالحضارة المينوية : كما مر

---

(١) مشاهدة شخصية للباحث .

بنا في حديث سابق ، ليست حضارة يونانية وإن كانت ظهرت في مناطق أصبحت فيما بعد ضمن العالم اليوناني .

فإذا انتقلنا إلى نشاط اليونان في هذا المجال ، قابلتنا عقبة أساسية هي ندرة ما تبقى من هذا الفن ، بحيث تكاد تنحصر مصادره في الأوصاف التي وصلت إلينا ضمن الكتابات الكلاسيكية وفي النسخ الإيطاليه لعدد من اللوحات اليونانية . وفي بعض الإحيان من المقارنة مع اللوحات الإيطالية أصلا والتي كانت معاصرة لمرحلة أو أخرى من المراحل التي مرّ بها فنّ التصوير اليوناني ، وفي أحيان ثالثة من رسوم على مزهريات استوحت بعض اللوحات .

وقد بدأ هذا الفنّ عند اليونان في مرحلة متأخرة نسبيا إذا ما قارناه بفنّ العمارة أو النحت . فقد اشتهر أول رسام يوناني كبير وهو بوليجنوتوس Polygnotos في النصف الأول من القرن الخامس ق. م. (حوالى ٤٧٥ – ٤٤٧ ق . م.) . وكان من مواطني جزيرة ثاسوس Thasos (في شمالي بحر إيجه) ثم اكتسب المواطنة الأثينية فيما بعد وقد قام بتنفيذ رسومه بطريقة الفرسكو (انظر أعلاه) في أغلب الأحوال في لوحات حائطية (وفي الواقع فإنّ أغلب التصوير اليوناني ظهر في لوحات حائطية) ، وإن كان قدم رسوما كذلك على لوحات من الخشب ، كما قدّم رسوما استخدم الشمع في تنفيذها بطريقة لاتزال غامضة لدى المهتمين بدراسة تاريخ هذا الفنّ (لعلها تقابل الرسم بالزيت في العصر الحاضر) ، كما قلدّ معاصروه بعض هذه الرسوم على عدد من المزهريات . وقد استوحى في عدد كبير من لوحاته موضوعات ميثولوجية ، ولكنه لم يقتصر على هذا الاتجاه. إذ من المحتمل أنّه رسم صورة لمعركة ماراثون (بين الفرس واليونان في ٤٩٠ق.م.) كما رسم عددا من الصور لأشخاص ظهر فيها شيء

من تعبيرات الوجه . وفي معالجته لهذه التعبيرات كان يتجه اتجاهاً نستطيع أن نصفه بالمثالية (قارن هذا الاتجاه في فن النحت في الفترة ذاتها) إذ كان يحاول التعبير عن هدف أدبي أو أخلاقي مرتفع ethos لرجال من النخبة سواء في لحظة اتخاذ قرار كبير أو في لحظة رد الفعل لحدث كبير . ولكن مع ذلك فقد جاءت ألوانه متواترة كما جاءت أبعاد صوره بدائية تفتقد العمق نتيجة لعدم استخدامه للتظليل في هذه الصور .

ولكن أواخر القرن الخامس ق.م. شهدت تقدما ملموسا في هذا الفن ، حين أدخل الرسام الأثيني أبوللودوروس Apollodoros فكرة التظليل المتدرج skiagraphia الذي يوهم بتجسيد الصورة. وقد كان في الواقع أول من فتح الطريق في هذا الاتجاه ، فقد اتبع طريقته وطورها رسام يوناني آخر معاصر له هو زيوكسيس الذي اشتهر في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع وكان من مواطني مدينة هيراكليه Herakiea (إحدى المستوطنات اليونانية في منطقة لوكانيه Lukania في جنوبي إيطاليه) . وقد استخدم زيوكسيس فكرة الضوء بشكل ظاهر ليكسب لوحاته التجسيد المطلوب ، كما ظهر في هذه اللوحات نوع من التعبير الدافيء pathos نتيجة لسيطرة هذا الفنان على تدرج الألوان كما يظهر من لوحته التي صور فيها عائلة الكنتاوروس kentauros (مخلوق أسطوري عند اليونان نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حيوان) والتي يتدرج فيها اللون بشكل غير محسوس من القسم الإنساني إلى القسم الحيواني لأنثى هذا المخلوق .

على أن اشهر الرسامين اليونان هو أبلليس Apelles الذي اشتهرت لوحاته ولوحات تلاميذه في أواخر القرن الرابع ق.م. وقد نفذ صورا لفيليب المقدوني ولابنه الاسكندر وللشخصيات المحيطة بهم . كما

كان من أشهر ما قدّمه صورة للإلهة أفروديتي وهي تظهر من البحر وتعصر شعرها المبلل حتّى تزيل عنه الماء ؛ وصورة أخرى تتعلّق بموضوع التضحية . ويبدو من الأوصاف التي أعطاها للوحاته مثل وصف السحر أو الجاذبية charis أنّه كان يستطيع أن يتحكم بدرجات الألوان بشكل ظاهر . وتبدو حريته في استخدام الألوان من إحدى اللوحات التي رسمها للاسكندر وهو ينتصر على الملك الفارسي دارا Darios في موقعة إسوس (الموقعة في ٣٣٣ ق.م. والمدينة في أقصى الطرف الأيمن من الساحل الجنوبي لآسيه الصغرى)، فقد استخدم فيها لونا أدكن من اللون الحقيقي لبشرة الاسكندر حتّى يبرزه إزاء الخلفية الفاتحة ومن ثم يحصل على العمق الذي يريده. وقد وصلت لنا هذه اللوحة عن طريق نسخة نفذت بطريقة الفسيفساء (الموزاييك) وعثر عليها في أحد المنازل بمدينة بومبيي في أيطاليه .

ب ــ زخرفة الفخار

على أننا إذا كنا لا نملك من مصادر فنّ التصوير اليوناني إلاّ النزر اليسير ، فإنّ فناً آخر مقارباً له (وإن كان لا يصل إلى مستواه من حيث الوقع) وهو فنّ تزيين الأواني الفخارية بالأشكال والصور يقدّم لنا ، من خلال الأعداد الكبيرة التي عثر عليها من هذه الأواني ، مصدراً وفيراً لما أنجزه اليونان في هذا المجال . وفي الواقع فإنّ المخلفات الفخارية التي عثر عليها في بلاد اليونان ترجع إلى العصر البرونزي المبكر الذي سبق عصر الحضارة الميكينية بفترة طويلة . وقد انحدر هذا الفنّ في غمرة التأثير السلبي الذي عمّ المجتمع اليوناني في عصر الظلام الذي عاصر اجتياح الغزوات الدورية لبلاد اليونان خلال القرن الحادي عشر ، ولكنه ما لبث أن استعاد موقعه في أوائل الألف الأولى ق.م. حين بدأ فنّ صناعة

الفخّار وتزيينه في بلاد اليونان عموماً ، وفي أثينة بوجه خاص ، يظهر من جديد (في أحجام ضخمة في بعض الأحيان)وقد زينته أشكال وخطوط هندسية . أو أنماط جيومترية حسب تعبير المهتمين بالتأريخ لهذا الفنّ .

على أن تطوّراً بدأ يظهر في هذه الأشكال في الفترة التالية . فأخذت الأشكال البشرية أو الآدمية تظهر في تزيين الآنية الفخارية في القرن الثامن ق.م. ولكن التطوّر كان بطيئاً فبدت الصور المرسومة للأشخاص مستطيلة إلى حدّ كبير وغير واقعية . بل نستطيع أن نقول إنها كانت أقرب إلى النمط الجيومتري السابق منها إلى الشكل الإنساني . بعد ذلك تعدّدت الأنماط والأشكال بتعدّد المدن اليونانية التي كان الفخّار بالنسبة لها أداة استخدام يومي شائع شيوع كلّ ما يتعلق بالحياة اليومية . ولكنا نستطيع أن نتبيّن من خلال هذا التعدّد في الأنماط والأشكال اتجاهاً متأثراً بالشرق بدأ يظهر بشكل خاص منذ بداية القرن السابع ق.م ، حاول اليونان من خلاله أن يقلّدوا الرسوم التي كانت تزيّن الأقمشة والسلع المعدنية الفينيقية ، والتي كان التجار الفينيقيون يحضرونها معهم في رحلاتهم التجارية إلى بلاد اليونان . وهكذا بدأت تظهر على الأواني الفخارية رسوم لحيوانات حقيقية أو خيالية .

على أن بداية القرن السادس ق.م شهدت تراجع هذا التأثير الشرقي أمام نوع جديد من الزخرفة بدا واضحاً أنّه يستمد طبيعته من الحياة اليونانية ذاتها . فقد غلبت على الرسوم منذ ذلك الوقت تكوينات الأشخاص والصور المأخوذة من الممارسات اليومية أو من القصص الميثونوجيـــة (الأسطورية) اليونانية . وقد برزت كورنثه بوجه خاص في فنّ زخرفة الفخّار في القسم الأول من هذا القرن ، فكانت خطوط الفنّان في تحديد الأشكال على المزهريات لا تجارى في دقّتها . ولكن مع ذلك فقد كانت

هناك عيوب فيما يتخطى الدقة التي تميزت بها هذه الخطوط ، إذ كانت المساحات تميل إلى الازدحام الظاهر بالأشكال ، كما كانت الألوان لا تظهر بشكل بارز فوق خلفية اللون البرتقالي المنطفئ للفخار . وهكذا بدأت الأواني الفخارية الكورنثية تتوارى في الأسواق منذ أواسط القرن السادس ق.م. أمام الفخار الأثيني الذي استطاع أن يصل إلى ذروة لم يصل إليها الفخار الكورنثي .

وقد مرّ فنّ الفخّار في أثينة في مرحلتين أساسيتين : ففي المرحلة الأولى أخذ فنان الزخرفة الفخارية يرسم أشكاله بلون أسود لامع على خلفية اللون الفخاري والذي كان لونه الطبيعي بعد حرقه هو اللون البرتقالي وإن كان في حقيقة الأمر يتدرج بين اللون المائل للصفرة إلى اللون الأحمر حسب ظروف الحرق . وقد تميّز فنّ الفخار الأثيني آنذاك بقلة الأشكال والتكوينات التي كانت تظهر على المساحات الفخارية . وبلغ هذا الفنّ ذروته في عهد الطاغية الأثيني بيزيستراتوس Peisistratos (٥٦٠ــ ٥٢٧ ق.م.) الذي تميّز عهده برعاية كلّ أنواع الفنّ وتشجيعها بشكل ظاهر .

وقد ظلّ هذا النمط أو الاتجاه الذي تظهر فيه الأشكال كتكوينات سوداء فوق أرضية أو خلفية حمراء سائدة حتى حوالى الربع الأخير من القرن الخامس ق.م. حين عكس الفنانون الأثينيون هذا الوضع ليحلّ محلّ « الفخار ذي الأشكال السوداء » اتجاه جديد هو « الفخار ذو الأشكال الحمراء » . وكانت الطريقة الجديدة هي أن يحدد الفنان الخطوط الخارجية لأشكاله وتكويناته ثم يملأ المساحات الواقعة بينها باللون الأسود اللامع (المزجج) فتظهر الأشكال بلون الفخار الطبيعي (الذي اصطلح الأثريون على تسميته باللون الأحمر) . بعد ذلك يستخدم الفنان ريشة دقيقة ليرسم بها باللون الأسود بعض الخطوط

التفصيلية التي تحدّد الملامح المطلوبة للأشكال.. وقد ظلّ الفخار الأثيني بأشكاله السوداء والحمراء مثالا يحتذى طوال القرن الرابع ق.م. في المستوطنات اليونانية في إيطاليه وإن كان قد بدأ يتراجع تدريجيا أمام اتجاه متزايد نحو استخدام الأواني والكؤوس المعدنية وبخاصة بين أوساط الطبقة الثرية التي كان استخدامها للأواني الفخارية دون شك دافعا لفنّان الفخار يغريه بالمزيد من إعمال مهارته وإبداعه حتى ذلك الوقت.

وإذا كان لنا أن نقيم فنّ الفخار بشكل عام فمن الممكن أن نقول إنّه الفنّ الذي لم يفقد حس التناسب مع ظروف استخدامه سواء من حيث شكل الإناء أو الرسوم التي كانت تستخدم في زخرفته ، فكما أن حجم الإناء وشكله كان يتناسب دائما مع الهدف من استعماله، فكذلك كان الرسم يتناسب مع استدارة الإناء من جهة ومع ظروف استخدامه في الوقت ذاته . وعلى هذا فإذا كان الاستخدام دينياً (حين كانت الآنية توضع في المقبرة مع الموتى أو تستخدم في مناسبات الشعائر والطقوس الدينية ليوضع فيها الزيت أو النبيذ) كان الفنّان يزينها بمناظر جنائزية أو بعض المناظر الميثولوجية التي تعطى هذا الانطباع . وإذا كانت لاستخدامات في الحياة اليومية عمد الفنان إلى عدد من المناظر الأخرى سواء أكانت ميثولوجية أو عسكرية أو منزلية أو مناظر أعياد أو مرح أو حتى مناظر خارجة في بعض الأحيان . وقد ساعد الفنّان هنا على هذا التنوّع الواسع في اختيار مناظره وتنفيذها سهولة الرسم على الفخّار دون شك . وهو أمر لم يكن متاحاً لفنان النحت ، ولكن مع ذلك فإنّ افتقار الرسم الفخّاري بالضرورة إلى العمق الذي كان يشكل الميزة الأساسيَة للنحت ، حرم فنّان الفخار ، رغم تعدّد مواضيعه بلا حدود ، من ان تكون لهذه المواضيع القيمة الفنية العميقة التي من شأنها أن تترك على الناظر إليها أثراً باقياً .

ج – تشكيل المعادن

وتبقى في نهاية الحديث عن الفنون الصغيرة كلمة سريعة عن الصناعات المعدنية عند اليونان . وقد وصل اليونان في هذا المجال إلى مستوى غير قليل من التقدم . فقد عثر المنقبون الأثريون على عدد من القطع الفنية المصنوعة من الذهب ترجع إلى العصر الميكيني . من بينها ، على سبيل المثال ، كأس نسطور وقناع أجاممنون وعدد من القطع الأخرى التي تزين الآن المتحف القومي في أثينه. وفي الواقع فإن تقدم الصناعات المعدنية في ذلك العصر ربما كان وراء الصورة الشاعرية الخيالية التي يقدمها لنا هوميروس في عدد من مناظر ملحمتيه . فهو يحدثنا مثلاً عن عدد من المناظر التي نحتها هفايستوس Hephaestos ، إله الصناعة الأعرج ، على الدرع الذهبية التي أهدتها الآلهة إلى البطل أخيليوس . وهي مناظر يظهر فيها رجال ونساء وماشية وأغنام وجداول مياه وأعواد قمح صيغت كلها من الذهب والفضة بدقة بالغة [١٢] ؛ ويحدثنا عن تيخيوس Tychios ، صانع السلاح الماهر الذي يذكر لنا الشاعر أنه صنع درعاً لإياس استخدم في بطانتها سبع طبقات من جلد الثيران ثم وضع فوقها جميعاً طبقة من البرونز . ثم هناك لاتركيس الذي يأمره نسطور ، في أحد مناظر الأوديسية أن يغطي بالذهب قرون بقرة قبل أن يضحي بها أمام الإلهة أثينة [١٣] . وقد مر بنا في أثناء الحديث عن فن النحت تماثيل الإلهة أثينه والإله زيوس التي نحتها فيدياس وغطاها بالذهب والعاج ؛ كما نعرف من إحدى مرافعات الخطيب والسياسي الأثيني ديموسثنيس Demosthenes (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) أن أباه ترك له في ميراثه مصنعاً يدوياً للسيوف [١٤] .

---

(١٢) Homeros : Il. ; XVIII, 541 - 578

(١٣) Ibid. : op. cit., VII , 230 - 4

(١٤) Demosthenes : XXVII, 9

على أن الصناعة اليونانية للمعادن - وبخاصة في مجال المعادن الثمينة لم يقم بها الفنان اليوناني في داخل بلاد اليونان فحسب . وإنما قام بها في خدمة مجتمع واحد آخر على الأقل . وفي هذا الصدد عثر المنقبون الأثريون على عدد من القطع الفنية المصنوعة من الذهب والفضة في مقابر الطبقة الارستقراطية من سكان اسكيثيه Skythia (في جنوبي روسية الأوروبية) . فقد كان وجهاء المجتمع الاسكيثي يملكون موارد لا بأس بها من معدن الذهب والفضة ، وأول هذين المعدنين كانوا يحصلون عليه من مناجم جبال الأورال . كما كانوا يستخدمون العمال اليونان لكي يصوغوا من الذهب أدوات الزينة الشخصية . ومن الفضة أدوات المائدة . وتدل هذه التحف ، التي يرجع أدقها صنعاً إلى القرن الرابع ق.م . على أن الصانع الفني اليوناني كان يتقن عدداً من طرق الصياغة من بينها صياغة المعدن المطروق ، والحفر وصياغة الزركشة بالتخريم أو التثقيب .

على أن نوعاً معيناً من الصناعة المعدنية ، وهو سك العملة . وصلت الينا منه أعداد هائلة من القطع . ومن هذه المجموعات نستطيع أن نتتبع اتجاه الفن اليوناني في هذا المجال ومدى تطوره . وفي هذا المجال نجد قطع العملة التي ترجع إلى الفترة المبكرة نسبياً تبدو الرسوم الموجودة عليها مفتقرة إلى الليونة ، كما تبدو صناعتها متدنية المستوى . وقد ظل هذا المستوى طوال القرن الخامس متخلفاً عن المستوى الذي ظهر في الجوانب الأخرى من النشاط الفني اليوناني (كالعمارة والنحت على سبيل المثال). ولكن الأمر تغير كثيراً في القرن الرابع حيث نجد الذين يصممون سك العملة يقومون بتنفيذ تصميمات تستلهم الطبيعة وتحتاج لقدر كبير من الاتقان حتى تعطي الأثر المطلوب ، وهو أثر نجح مصممو العملة آنذاك

في إبرازه في مهارة ملحوظة . ومن بين هذه التصميمات ، على سبيل المثال ، عدد من الخيل تعدو بسرعة، وقد نفذها الفنان في نحت بارز لدرجة أكثر مما يبدو على العملة في وقتنا الحاضر ، كما حدد خطوطها الخارجية بوضوح تفوّق فيه على أدقّ رسامي المزهريات الفخارية .

مراجع مختارة [1]

١ ــ مراجع عامة

— Andrews, A. : Greek Society (Pelican ed., 1971).

— Bengtson, H. : Griechische Geschichte (2te Ausgabe, C.H. Beck, Muenchen, 1960).

— Bury, J. B. : A History of Greece (3rd ed., MacMillan and Co., London, 1951).

— Cohen, R. : La Grèce et l'Héllénisation du Monde Antique (2me ed., Presses Universitaires de France, Paris, 1966).

— Finley, M. I. : The Ancient Greeks (Pelican ed., 1966).

— Glotz, G. : Histoire Grecque, I-IV (Presses Universitaires de France, Paris, 1925-38).

— Hammond, N.G.L. : A History of Greece (Oxford University Press, 1959).

---

(١) توخيت في اختيار هذه المراجع أن تبتعد عن الابحاث المتخصصة التي لا تعني الا المتخصصين ، كذلك حرصت على أن تمثل ، في حدود الامكان، اهم المراجع واحدثها ظهورا مما استطعت الوصول اليه . كذلك لم اتعرض هنا للمصادر اليونانية الاصلية ، على أن القارىء غير المتخصص يستطيع ان يجد ترجمة انجليزية لكل المصادر الكتابية اليونانية تقريبا في مجموعة : Loeb Classical Library (Heinemann, London — Hervard University Press) كذلك توجد ترجمة فرنسية مماثلة في مجموعة Budé (Paris)

— Rostovtzeff, M. : Greece (Oxford University Press, 1963).

٢ ــ مراجع عن القسم الاول : مدخل الى تاريخ اليونان

— Amyard, A. et Auboyer, J. : L'Orient et la Grèce Antique (4me ed., Presses Universitaires de France, Paris, 1959).

— Bonnard, A. : Greek Civilization, I-III (Oxford University Press, 1950-2).

— Bury, J.B. : The Ancient Greek Historians (Dover Publications, New York, 1958).

— Cary, M. : The Geographic Background of Greek and Roman History (Oxford University Press, 1949).

— Livingstone, R.W. (editor) : The Legacy of Greece (Clarendon Press, Oxford, 1957).

— Myres, J. : Geographical History in Greek Lands (Cambridge University Press, 1952).

— Seltman, Ch. : Greek Coins (3rd. ed., Methuen, London, 1965).

ــ يحيى ، لطفي عبد الوهاب : دراسات في حضارة اليونان والرومان (مركز التعاون الجامعي ، الاسكندرية ، ١٩٦٨) .

٣ ــ مراجع عن القسم الثاني : مراحل تاريخ اليونان

جزءان (مطبعة النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٤ ــ ١٩٧٦) .
ــ علي ، عبد اللطيف احمد : التاريخ اليوناني ، العصر الهلادي
— Andrews, A. : The Greek Tyrants (Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1965).

— Childe, V.G. : The Dawn of European Civilization (6th ed., Alfred A. Knopf, 19.8).

— Cloché, P. La Démocratie Athéniènne (Presses Universitaires de France, Paris, 1952).

— Finley, M.I. : The World of Odysseus (Pelican ed., 1965).

— Glotz, G. : La Cité Grecque (ed. Albin Michel, Paris, 1953).

— Hignett, C. : History of the Athenian Constitution (Oxford University Press, 1953).

— Hill, I.T. : The Ancient City of Athens (Harvard University Press, 1953).

— Hutchinson, R.J. : Prehistoric Crete (Penguin ed., 1962).

— Huxley, G.L. : Early Sparta (Harvard University Press, 1962).

— Jones, A.H.M. : Athenian Democracy (Frederick A. Praeger, 1958).

— Marinatos, S. : Crete and Mycenae (Harry N. Abrams, 1960).

— Mylonas, G.E. : Ancient Mycenae (Princeton University Press, 1957).

— Page, D.L. : History and the Homeric Iliad (University of California Press, 1959).

— Palmer, L.R. : Mycenaeans and Minoans (Faber and Faber, London, 1961).

— يحيى ، لطفي عبد الوهاب : الديمقراطية الاثينية (مركز التعاون الجامعي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ . .

- يحيى ، لطفي عبد الوهاب : هوميروس ، تاريخ حياة مصر (مركز التعاون الجامعي ، الاسكندرية ، ١٩٦٨) .

مراجع عن القسم الثالث : جوانب من النشاط الحضاري اليوناني

— Barker, E. : Greek Political Theory : Plato and His Predecessors (4th ed., Barnes and Noble Paperback, 1951).

— ——— : Political Philosophy of Plato and Aristotle (Dover Publications Paperback, 1959).

— Bieber, M. : History of the Greek and Roman Theatre (2nd ed. Princeton University Press, 1961).

— Carpenter, R. : Greek Sculpture (University of Chicago Press, 1960).

— Cary, M. and Haarhoff, T. J. : Life nad Thought in the Greek and Roman World (Methuen Paperback, London, 1961).

— Cook, R.M. : Greek Painted Pottery (Quadrangle Books, 1960).

— Lawrence, A.W. : Greek Architecture (Penguin Books, 1957).

— Norwood, G. : Greek Tragedy (Hill and Wang Paperback, 1960).

— Richter, G.M.A. : Handbook of Greek Art (Doubleday and Co., 1960).

— Robertson, M. : Greek Painting (World Publishing Co., 1959).

— Rose, H.J. : A Handbook of Greek Literature (Dutton Everyman Paperback, 1961).

— Seltman, C.T. : Attic Vase - Paintnig (Harvard University Press, 1933).

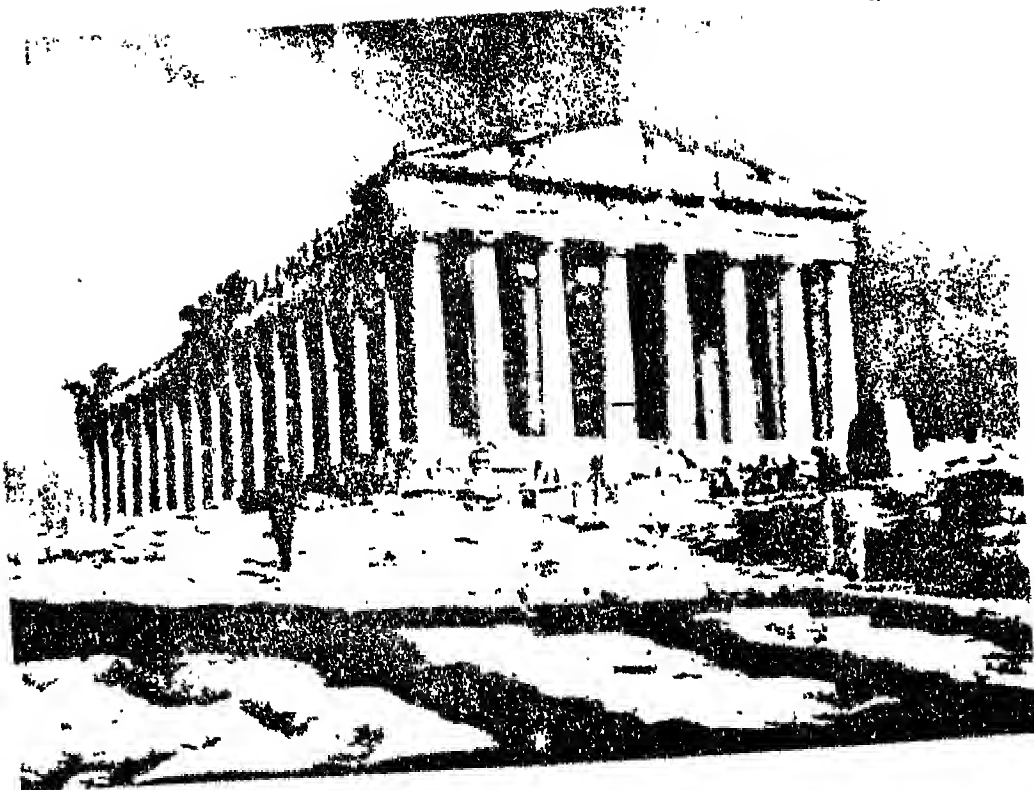
— Sinclair, T.A. : History of Greek Political Thought (Routeledge and Kegan Paul Paperback, London, 1961).

خريطة لبلاد اليونان

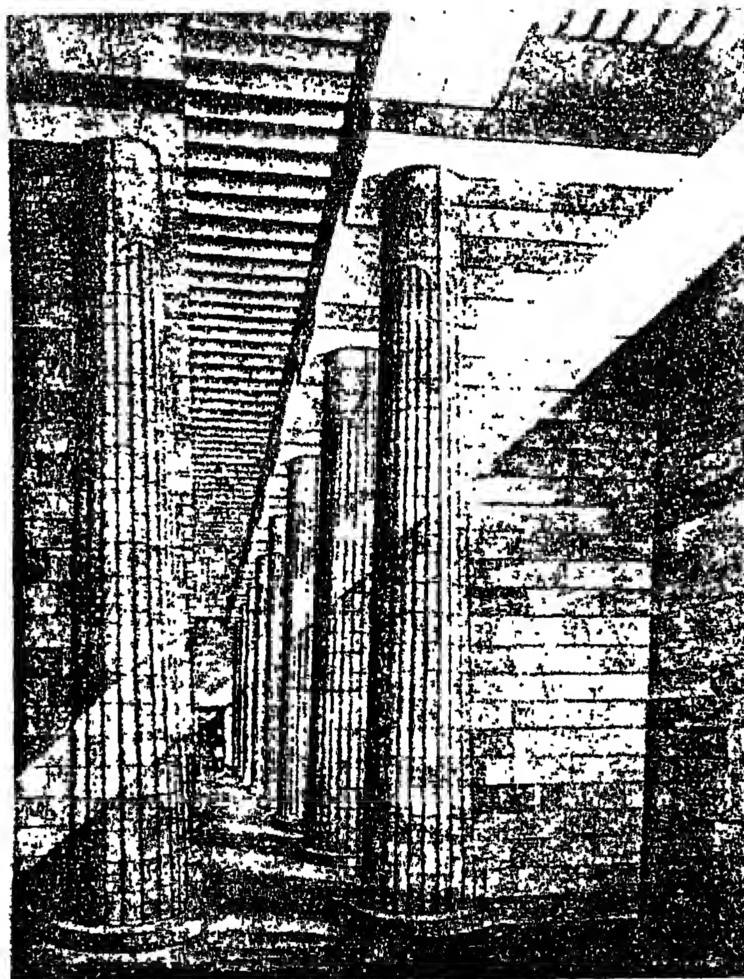
وملحق اللوحات

بلاد اليونان
ومنطقة
بحر إيجة

البحر الأسود
تراقيه
مقدونية
الهلسبونتوس
فريجية
ليديا
هليسية
فريجية الكبرى
آسيه
كاريه
رودس
تساليه
ابيروس
كورسيره
إتاكيا
كيفالينيه
زاكنتوس
أخائيه
كورنثه
أرجوليس
اتيكه
اسبرطه
ميسينيه
بيلوس
لاكونيه
البلوبونيز
بحر إيجه
ثاسوس
ساموتراقيه
امبروس
لمنوس
لسبوس
اسكيروس
خيوس
ساموس
جزر سيكلاده
جزر ديبوس
ناكسوس
باروس
بحر مرمره
اسبرطه
طروادة
ساردس
سميرنا
افسوس
ميليتوس
هاليكارناس
كريت
كنوسوس
البحر المتوسط

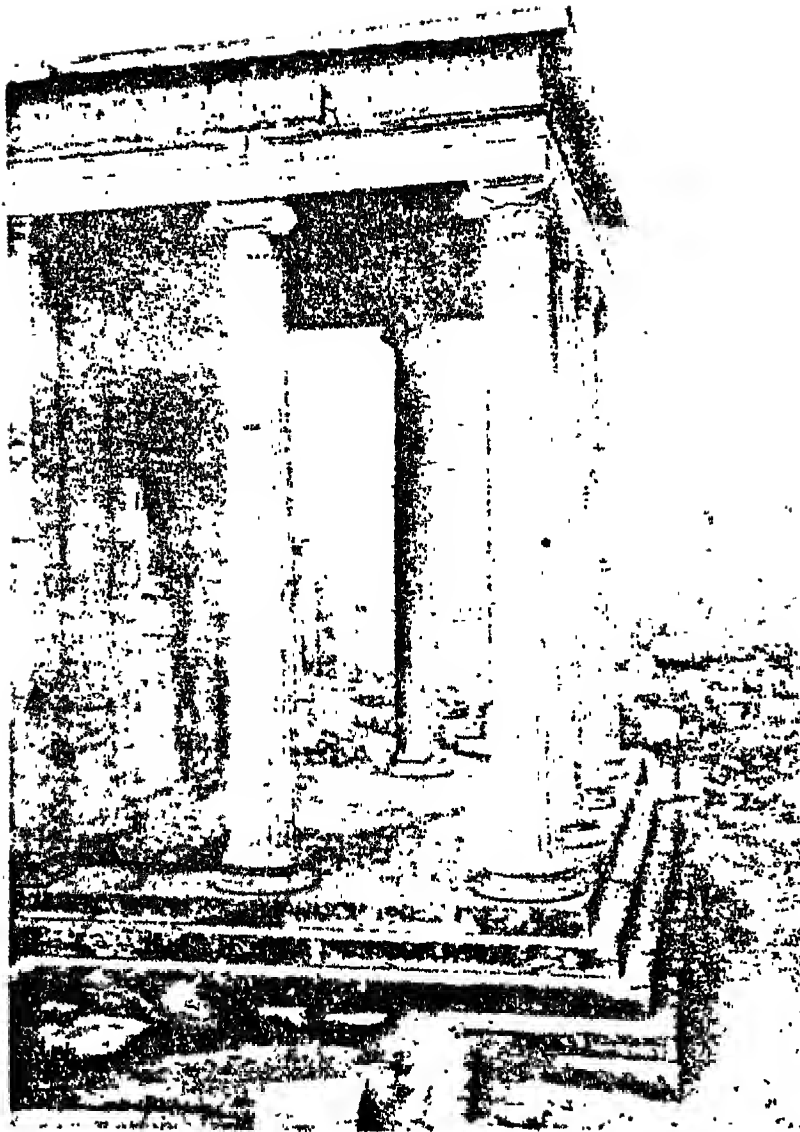


١ — معبد البارثنون في اثينة . طراز دوري . القرن الخامس
ق.م



١ ـ ب : مدخل الاعمدة الى هرم زوسر في سقاره ، مصر (مرمم)، القرن الثلاثون ق.م .

(عمارة مصرية للمقارنة) .



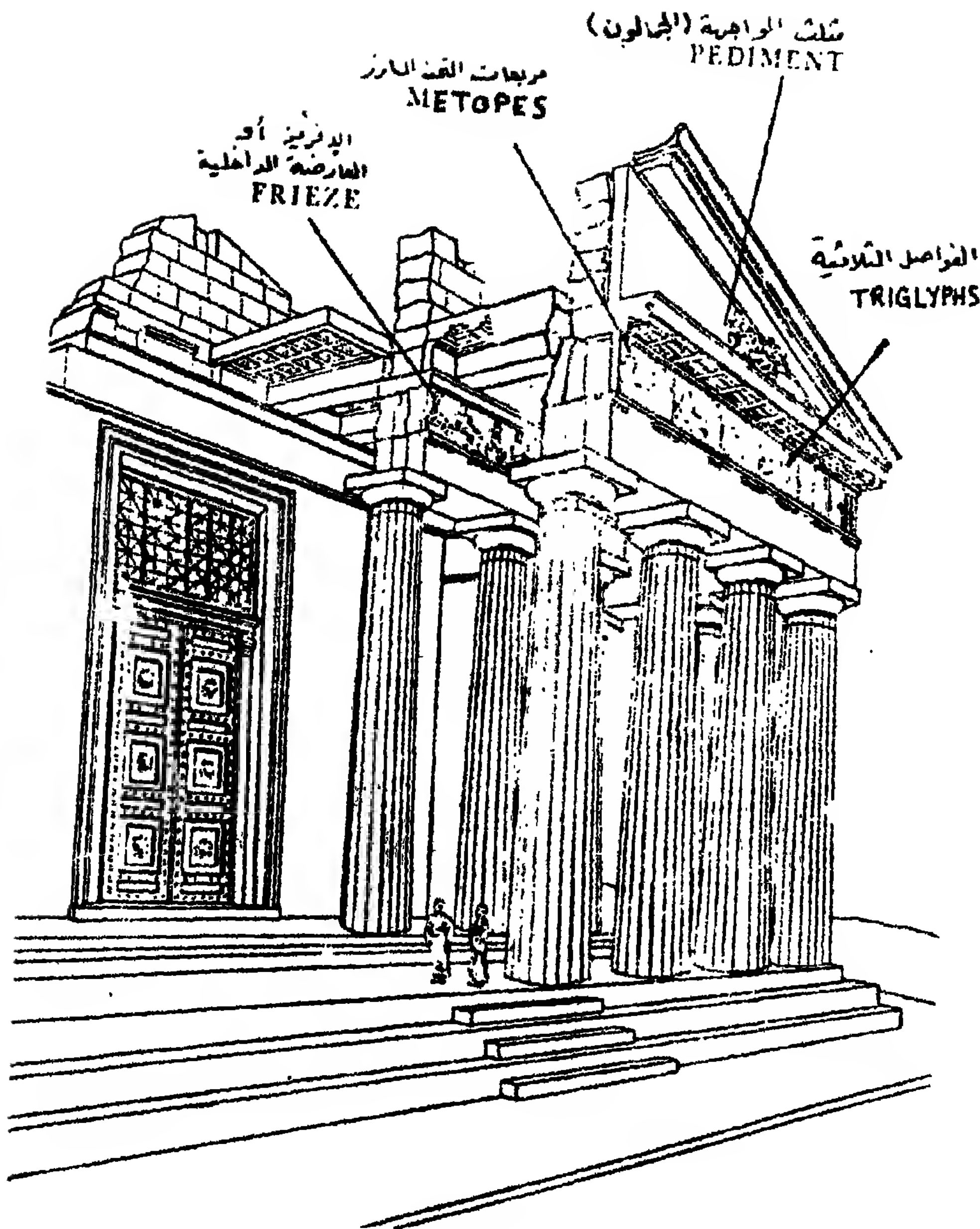
٢ ـ ١ : المدخل الشمالي بمبنى آلارخثيون في اثينة (طراز ايوني ، بني على فترات متقطعة بين ٤٢١ ـ ٤٠٥ ق.م .



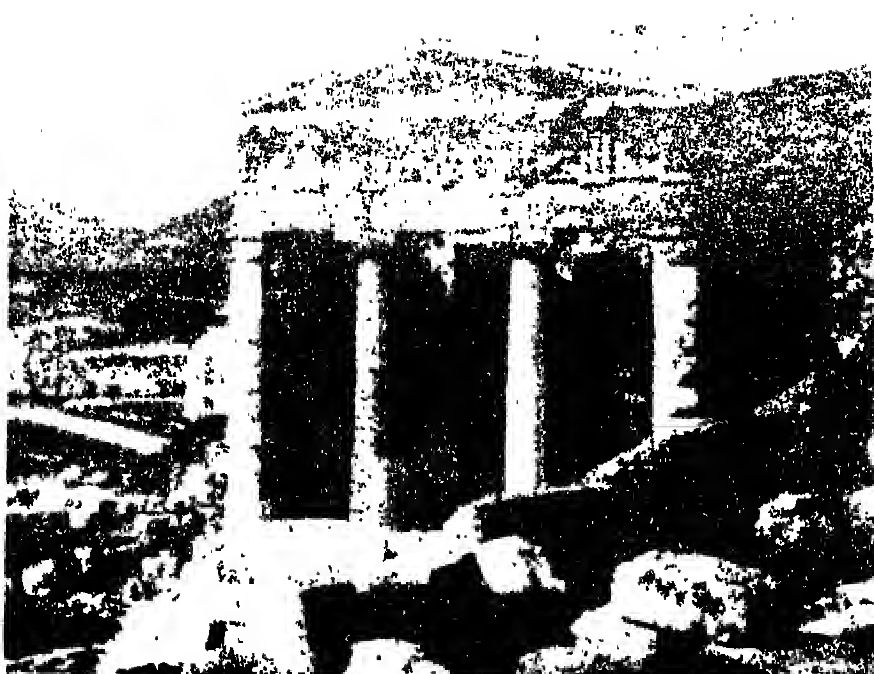
٢ ـ ب : منظر تفصيلي لراس عمود ايونى من مبنى الارخثيون .



٣ : معبد زيوس الاوليمبي في اثينة (طراز كورنثي) .



٤ : قطاع تخطيطي يبين اجزاء معبد البارثينون ٠



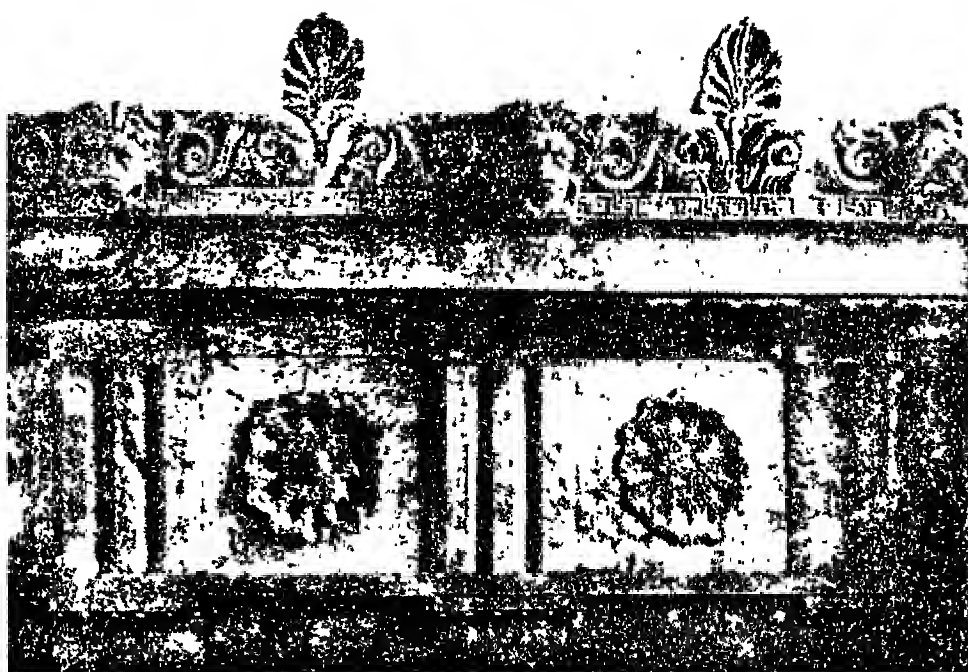
٥ : خزينة الاثينيين في دلفي يظهر فيها مثلث الواجهة (الجمالون) مكتمـلا ، حوالي ٥٠٠ ق.م.



٦ : بوابة الاسود في ميكيني ، القرن الثالث عشر ق.م. (لعتبر بداية الجمالون) قارن مع اللوحة السابقة ، رقم ٥ .



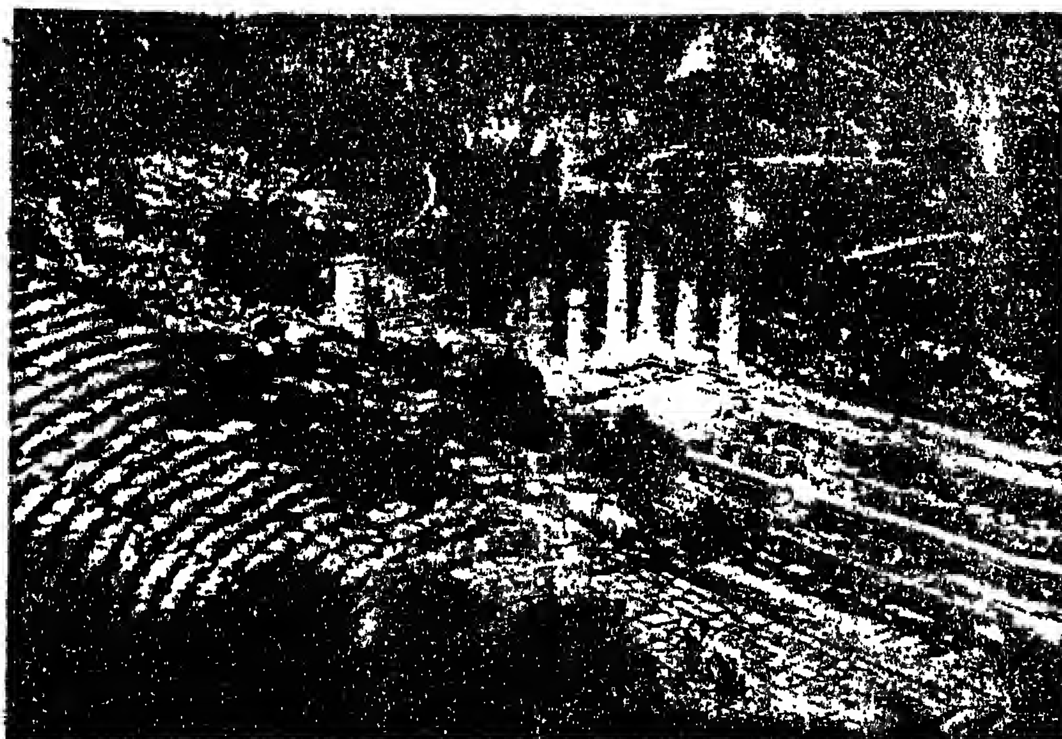
٧ : بناء دائري (ثولوس Tholos) على المدرج الاسفل لمنطقة معبد ابوللون في دلفي . بني حدثنا حسب الوصف الذي جاء في الكتاب الذي الفه ثيودوروس أحد مواطني فوكايه ، المبنى الاساسي اقيم في اوائل القرن الرابع ق.م.



٨ : القسم الاعلى من بناء دائري في معبد اسكليبوس (بطل او اله الشفاء) في ابيداوروس (شبه جزيرة البيلوبونيسوس) . تم بناؤه حوالي ٣٢٠ ق.م.



٩ : مسرح يونانى في مدينة سجستـه Segesta (فى صقلية) .



١ : المسرح ومعبد أبوللون في دلفي .



١١ ـ أ : تمثال مصري . الألف الثالثة ق.م (للمقارنه) .



١١ ـ ب : تمثال من منطقة سونيون (اتيكه) حوالي ٦٠٠ ق.م.



١٢ . تمثال جنائزي اتيكه حوالي ٥٤٠ ق.م. لاحظ اتقان خطوط الجسم بالمقارنة مع (١١ ــ ب) رغم بقاء الوقفة جامدة .



١٣ ــ تمثال تقدمه للآلهة من أثينة ، قبيل ٤٨٠ ق.م. لاحظ بدء ظهور الليونة في الحركة بالمقارنة مع (١١ ــ ب) و (١٢) .



١٤ : تمثال الاله زيوس يحمل الصبي جانيميديس ، وقد حمل الصبي الديك الذي قدمه الاله (هدية المحبة عند اليونان : من اوليمبيه (شبه جزيرة البيلوبونيسوس) حوالي ٤٧٠ ق.م.



١٥ : تمثال من البرونز للاله زيوس عثر عليه في البحر قرب راس أرتيميزيون ، (النصف الاول من القرن الخامس ق.م.) .



١٦ : نسخة ايطالية من تمثال حامل الرمح للفنان بوليكليتوس ، حوالي ٤٤٠ ق.م.



١٩ : الالهة ديميتر ، كنيدوس (جنوب الساحل الغربي لآسية
الصغرى) ، مدرسة الفنان براكسيتيليس ، اواسط القرن الرابع ق.م.



٢٠ ـ أ

ثلاث قطع من الرخام عثر عليها في روما (من عمل أحد الفنانين اليونان في مستوطنة يونانية في ايطاليا) تمثل النحت البارز اليوناني وترجع الى حوالي ٤٧٠ ق.م. (٢٠ ـ أ) تمثل (في رأي أحد المفسرين) الالهة أفروديت تنهض من البحر وتساعدها حوريتان من حوريات الماء. (٢٠ ـ ب) تمثل امرأة تعزف على الناي (أحد الأمثلة النادرة لامرأة عارية). (٢٠ ـ ج) امرأة تضع البخور في مبخرة.



١٧ : نسخة ايطالية من تمثال الالهة افروديتي وهي خارجة من الحمام للفنان براكسيليس ، حوالي ٣٤٠ ق.م.



١٨ : نسخة من تمثال الرياضي الذي يزيل الشحم عن جسمه بعد المباراة للفنان ليستّوس . حوالى ٣٢٠ ق.م.



(٢٠ ـ ب)



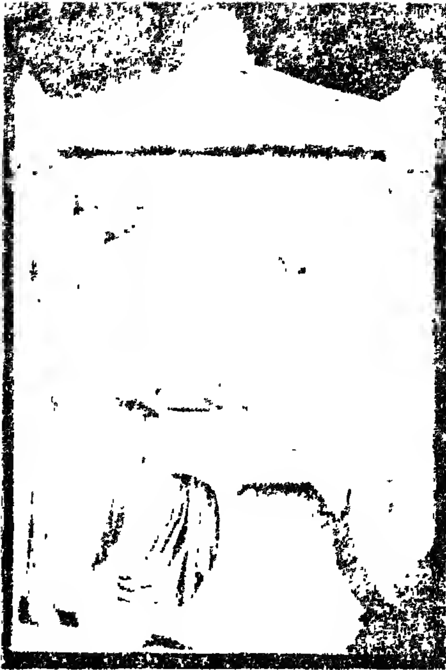
(٢٠ ـ ج)



٢١ ـ ا : نحت على افريز البارتينون يمثل اثنين من الفرسان يستعدان لاستعراض الفروسية في احتفالات عيد الباناثينائية . من نحت الفنان فيدياس او تحت اشرافه حوالي ٤٤٠ ق.م.



٢١ ـ ب : نحت على افريز البارثينون يمثل بعض الآلهة في ضيافة الالهة اثينة في احتفالات عيد البانانينانية (راجع اللوحه السابقة ، ٢١ أ).



٢٢ ــ ب



٢٢ ــ أ

٢٢ ــ أ : شاهد لمقبرة فارس اثيني (اسمه ديكسيلاوس Dexilaos) سقط في المعركة في كورنثه عام ٣٩٤ ق.م. والنحت يمثله وهو يقتل عدوا ، اثينة .

٢٢ ــ ب : شاهد لمقبرة امرأة أثينية من اسرة ارستقراطية . النحت يمثلها تنتقي احدى الحلي من صندوق مجوهرات احضرته وصيفتها . أثينة ، أواخر القرن الرابع ق.م.



٢٤ : تفصيل من اللوحة (٢٣) يوضح صورة الاسكندر .



٢٥ : لوحة الفسيفساء من بالله Pella عاصمة مقدونية، تصور صيد أيل وعليها توقيع الفنان اليوناني جنوسيس Gnosis ، حوالي ٣٠٠ ق.م.



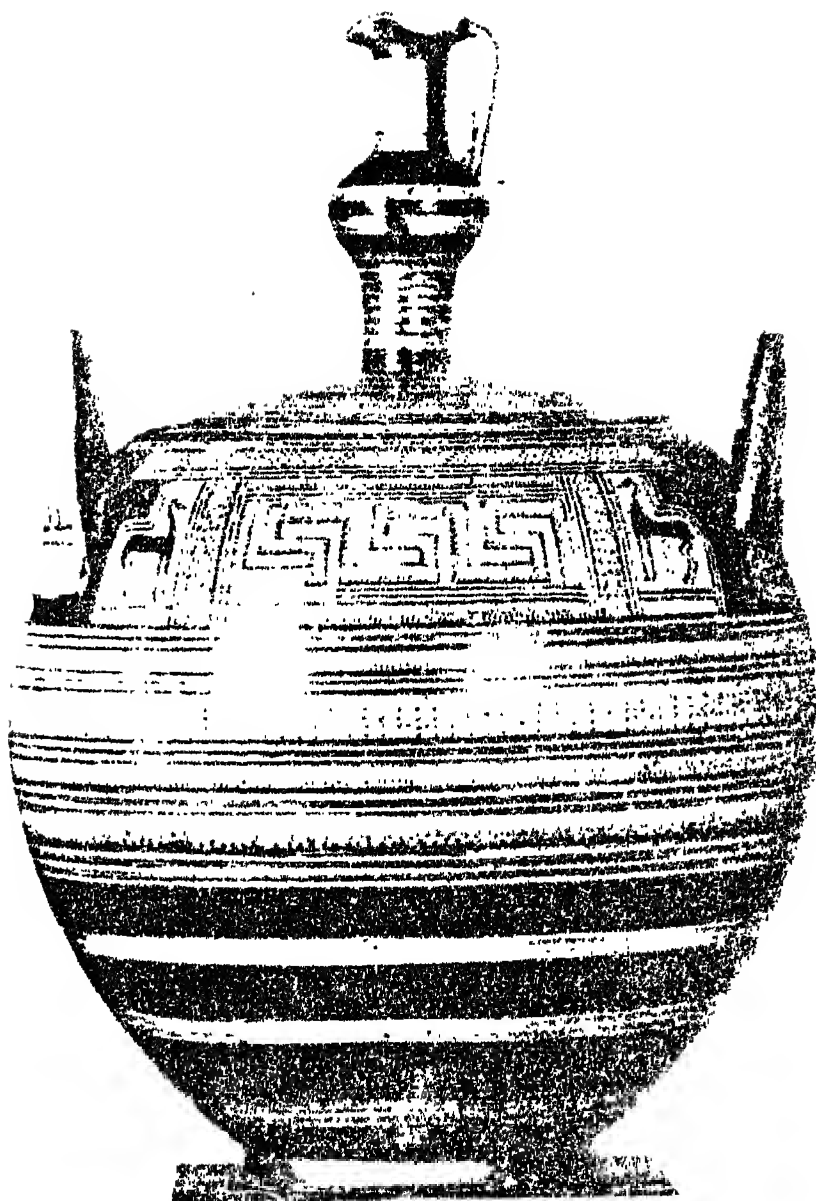
٢٢ ــ ج : شاهد لمقبرة يبدو فيه الزوج في وضع عائلي محبب له .
اثينة ، حوالي ٣٣٠ ق.م.



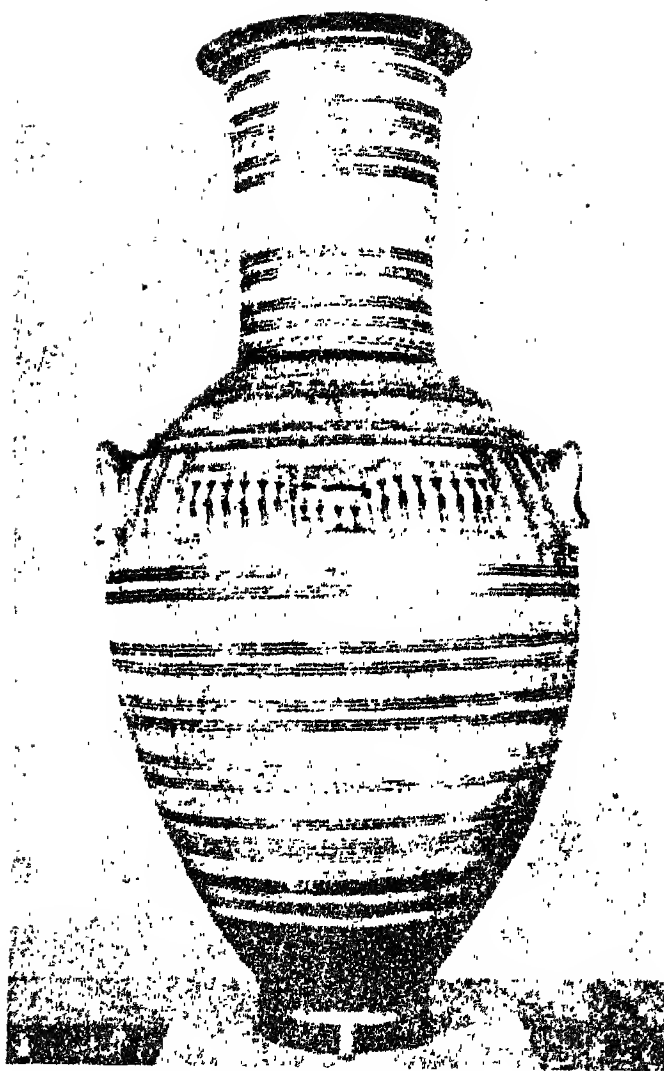
٢٣ : لوحة بالفسيفساء (الموزاييك) وجدت في بومبي بايطالية (اشتهرت باسم موازييك الاسكندر) يظهر فيها الاسكندر وهو بسبيل تحقيق الانتصار على الامبراطور الفارسي دارا الثالث في موقعة اسوس (٣٣٣ ق.م) او في موقعة جاوجميلة (٣٣١ ق.م.) وهي منسوخة من لوحة يونانية للفنان ابيلس رسمها حوالى ٣٠٠ ق.م.



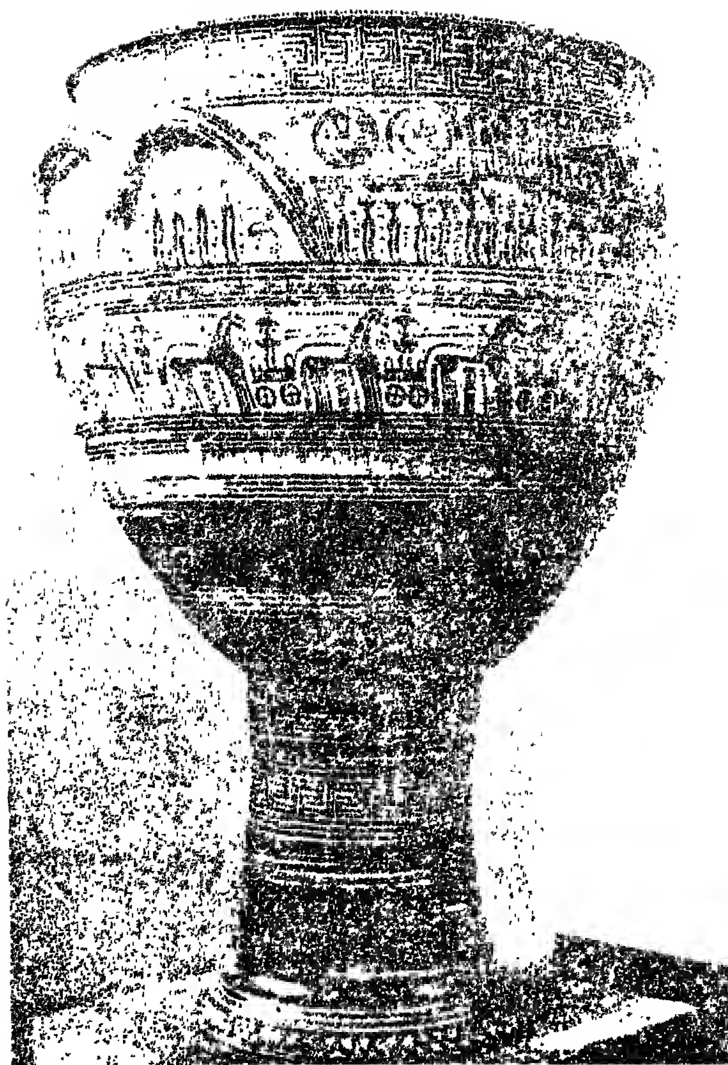
٢٦ : لوحة عثر عليها مصورة على جدار احد المنازل الاثرية في بومبيي الايطالية ، منسوخة من اصل يوناني من القرن الرابع ، ربما من رسم نكياس Nikias وهي تصور برسيوس perseus (بطل اسطوري) ينقذ اندروميده Andromeda (ابنة ملك اثيوبية في قصة اسطورية) من الوحش البحري الذي يغدو مذبوحا الى يسار الصورة .



٢٧ : اناء لمزج النبيذ بالماء Crater تظهر فيه الزخرفة
الهندسية الجيومترية؛ أشكال سوداء . أثينا ، حوالى ٨٠٠ ق.م



٨١ : جرة لحفظ العسل او الزيت amphora ، أثينة ، اشكال سوداء ، اواسط القرن الثامن ق.م. لاحظ منظر الرجال كأنهم خطوط هندسية .



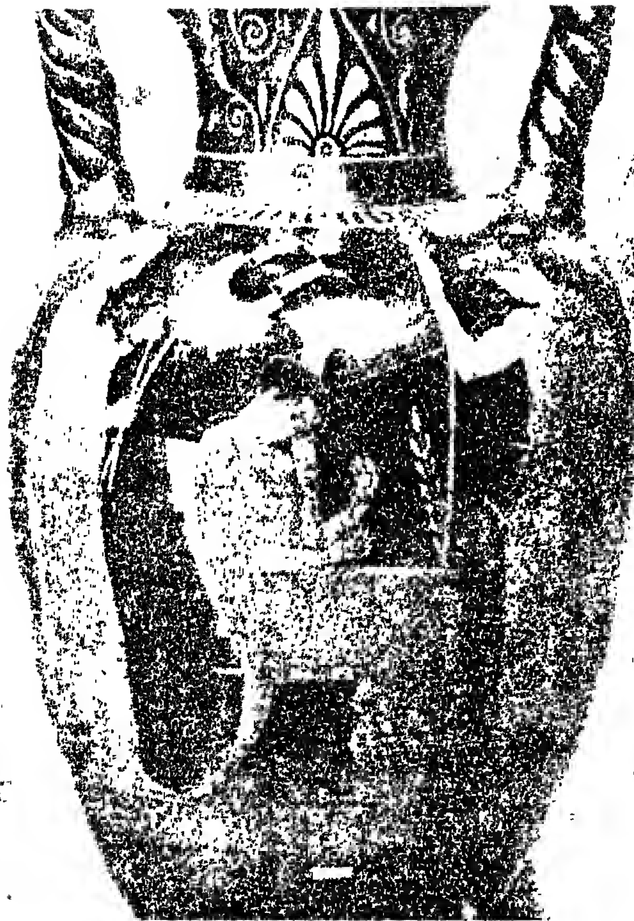
٢٩ : اناء لمزج النبيذ بالماء ، اثينة . اواسط القرن الثامن ق.م. أشكال سوداء ، في الدور الاعلى منظر جنائزي تبدو فيه النساء يشددن شعورهن علامة على الحزن ، في الدور الاسفل منظر راكبي العجلات الحربية . لاحظ الابتعاد التدريجي عن الزخرفة الجيومترية .



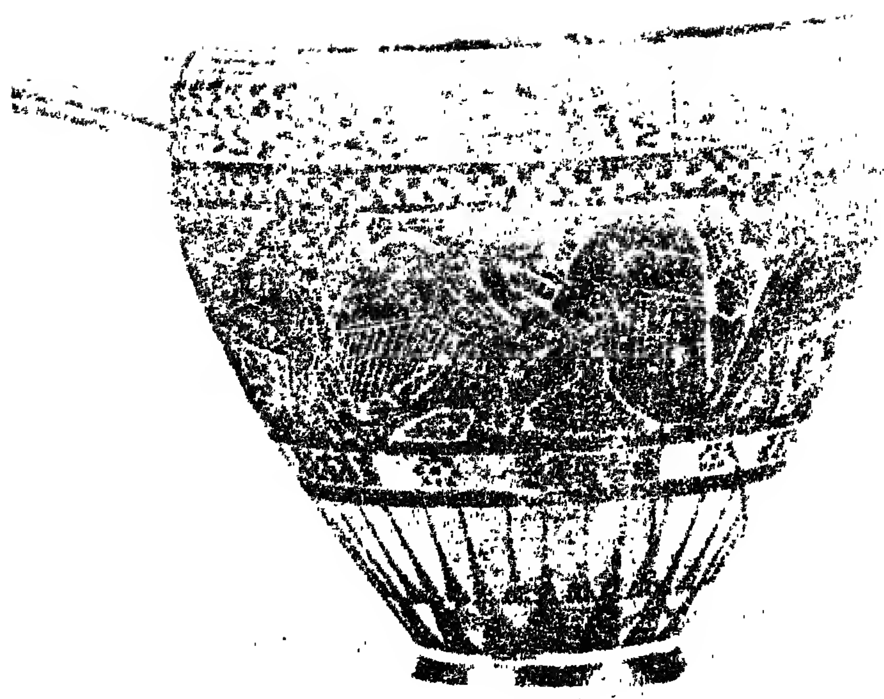
٣٠ ، جرة الطراز العتيق او الريفي ، اثينة ، حوالي ٧٠٠ ق.م ، اشكال سوداء ، لاحظ ان الرسوم بدأت تطغى على الخطوط الهندسية .



٣١ : جرة لحفظ الزيت أو النبيذ . اثينــة . القــرن الســادس . اشكال ســوداء . لاحظ ان الرسوم بدأت تصبح اكثر اتقانا . لاحظ اختفاء الخطوط الهندسية .



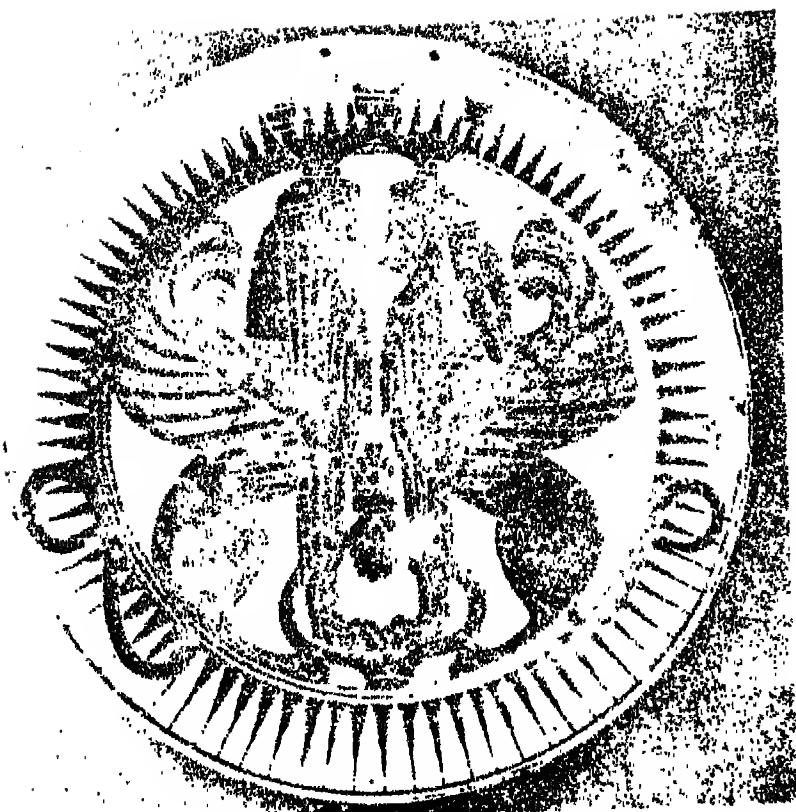
٣٢ : جره لحفظ الزيت أو النبيد . اثينة . اواسط القرن الخامس
"شكال حمراء .



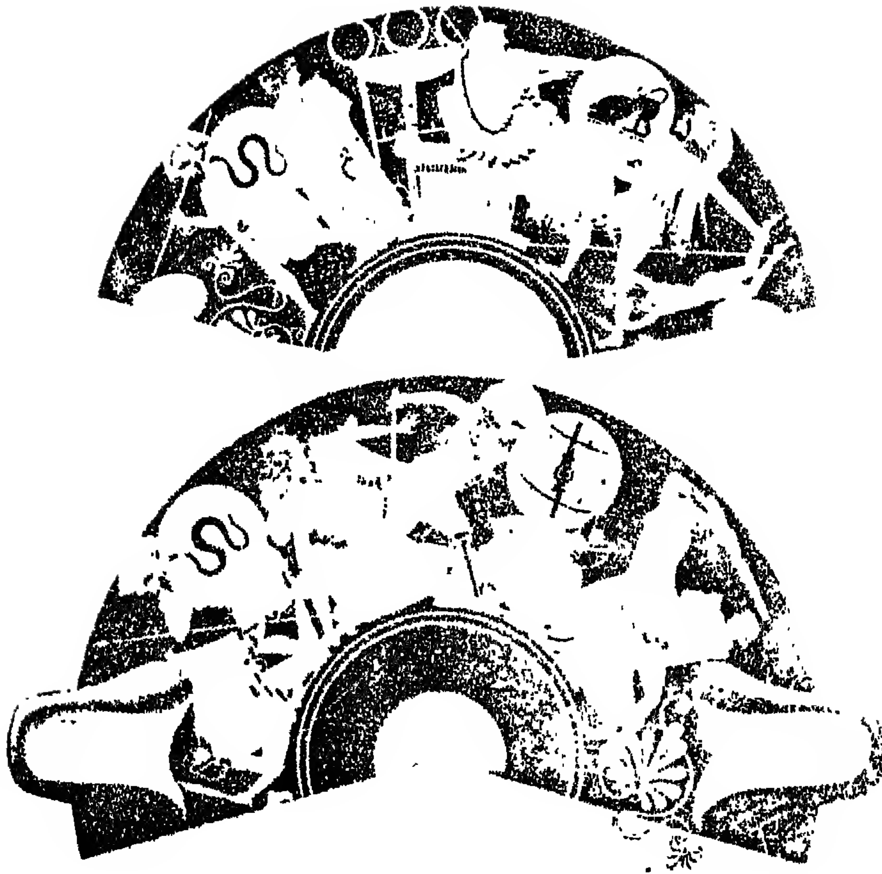
٣٣ : كوب من كورنثه . أواخر القرن السابع ق.م.



٣٤ : اناء لمزج النبيذ بالماء . كورنثه . القرن السادس . المناظر من اعلى الى أسفل : مناظر صيد . مناظر لسباق العجلات ، منظر لزفة عروسين . منظر مختلط لفنان ونساء . منظر لاسد يفترس أيلا ومنظر ميثولوجي لكائن مختلط يجمع بين راس انسان وجناحي طير وجسم اسد (تأثير شرقي). اشكال سوداء . لاحظ اتقان الصنع ودقه تنفيذ الرسوم.



٣٥ : صحن كورنثي ، أوائل القرن السادس ق.م. اشكال سوداء، يمثل كائنين مختلطين (وجه انسان ، أجنحة طير ، جسم اسد) تأثيـــر شرقـــي .



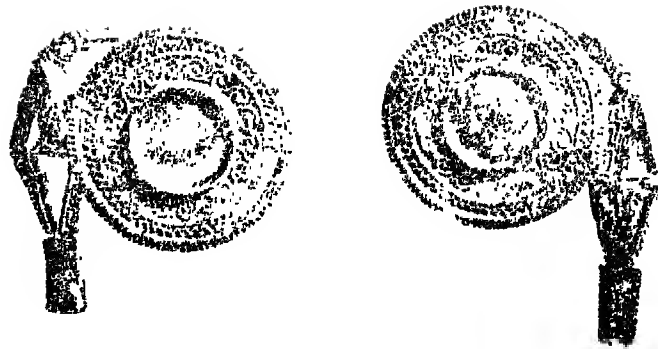
٣٦ : رسم توضيحي لكوب (كاس) مفرطح من اتيكه ، حوالي ٤٨٠ ف.م. اشكال حمراء . يمثل مناظر من سقوط طروادة في يد الآخيين (اليونان) الرسم الاعلى داخل الكوب يظهر فيه برياموس Priamos ، ملك طراودة ، لاجئ الى معبد الاله ابوللون . واحد اليونان يقذف الصبي استياناكس Astyanax ، حفيد الملك) ليقتله . السطح الخارجي للكوب يمثل المعركة بين الآخيين والطرواديين . المراة التي تحاول الدفاع عن الصبي استياناكس هي امه أندروماخي Andromache زوجة هكتور Hektor (ابن الملك) . لاحظ تأثر الالياذة (احدى ملحمتي هوميروس ، حيث يصف الشاعر هذه المناظر .



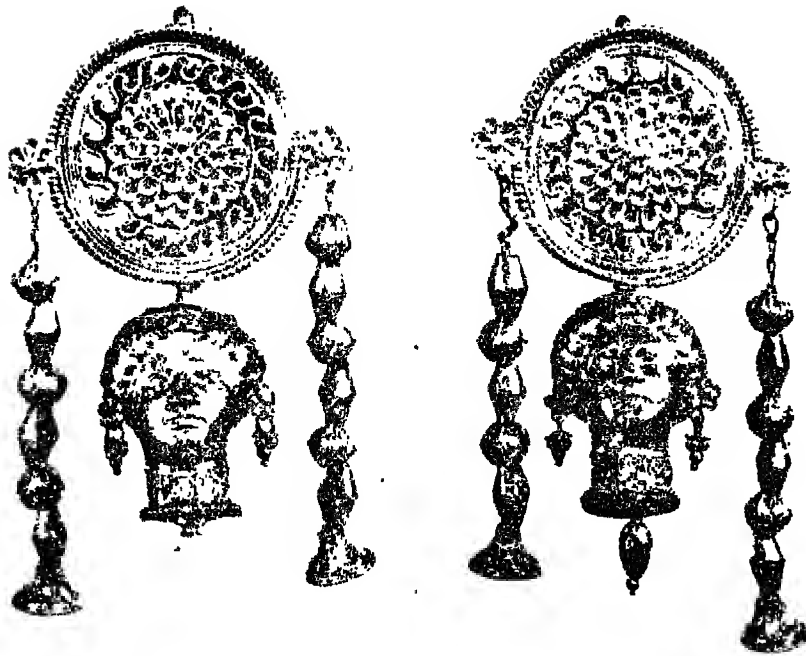
٣٧ : رسم توضيحي لكوب فخاري من اتيكه ، القرن الخامس ق.م. اشكال حمراء ، يمثل مدرسة يظهر فيها الصبية يتعلمون الموسيقى والكتابة والادب .



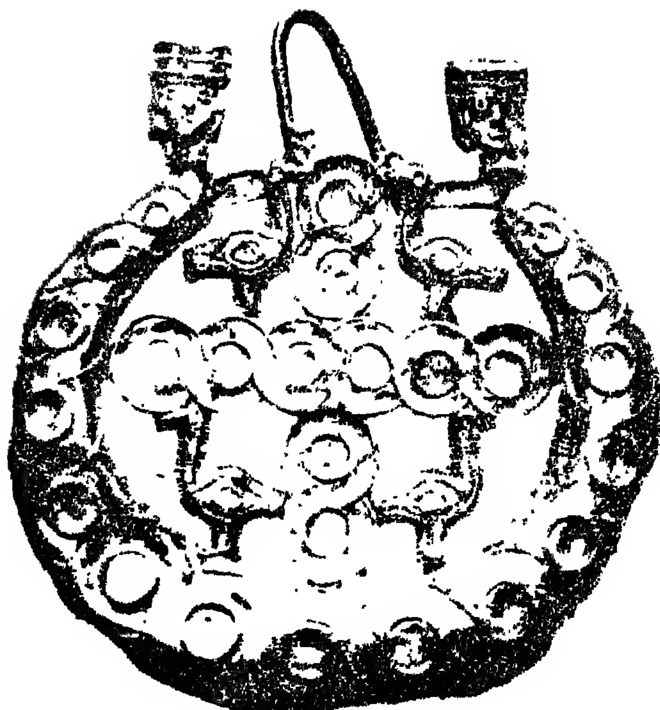
٣٨ : مزهرية من اتيكه . اواسط القرن الرابع ق.م. اشكال حمراء مع الوان بيضاء وذهبية ، تمثل عروسا تزينها صاحباتها استعدادا لحفل الزفاف (الاشكال الصغيرة البيضاء تمثل فكرة الحب وتوحي بجو الزفاف) .



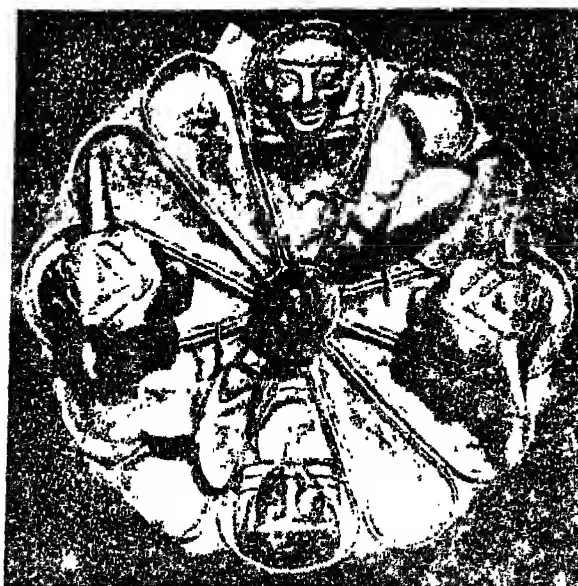
٣٩ : زوج من الحلق مصنوع من الذهب ـ القرن الثامن ق.م .



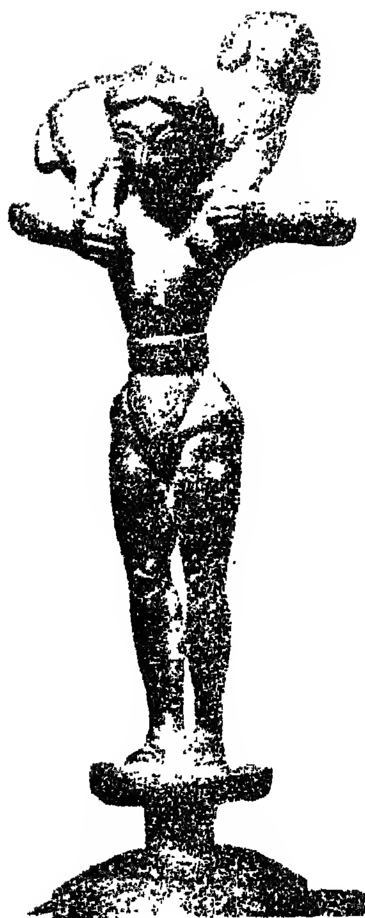
٤٠ : زوج من الحلق ، مصنوع من الذهب ـ القرن الرابع ق.م .



٤١ : دلاية من الذهب على هيئة هلال . كوسوس (كريت) . اوائل القرن السابع ق.م.



٤٢ : حلية ذهبية على هيئة زهرة . من الجزر اليونانية (في بحر ايجه) ؛ النصف الثاني من القرن السابع ق.م .



٤٣



٤٤

٤٢ : تمثال برونزي صغير لرجل يحمل كبشا ، جزيرة كريت ، اواخر القرن السابع ق.م

٤٤ : تمثال برونزي صغير لفتاة مقدونيه ، القرن الخامس ق.م.



٥٤ : رأس من البرونز عثر عليه في مستوطنة يونانية في برقـــة (ليبيا) . الزمن الترجيحي اواسط القرن الرابع ق.م .



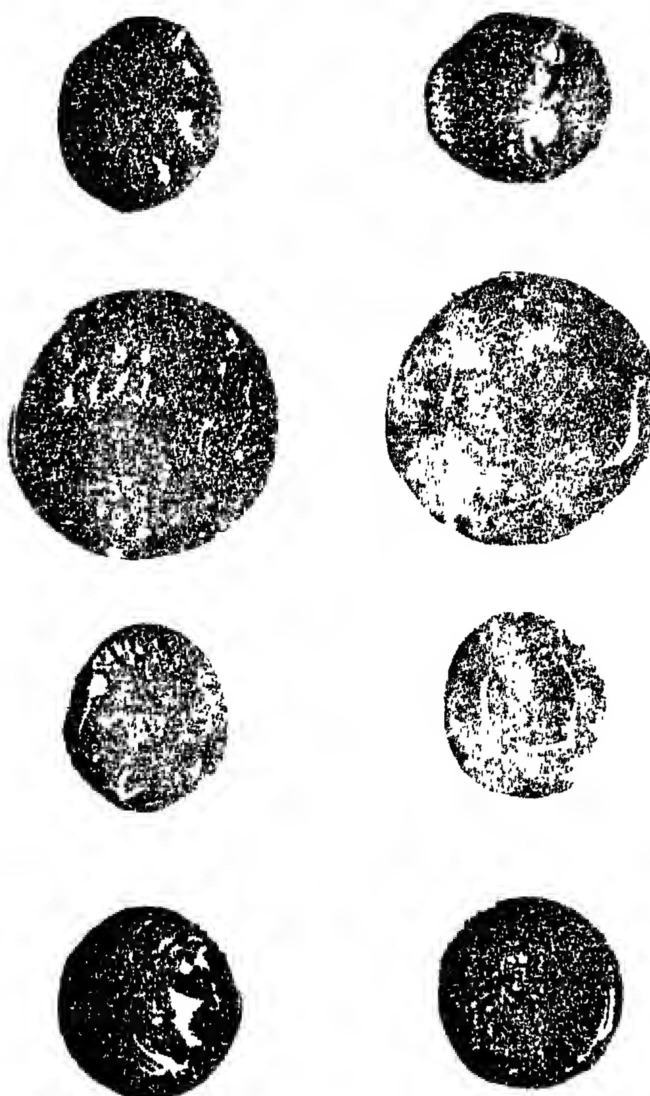
٤١٦ . راس غرفين Griffin (حيوان اسطوري لـه راس نسـر وجسم اسد) من البرونز . اواخر القرن السابع ق.م. دايير شرقي .



٤٧ : مسقط رأسي لقارورة مفرطحة phiale ، من الذهب ، وجدت في مقبرة اسكيثية في كول اوبه Kul Oba في جنوب روسية (صناعة يونانية) . القرن الرابع ق.م.



٤٨ : حامل مرآة على هيئة امرأة تقف على كرسي له ارجل حيوان.
من البرونز ، اوائل القرن الخامس ق.م.



٤٩ . أمثلة من العملة اليونانية الفضة؛ الصور بمثل الحجم الطبيعي. كل صورتين متقابلتين تمثلان وجه العملة ـ الى اليسار ـ وظهرها ـ الى اليمين؛ . من اعلى الى اسفل . قطعة من ذات الاربع دراخمات . اثينه. بعد ٤٩٠ ق.م. بقليل . قطعة ذات عشرة دراخمات . سيراكوزه؛ مدينة يونانية في جزيرة صقلية ٤١٢ ق.م قطعة ذات اربع دراخمات ، خالكدكي على الساحل الشمالي لبحر ايجه بعد ٣٩٢ ق.م بقليل . قطعة ذات اربع دراخمات . امفيبولس شرقي خالكيديكي؛ بعد ٣٢٣ ق.م بقليل .